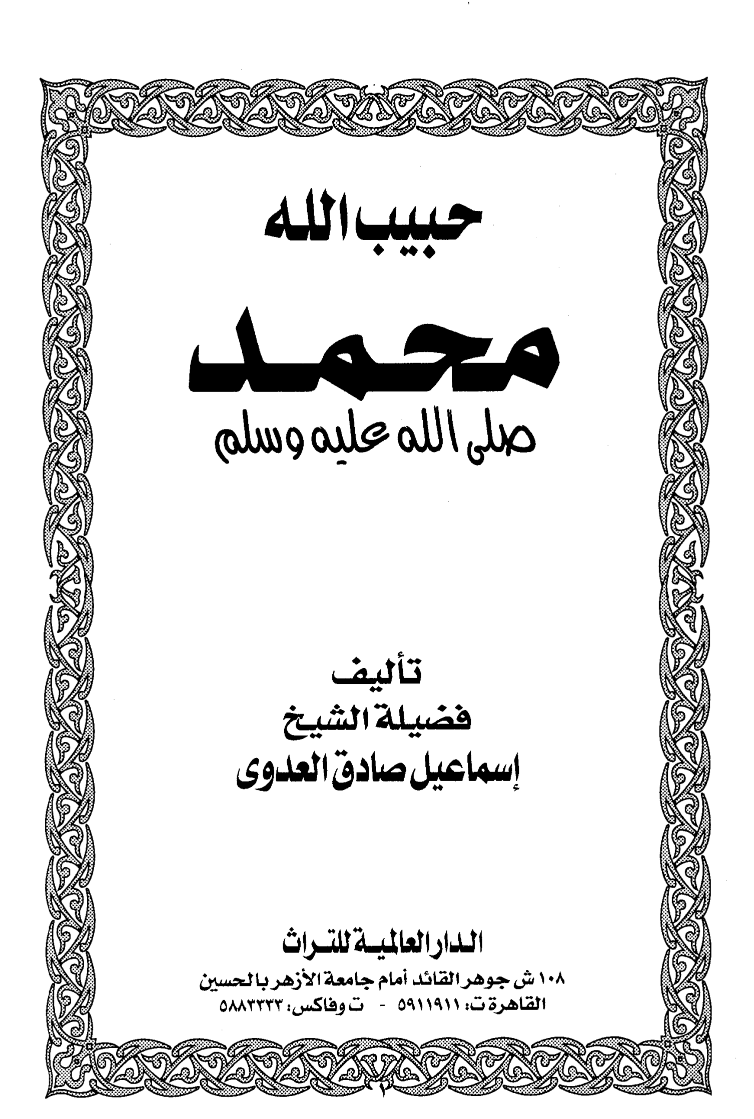


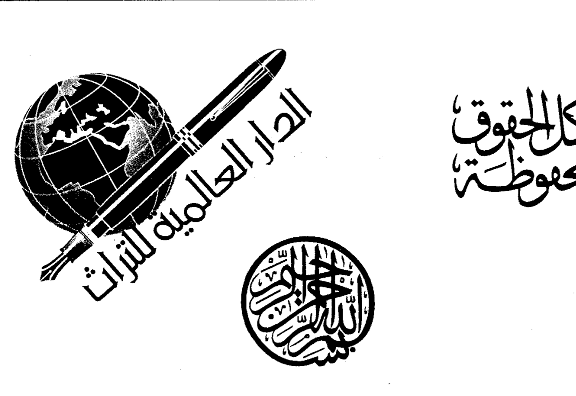
حبيب الله

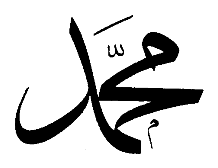
محمد

صلى الله عليه وسلم

تأليف
فضيلة الشيخ
إسماعيل صادق العدوى

الدار العالمية للتراث
١٠٨ ش جوهر القائد أمام جامعة الأزهر بالحسين
القاهرة ت: ٥٩١١٩١١ - ت وفاكس: ٥٨٨٣٣٣٣





حبيب الله محمد صلى الله عليه وسلم

رقم الإيداع
٢٠٠٥/٢٢٦٣٧
الطبعة الأولى

١٠٨ ش جوهر القائد أمام جامعة الأزهر - الحسين
القاهرة - ت : ٥٨٨٣٣٣٣ - ت.ف : ٥٩١١٩١١

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدلله ... والصلاة والسلام على رسول الله ... وبعد :

فيسعد الدار العالمية للتراث أن تخرج للقراء الأعزاء إصدارها الثانى من تراث فضيلة الشيخ الداعية / إسماعيل صادق العدوى، وهو كتاب «حبيب الله محمد صلى الله عليه وسلم» وسيجد القارىء فيه عاطفة نبوية جياشة تدعو إلى صدق اتباعه عليه الصلاة والسلام والتأسى به فى جميع أحواله... وخلال ذلك عرض فضيلة الشيخ الداعية بعض الشبهات التى يثيرها أعداء الإسلام حول المصطفى صلى الله عليه وسلم ثم نقضها بفكر واعٍ ورأى مستنير بِهَدْىِ الكتاب والسنة... وبذلك يصبح الكتاب زاداً لكل داعية وخطيب ولكل مسلم أوجب عليه الإسلام محبة النبى الخاتم الحبيب عليه أفضل الصلوات وأزكى التسليمات.

ونبشر القراء الكرام بأننا عازمون على نشر تراث فضيلة الشيخ الداعية إسماعيل صادق العدوى، بما فيه من فقه، ورقائق، وخطب منبرية، .. إلخ.

آملين بذلك إضافة جديدٍ إلى المكتبة الإسلامية ورؤية جديدة للقارىء المسلم.

وآخر دعوانا أن الحمدلله رب العالمين

الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

« مَنْ يُرِدِ اللّٰهُ بِهِ خَيْراً يُفَقِّهْهُ فِى الدِّين »

حديث شريف

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الأول

أُمِّيٌّ . . عَلَّمَهُ رَبُّه

سيدنا محمد ﷺ هو أصل الأنوار، وهو روح الأرواح وسرّها، وهو صفوة الحق نصير المظلوم، وهو حياة القلب بما أسرى الله فيه من نور هذا القلب الشريف، فهو قلب القلوب الواعى الذى اختير قلباً فريداً عميق الأثر، فهو المتأثر وهو المعطى، وهو النور وهو السراج ﷺ.

ونحن لا نذكره عن نسيان وإنما نذكره بما وهب الله فيه الزمن من معانٍ متلاحقة. كلما جاء أثرها تذكرنا ما أعطى الله رسوله ﷺ ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴾ «الضحى: ٥».

فكل آية تظهر هى جديدة لنا، وهى أصل له ﷺ.

فالحمد لله الذى جعلنا من هذه الأمة، وإن كان هناك بُعْد، فالرجوع قريب وإن كان هناك ذنب فباب التوبة مازال مفتوحاً ﴿ مَا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَها ﴾ «فاطر: ٢».

وذِكْرُ الحبيب المصطفى ﷺ ذِكْرٌ لنا، وبدونه لا وجود لنا، وهو فى وجوده وفى رُقِيِّه لا يزال فى درجاته التى لا تتناهى . . . فنحن به لا بغيره ﷺ.

وعندما نتعلق به، إنما نتعلق بالله، فهو الموصّل الوحيد ولا موصل سواه. إن ذَهْبتَ إلى غيره، فغيره قد أخذ منه، فمن العبث أن ننفصل عن الأصل بالفرع، وليس هناك فرع بلا أصل، فما دام الأصل موجوداً وهو فينا دائماً، لم ينقطع عن أرواح المؤمنين، وإن

كانت هناك أرواح مغلفة فهى المحجوبة وهو السراج المنير .

فمن لم ير فهو من نفسه قد وضع حائلاً ، فإن أزال الحائل رأى ، وإذا رأى تعلق ، وإذا تعلق ذاق حلاوة حياته ، فهو ﷺ سر حياة المؤمنين .

الرسالات تكريم للإنسان

نرى القرآن الكريم يضع المؤمن موضع البصيرة لا موضع البصر . فهذا الأمر يحتاج إلى بصيرة خاصة ، والبصيرية هى سر ما وراء المرئيات فيرى الأصول حتى ينتفع ، فإذا رأى الأصول وثقت نفسه بها وثبت عندها وقام بها وجاهد لها ، وهنا تسير الحياة بمعناها .

يقول الله تبارك وتعالى فى أصل تكوين الإنسان .

﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ «البقرة : ٣١»

فعلم الله سبحانه وتعالى آدم عليه السلام ، علمه أسماء الأشياء فى حياته التى تقوم بها فى دنياه ، فكل شيء ينتفع به فى حياته يعرف اسمه ، وإن اختلفت اللغة فالمسمى واحد .

مثال : هذا باب ، يُعرْف بأنه يُدْخَل منه إلى مكان .

يعرفه العربى ويطلق عليه اسماً .

ويعرفه الإفريقى ويطلق عليه اسمًا وهكذا .

فكلٌ يطلق عليه اسما من لغته أو من لهجته والمسمى واحد والمعنى واحد ، فهذا على الأشياء فى حياته وليست هى كل العلم ، فلم يخلق الإنسان من أجل كرسى ، أو باب ، أو شباك أو ملبس أو بيت أو قطار أو طائرة أو سفينة أو ساعة ، وإنما حياة الإنسان هى أغلى من هذا وأسمى من هذا .

فهذه أشياء موصلة إلى حياة أخرى وهى حياة روحه، فكل ما علمه من أول سيدنا آدم عليه السلام إلى وقتنا هذا، إلى يوم القيامة، من أسماء المنافع التى ينتفع بها هى أشياء مكررة.

فالباب قد يكون بمفتاح أو بالأشعة أو يفتح باليد أو كباب المصعد يمر الجسم فيفتح ويدخل فيغلق، فهو باب واختلف من شكل إلى شكل، ومن صعوبة إلى سهولة، فهو باب.

فعندما تقدم فى صناعةالباب، تقدم فى صناعة الحياة أيا كانت وفى أسباب الحياة المادية، فليس الإنسان حياة مادية صرفة، وإنما الإنسان مشاعر وأحاسيس ووجدان.

فهذه حياة الإنسان التى وُجدَ من أجلها أن يُحسَّ أنه إنسان، فجاءت الرسالات، رسالة بعد رسالة حتى تنقله فى كل مرة إلى الإشارة إلى نفسه.. أنت إنسان ولست حيواناً.

فالحمار أو الحصان قد تتغير السَّرجُ عليه وهو حمار، لم يتلذذ الحمار ببرذعة من حرير أو من قطيفة أو من فضة أو من ذهب، فتتغير هذه الأشكال، وهو حمار، لم يشعر فى أية مرة تغير فيها السَّرج بشعور جديد، بل هو حمار وليس شيئاً آخر فما زال حماراً، ولبس شيئاً ثانياً، هو هو لم يتغير.

﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ «البقرة: ٣١»

أسماء المُلْك، وجاءت الرسالات حتى يدرك الإنسان ما وراء هذا المُلْك من الملكوت، ومن أسراره.

فالأرض، والسماء وما وراء السماء، والأفلاك وماوراء الأفلاك، والعرش وما وراء العرش، فهناك علم آخر ينقل الإنسان من ظواهر الملك إلى حقائق الملكوت.

علوم الأبصار والبصائر

ولذلك يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) ﴾ «الأنعام: ٧٥».

ثم يأتى بعد أن ظهرت الطيور فى أشكال المادة.

﴿ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ «البقرة: ٢٦٠».

إذن هناك انتقالة من الإيمان العارى إلى عمق آخر فى القلب وهو وعى الإنسان، أى انتقال جديد، ووعى جديد وإحساس جديد وحقيقة جديدة، وتجدد فى المشاعر يوصل إلى اليقين، إلى اليقين بالحقائق التى عاش لها الإنسان ووجد من أجلها، لم يوجد من أجل خشبة ولا حديدة ولا تراب، إنما وجد من أجل شىء آخر.

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا (٢٦٠) ﴾ «البقرة: ٢٦٠».

وضعت قطع وأشلاء على الجبل، فهذه مادة والجبل مادة، فخرج السر فلم تعد الأشياء إلى طبيعتها بمجرد وضعها على الجبل، والجبل مع ضخامته لم يصنع شيئاً. جبل جامد، ماذا يصنع فى الأسرار وفى علم لايدركه؟ جماد كائن وفوقه أشلاء من الطير.

﴿ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ﴾ «البقرة: ٢٦٠».

فربما يكون هذا الجبل أو ذاك الجبل، فلا جبل يدرك شيئاً، هو جماد يسبح الله بكيفية لا يعلمها إلا الله تعالى.

ولكن لا يحرِّك شيئاً سكَّنه الله، ولا يسكِّن شيئاً حرَّكة الله.

﴿ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠) ﴾ «البقرة: ٢٦٠».

أى عند ندائك تجليتُ أنا على هذه الأشكال فعادت كما كانت مع اختلافها. فهذا منقار من هنا، وجناح من هنا، ورِجْل من هنا، أشلاء مختلفة.. فعند النداء كان التجلى.

ثم قال: ﴿ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠) ﴾ «البقرة: ٢٦٠».

واعلم: فالعلمُ علْمُ الأسماء الظاهرة، هذه دجاجة، هذه حمامة، طيور بأسماء مختلفة.

هل الكون هذه المادة فقط، أم هناك علم آخر؟

هناك علم آخر. ولذلك قال الله بعدها: ﴿ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠) ﴾ «البقرة: ٢٦٠».

عزيز فى حكمه، فهو المهيمن، المسيطر، الجبار، المالك لنواصى الأشياء، فهذا علم آخر، من علم إلى علم.

فهكذا يعلمنا القرآن مدارك العلوم ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ «البقرة: ٣١».

فهذا علم بنى آدم فقط ﴿ ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) ﴾ «البقرة: ٣١-٣٢».

فالملائكة لهم علم يناسبهم، والإنسان له علم يناسبه، فما وهبه الله سبحانه وتعالى للإنسان ليس مقصوراً على ظواهر الأشياء وإلا كانت بقية الكائنات المشاركة له فى الحيوانية قد تكون أكثر منه قوة فى إدراك هذه الكائنات، فيرى الصقر أكثر، ويشم

الكلب أبعد، ويؤثر الأسد فى تكوين جسمه قوة ليست فى الإنسان، فإذا كان هناك مقياس فى مرائي الأشياء بين الإنسان وبين بقية الكائنات الحيوانية، فالإنسان ضعيف ﴿ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا (٢٨) ﴾ «النساء: ٢٨».

فعلم الإنسان بظواهر الأشياء ليس هو الحياة كلها.

وإذا فهم الإنسان أنه بهذا سخر الحياة له، فغيَّر أسلوب فتح الباب أو غيَّر أسلوب المواصلات والانتقالات من مكان إلى مكان إلى أسلوب أوسع فهو حيوان انتقل من مكان إلى مكان بسرعة أو بأخرى، فالجسم قد انتقل به وهو كتلة من اللحم، أو هو كائن حى انتقل أو انتقل به من مكان إلى مكان ولكن مازال على حيوانيته فهو يسعى إلى ترقية الجسم، فوقف جهد الإنسان عند هذا الحد. والإنسان لم يخلق لهذا.

ولذلك عندما نبصر الذات المحمدية ﷺ، نجد أنه صلوات اللهوسلامه عليه، قد فصل الأمر بين هذه الحياة وبين هذه الحياة، حياة المرائى وبين الحياة الحقيقية للإنسان. فجاء ﷺ ونشأ. وكانت نشأته فى بساطة الحياة، فعندما كان فى الثالثة أو الرابعة دون الخامسة كان يأكل مع أبناء عمه ويشرب مع أبناء عمه، فقال: يا أماه (وهى والسيدة حليمه رضى اللهعنها) إنى أحب أن أرعى الغنم مع إخوتى.

فقالت له: هم يكفونك.

فقال: لا، أنا لا أحب أن أقعد دون مشاركتهم، فتيسرت الحياة.

وهو فى طفولته عرف أن حياته ليست من أجل أن يَطْعم وإنما من أجل أن يتحرك وأن يشارك إخوته وهو جزء من البشرية، فالحياة لها أساليب مختلفة. وجاء الشباب، فخرج يرعى الغنم، ثم أسباب الحياة فى هذه المنطقة أو أسباب الحياة المغلقة فى هذه المنطقة هى هذا فقط، سعى من أجل الرزق، وطعام وشراب وحياة هى غاية فى

بساطتها. وعندما وصل إلى هذه الظواهر كان هناك الملل، لأن الإنسان بصفاته لا يقف عند لقمة أو شربة وإنما هناك ما وراء ذلك.

ما وراء الأغنام؟ فالأغنام ليست غاية.

وما وراء الطعام والشراب؟ فالطعام والشراب ليس غاية.

أو الانتقال إلى بيت أو زيارة هذه أساليب عادية.

فوقف عند نقطة الفصل، بين علمين، بين علم الحياه متى يتشابك فيها الناس من أجل ترابهم وبين البصيرة. وأفق الإنسان ليس تراباً فقط، لأن أفق الإنسان إذا كان تراباً، وافق الحيوان تماماً فى الأفق، فغاية الأفق الحيوانى هو هذا، ولكن ما أكل الإنسان وما شرب من أجل أن يقف عند هذه الحدود الحيوانية.

فالعلق نعلمه عندما يتعلق الحيوان المنوى بالبويضة عقب انتهاء الطمث بفترة محددة فيتعلق الحيوان المنوى بالبويضة تعلقاً كاملاً.

وهنا يصيران شيئاً واحداً. ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً ﴾ «المؤمنون: ١٢-١٤».

فأصبح شيئاً واحداً. فنزول أول سورة باسم (العلق) إشارة إلى أن هذه الفطرة السليمة تعلق بها أمر الرسالة تعلقاً تاماً ثم كان التخلق وكانت الترجمة بعد ذلك.

العلم الربانى

فأمر الرسالة ترجمة تامة وترجمة تفصيلية للحقيقة المحمدية فأنزل الله قوله: ﴿ اقْرَأْ ﴾ «العلق: ١»، فقال: ما أنا بقارىء... وليس الأمر بقراءة الألفاظ والحروف والكلمات، وإنما القراءة ترجمة لوعيك ولحقيقتك.

قال: فأخذنى فغطنى ثم تركنى، قال: اقرأ.

فقلت : ما أنا بقارىء . . قال : فأخذني فغطني الثانية (أي ضمني ضماً شديداً) ثم تركني ، قال : فأخذني فغطني الثالثة (أي ضمني ضماً شديداً إليه) ثم تركني ثم قال : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ «العلق : ١-٥» فمازال السر مستمراً في علم حقيقة الإنسان ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ «البقرة : ٣١» .

وعندما بدأت الرسالة بدأت بعلم كامل جامع لما سبق يتجدد فيه الرقي البشري بلا حدود .

فهذا العلم الجديد أو هذا العلم الموافق لما سبق في الغاية هو علم رقي البشر . وعلم رفعته وانتقاله ، هو علم لا يمكن للإنسان أن يعيش بغيره إطلاقًا ، بأي حال من الأحوال ويقول الله سبحانه وتعالى في هذا المعنى .

﴿ لَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا (١١٣) ﴾ «النساء : ١١٣» .

وهذه مقارنة واضحة بين علومهم ومعلوماتهم وبين علمك ﴿ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ ﴾ «النساء : ١١٣» .

كيف يضلونك بعلم فيه غبار النفس ودنسها وفيه تراب الشهوات ووسخها ، فهذا لا يدرك الثريا .

فهذه معلومات ترابية شهوانية لا تصل إلى ما أنت فيه . فعلمك علم يرقى به من يتبعه إلى الآفاق العليا فمن دونك بترابهم وشهواتهم ، والذين لازالوا عند حيوانيتهم

ذلك، وكلٌ على مستوى التراب.

فلا فرق أمام الحديد كل يديره وكل يحركه، ولكن هناك فرق بين إنسان وإنسان فالذى يحرك الحديد عقل، وإذا وافقه عقل آخر فى هذه المعلومات تساوياً، ولكن تختلف الإنسانية من واحد إلى واحد تختلف تماماً، فهذه يد تصنع الخشب وهذه أخرى تساوت فى هذا، ولكن هذا إنسان وهذا إنسان آخر.

هذا إنسان وقف عند خشبة أو حديدة، وهذا إنسان انتقل بعد ذلك إلى حقيقة نفسه.

ويقول الله تبارك وتعالى: ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا (١١٤) ﴾ «طه: ١١٤».

فالوحى الذى نزل على هذه الذات والذى ترجم حقيقته، وهى فيه علم الإنسان، العلم الكامل، فلا تنتظر بعد ذلك علماً من أحد ولا تتوقع الجديد من أحد إطلاقاً. لا من قريب ولا من بعيد، ويقسم الله من أجل ذلك بعد هذه الآية ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا (١١٤) ﴾ «طه: ١١٤».

زدنى أنا، أى ما كان هناك من بداية وكانت الزيادة بعد الزيادة ما كانت إلا قصراً على هذه الذات. لم يدخر من هذا العلم شيئاً لغيره. فإذا ادخر شيئاً لغيره فهذه الذات ليست كاملة وإنما انتقص منها شيء فهى لا تستحق أن تكتمل فيها الدائرة ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا (١١٤) ﴾ «طه: ١١٤».

ولم يقل: رب زد الناس علماً. وإنما قال: (زدنى أنا) الوحى إلىَّ بكامل المعنى، ومعنى الكمال وأنا المصدر الوحيد لأننى أنا الذات التى فطرت على سلامة. فترجم الوحى حقيقتها ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ

﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا (١١٤) ﴾ «طه: ١١٤».

ثم يقول الله سبحانه وتعالى مقسماً من أجل ذلك كما أخبرنا: ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) ﴾ «النجم: ١-٢».

ما ضل من قل وما غوى، لأنه إن كان ضالاً أو غوى لضلاله لا حتاج منا إلى صقل وتهذيب وتقويم، فتشغل الرسالة به ولكنه كان نقياً تقياً نيراً نوراً كاملاً ﷺ فهو خيار من خيار.

﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ (٥) ﴾ «النجم: ١-٥».

علمه، علم فيه كل علم، وتستمد منه سائر العلوم الإنسانية السليمة الطاهرة.

ما في محمد هو من الله لا من سواه، وما كان منه فهو من الله وإليه ﷺ

﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ (٥) ﴾ «النجم: ١-٥».

فالوحي كله من الله وحده، والموحى إليه بهذا الكل هو واحد فقط. فمصدر الوحي واحد، الذي أوحى إليه واحد، وهذا دليل على كمال الفطرة وبصيرة الوعي التام في هذه الذات العلية الشريفة والتي تدل على حقيقته قبل وجود الأشياء كما قال صلوات الله وسلامه عليه: «كنت أول النبيين خلقاً وآخرهم بعثاً» ويقول ﷺ عندما سُئِلَ: متى وجبت لك النبوة فقال: «وآدم بين الروح والجسد».

وفي حديث آخر: «قبل خلق آدم بأربعة آلاف عام».

فالأصل قديم والكمال مثبت. فلم يكن هناك من أسباب الحياة تكملة فالحياة لم تكمل وإنما كَمُلَتْ الحياة به، ﷺ فأضيفت إليه لأنها محتاجة، فتخرج من ترابها ما

ينفر منه التراب ومن هنا أخذت المواثيق، ميثاقاً بعد ميثاق، من المكمَّلين لا من سائر البشر. من الأنبياء والمرسلين على أصالة هذا المصدر الوحيد. فإن وُجدَ فهو الأصل والكل يتبع ويتَّبع.

كما أخبر ﷺ في معنى الحديث: إن أدركني موسى ما وسعه إلا أن يتبعني.

صدارة علمية

يقول الله تبارك وتعالى في هذه المواثيق المتكررة المتجددة على مثال واحد لم ينفصل ولم يتغير ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٨١) ﴾ «آل عمران: ٨١».

بالفعل الماضي، انتهى الأمر، ليست هناك مباحثات أو تفاوض في هذا الأمر ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٨١) ﴾ «آل عمران: ٨١».

ثم تأتي آية أخرى فيصدره الله تعالى صدارة علمية في ميثاق آخر، عندما أخذت المواثيق كلها من الخمسة أولي العزم صُدِّرَ هو في الأول ﷺ: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا (٧) لِّيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (٨) ﴾ «الأحزاب: ٧-٨».

بعد ذلك ليسأل الصادقين عن صدقهم. فيأتي بهذه الصفةالتي رجعت إليها كل الصفات فيجمع الله رسوله معه فيها فيقول: ﴿ وصدق الله ورسوله ﴾

فهذه ذات صادقة في وعيها وفي إحساسها وفي مشاعرها فَصَدَّق الوحي ما فيها. عندما جاءت آيات الصدق كلها لم تخرج إطلاقاً عما في خلقه ﷺ

فحقيقة العلم هو الرجوع إلى صاحب العلم. فصاحب العلم هو الله، والذى علَّمَ هو الله.

فيقول الله تبارك وتعالى ليطمئنه وليشعره بكمال المعانى وتكميلها له. ﴿ لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) ﴾ «القيامة: ١٦».

فالأمر ليس لسانة فاللسان حركة يعبر عما فيك وما أنت عليه ﴿ لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) ﴾ «القيامة: ١٦-١٧».

فالقراءة تعبير والجمع حقيقة.

لن ينفلت الأمر حتى يجمع فى هذا الصدر كل ما أُحب أن أجمعه للبشر جميعاً إلى يوم الدين. ﴿ لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) ﴾ «القيامة: ١٦-١٧».

ولم يقل فإذا قرأه جبريل فزالت الواسطة

﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (١٩) ﴾ «القيامة: ١٨-١٩».

فليس كل من قرأ آية قد وصل إلى أبعادها وإلى حقيقتها، لا ولكن بيان هذا العلم من الله، وقد كشف لرسوله ﷺ ذلك فأعطاه ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ ﴾ «الكوثر: ١».

بالكاف ولم يقل إنا أعطينا الأمة فليست تَرِكَةً، كلٌ يأخذ قدراً وإنما كلٌ يرث، يرث منه العلم. وفصل الله بين التراب والعلم فى الميراث.

«نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة».

ثم جاء فى الميراث الحقيقى «العلماء ورثة الأنبياء».

والميراث أخذ جزء على قدر الاستعداد وعلى قدر الوعى، فكل الوعى من أول العطاء إلى آخر الدنيا. كل الوعى فى كل الصدور، والعقول إنما هى أوعية يصب فيها (بعض) من (كل) ولم يصل أحد إلى استيعاب الكليات العلمية التى وهبها الله لرسوله

صلوات الله وسلامه عليه.

(إنما أنا قاسم و الله معطٍ).

يقول الله تبارك وتعالى ﴿ إنا فتحنا فتحاً لك فتحاً مبيناً ﴾.

فتحاً لا يشك فيه أحد ﴿ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴾.

*　*　*

الفصل الثانى

العدل فى سيرته ﷺ

العدل فى اسمه وصفته ﷺ

إن الله سبحانه وتعالى أمّد رسوله ﷺ ومَنّ عليه بما يغنى الأمة خُلُقاً وعلماً. وأدباً وفضلاً. وهو الجمع الجامع الذى رفعت راياته فلا راية فى الدنيا إلا رايته، ولا عِلْم إلا علمه.

هو النبى ﷺ الذي اختار الله له صفة الحمد. فسماه بها.

فقال ﷺ فى حق نفسه: «لست بمدمم وإنما أنا محمد».

وهذا هو جمع الفضل وخير العطاء فيما اختار الله له من الاسم «محمد» وجاء فى القرآن كذلك «محمد رسول الله» ليس رسولاً لملك من ملوك الدنيا ولا نائباً عن أحد.

فالكامل لا يكون إلا رسولاً لمن نُزّه عن كل نقص ووجب له الكمال. فجعله الله كاملاً لهذا المعنى. يقيم الحقيقة فى الأرض ويقيم العدل فهو عدله فى الأرض.

فى أرض ملئت بالظلم.. ظُلِم العقل بالكفر، وظُلِمَت الجوارح بالمعاصى. وظَلَمَت الأرض بالفساد. ظلمت الدنيا بأفعال أهلها.

وطغى الناس وسيطر بعضهم على بعض فانتفى العدل وذهبت الراحة عن الناس فتطلعوا إلى العدل.

من الذى يأتى به؟! ومن الذى يحققه فى الأرض كلها؟!

لا يحققه حاكم ظالم، ولا بشر طاغ، ولا إنسان ناقص. وإنما يحققه «محمد» باسمه وصفته.

فهو الاسم الجامع لجوامع الحمد والثناء وحقيقٌ به يُحْمَد فى الأرض من الناس، ويُحْمَد فى السماء فهو المنتظر. ويُحْمَد من الطير والحيوان والحيتان والذرّ والنمل، فهو الذى يحقق العدل بعد أن أظلمت الدنيا بظلمها وظلامها.

فجاء إلى الأرض وتطلعت القلوب والجوارح. وجاء سيدنا محمد ﷺ جاء إلى مكة - بل إلى المدينة - بل إلى الجزيرة بل إلى الدنيا كلها. وعندما ظهر إلى الدنيا وكان فى بطن أمه، لم تر ألماً فكان رحمة عليها وهو فى بطن أمه.

ثم ظهر عدله عندما كان يرضع من السيدة حليمة رضى الله عنها. كان يرضع ثدياً واحداً ويترك الآخر لأخيه. فظهرت معالم العدل وهو رضيع وهى بشرى إلى الدنيا.

ظهر الحق. وظهر العدل، وظهر النور. وجاءت الحياة فيه بكل معانيها فكلما كمل يوماً كملت الأيام به. فقد كان الزمن بغيره لا زمن.

العدل فى المشاعر

ويكبر النبى ﷺ حتى تأتى الرسالة ويخرج بها إلى الناس. فكان عدلاً فى الكلمة. يخشى الظلم ويخافه فأحس الناس به. فقابله رجل فى مكة وقال:

يا محمد أين ما عليك؟ إنكم يا بنى المطلب مُطْل (أى تؤخرون ما عليكم من دين).

وأمسك بثيابه حتى كاد أن يختنق، فأراد سيدنا عمر رضي الله عنه أن يضرب عنقه.

فقال ﷺ «يا عمر، أنا وهو نحتاج إلى غير ذلك، أن تأمرنى بحُسْن الأداء، وأن تأمره بحُسْن الطلب، أعطه حقه. فأعطاه. ثم قال ﷺ: يا عمر أعطه ثمن ما روّعته. فأعطاه شيئاً زائداً.

لقد خشى ﷺ من الظلم من كلما قالها غَيْرُهُ فَرُوِّعَ الرجل. إنه يخشى ظلم الكلمة فما بالنا بالفعل.

والنبي ﷺ يظهر فيه أمر العدل لأن الإنسانية تحتاج إلى ذلك، لا تحتاج إلى كلام. وإنما تحتاج إلى حكمة رسول بين الناس وإلى عدل يذوقه العباد.

ثم نراه ﷺ يُقَسِّم بين الناس. فقال واحد: يا رسول الله اتق الله واعدل. فقال ﷺ: ويحك أخي. ومن يعدل إذا لم أعدل، ويحك يا أخي ومن يعدل إذا لم أعدل.

وانتهى الأمر ولم يعاقبه وإنما عاتبه لأن من العدل أن يكون العلم بحلم.

لأنه الحلم الواسع الذي مَنَّ الله عليه به.

فهو المحيط الذى لا يدرك؛ يسع الخلق جميعاً بحلمه، حتى يؤسس حقائق الإسلام.

وأول حقائق الإسلام أن ينتشر العدل بين الناس.

وصلوات الله وسلامه عليه في بيته، كان يقسم بين زوجاته قسمة لا يشك فيها، ولا يعترض عليها، يقسم الطعام والشراب ويقسم المبيت. وكان يميل صدره إلى السيدة عائشة رضى الله عنها فخشى أن يكون ذلك ظلماً، فخاطب ربه فى خوالج صدره فقال:

«يا ربى، هذه قدرتى فى ما أملك، ولا حول لي ولا قوة فى ما تملك ولا أملك».

ألا وهى محبة قلب، فخشى أن يكون ظالماً فى مشاعره وفى حبه. إنه الحريص أن يكون عادلاً فى حق نفسه أولاً، حتى إذا أمر به بحق، وأقره بين العباد بصدق، فلا يعترض أحد، حتى كان مريضاً وهو مثقل بالمرض ويريد أن يبيت عند السيدة عائشة رضى الله عنها فيقول: «أين غداً؟ أين غداً؟».

يريد أن يستأذن من زوجاته حتى لا تُظْلم واحدة فى ليلتها. فلم يأت إلى السيدة عائشة حتى أذنت له زوجاته، إنه يقسم الزمن وهو مريض لا يستطيع أى عمل من الأعمال وإنما أثقلته الحمى فخشى أن يحمل ظلماً لواحدة فأذنَّ له. فلما أَذِنَّ له فرح واستبشر.

وذهب إلى السيدة عائشة رضى الله عنها ومات كما ورد عنها، مات النبى ﷺ على صدرها وهو مطمئن البال، لم يظلم واحدة من زوجاته فى أى ليلة ولا فى زمن حتى وهو مريض.

بالعدل أقام الأمة

ثم هذه العظمة لا تدخر لذاتها شيئاً ولا تبقى لراحتها وهناك محروم.

فمن العدل ألا تكون راحته على حساب الناس ولا على حساب الفقراء والمساكين فبقى عنده سبعة دراهم فقال: أنفقن الدراهم.

فشغل النساء: فقال: يا عدوات أنفسهن أنفقن، فإنى أحب أن ألقى الله وليس فى بيتى درهم واحد.

وقسمت الدراهم وخلص منها حتى لا يخرج من الدنيا وعليه ثقلها ومالها، وهذا هو علم ننتقل منه إلى حقيقته الشريفة التى كمّله الله بها.

فكماله فى ذاته، هذا أمر عظيم ولم يُكَمَّل ليوصف بكماله، وإنما كُمِّل ليذوق الناس عدله وليعلموا حقيقته.

لم يحرم واحد فى عهده ولم يعترض واحد فى جوع أصابه، ولا فى فقر انتابه وإنما كان هو الأمل وهو الرجاء فى تحقيق عدل حرم منه الناس.

ولهذا يقول ﷺ فى حديثه الذى ورد فى الصحيح ويقرؤه العلماء ويتداوله الحكام ويُسْتَمَع إليه فى كل آن فى المسجد والبيت ويُقْرأ فى الكُتَّاب وَيُدرَّسٌ فى الجامعات والجامع. يقول أسعد الخلق ﷺ: «تَسَمَّوا باسمى ولا تُكنُّوا بكنيتى، إنما أن قاسم والله يعطى».

هذا وصف فى الحقيقة المحمدية التى يريدها الناس من رائدهم وزعيمهم والحاكم

بينهم أن يكون قاسم الحق والعدل والقسطاس المستقيم، فهنا يسعد الناس.

وليس عنده فئة دون فئة. ولا لون دون لون، وهى عظمة الإسلام ..إنما أنا القاسم.. كل ما أعطاني الله سبحانه وتعالى أنا قاسمه، الناس عندى سواسية لا فرق بين حاكم ومحكوم، ولا بين أبيض وأسود، ولا بين غنى وفقير، لا بين قوى وضعيف، الناس سواسية فى العطاء، فى الأمر والنهى يقام الحق ويحقق العدل على كل البشر، مهما كانت صفتهم الخلقية ومهما كان جاهُهم ومهما كانت قوتهم.

وصف واحد أقام به الأمة، وحقق به الخير. ونشر به الهدى هذه هى البداية التي لا يختلف عليها ولا يعترض عليها، ولا يقال فيها مقال: «إنما أنا قاسم والله يعطى».

سيدنا أبو ذر الغفارى رضي الله عنه وأرضاه يقول لسيدنا بلال رضي الله عنه :(يا ابن السوداء) فذهب سيدنا بلال إليه ﷺ وقال: «يا رسول الله إن أبا ذر قد سبَّنى، وقال لى يا ابن السوداء».

العدل يَسُدُّ هذا الباب....!!!

وفى الحديث الذى رواه الإمام مسلم: يقول ﷺ إجابة لسؤال أعرابى، والسؤال يقول له: أى الإسلام خير؟ فأجابه ﷺ فى أمرين اثنين: «تطعم الطعام وتُقرِئُ السلام على من عرفت ومن لم تعرف» كلمتان جامعتان فيهما العدل. وجاء بأعظم شىء حتى يبعد الظلم عن الناس، الحياة تقوم بإطعام الطعام، بإطعام الفقير وإطعام المحتاج، وهذا هو السد المنيع الذى يمنع طريق الإلحاد لأن أعداء الإسلام يدخلون من هذا الباب. فيستقرون فى أرض الإسلام باسم العدل وباسم المساواة، وإن الإسلام قد منع أعداء الإسلام بأبسط الكلمات: تطعم الطعام. فإذا طَعِمَ الناس ارتاحت قلوبهم وأحب بعضهم بعضاً.

أن تطعم أخاك وأختك وأمك وأباك، وكذلك أخوك يُطْعِم، وجارك يُطْعِم فينتشر الخير بين الناس.

وهذا هو التكافل والعدل. كما يقول الثوار فى كل آن بعد أن غاب العدل، **إن الثورة** كفاية وعدل، والإسلام كفاية وعدل، وهكذا حقق الإسلام العدل بالحديث: **«تطعم الطعام وتُقرئ السلام»** ولم يقل: وتلقى السلام، وإنما قال: **«وتُقرئ السلام»**.

ولا يكون السلام إلا بالعدل، ولا يتحقق إلا بالعدل: وتقرئ السلام.

كما قال الله تعالى: ﴿ اقرأ ﴾.

أى لم يقل: «قل». بل ﴿ اقرأ ﴾

أى ابحث وتمعَّن وافهم وتعلم ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾.

فطلب منه علْم السلام. أن تتعلم حقيقة السلام، وتقرىء السلام **على من عرفت** ومن لم تعرف.

فإذا وجدت فقيراً محتاجاً مررت عيه وقلت له: «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته» وتركته وهو جائع وهو محتاج!! هل ذاق معنى السلام؟ وهل عرف معنى السلام؟ إنك كالببغاء تقول شيئاً ولا تفهم معناه.

«وتقرئ السلام» أى أن تذيق الناس معنى السلام.

وأن تنشره بين الناس بمعناه.

وهنا ربط النبى ﷺ بين الفعل والقول: يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (١٦) ﴾ «البلد: ١٢-١٦».

فبدأ بالحرية «فك رقبة» ولا تكون الحرية تامة إلا إذا ذاق الناس سلام بعضهم، وأَمِنَ

بعضهم ، وإلا جاء أعداء الإسلام واحتلوا ديارهم لأنهم قد تركوا السلام الحقيقي وتركوا معناه، إنه العدل، الذى ينطق بالكلمات اليسيرة وفيها الغنى الكامل الذى لا فقر فيه.

نبينا ﷺ فى كل حركة فيه عدل . وفى كل قول فيه عدل حتى فى صلاته.

كان يصلى ﷺ فيسمع بكاء طفل، فيسرع فى صلاته إسراعاً لا يخرجه عن تمام الصلاة، أي خفف فى صلاته.

فلما انتهى قيل له : يا رسول الله، لقد أسرعت فى صلاتك.

قال : لقد سمعت بكاء طفل . فخشيت أن يشق ذلك على أبويه.

فخفف ﷺ فى صلاته حتى لا يخرج الأب من صلاته إلى طفله وحتى لا تخرج الأم من صلاتها إلى طفلها . فلا يظلم بإقامة الصلاة وبإطالتها.

إذا كانت الصلاة فى طولها فيها ظلم، يخفف الصلاة . ويسرع فى الصلاة إسراعاً لا خلل فيه، ولهذا يقول ﷺ : «من أَمَّ بالناس فليخفف، فإن فيهم الضعيفَ والسقيم وذا الحاجة، من أَمَّ بالناس فليخفف».

إن العدل فى كل جزئية من جزئيات الإسلام . ولا يقام أمر من أمور الإسلام على أمر آخر، فإذا قام أمر من أمور الإسلام على أمر آخر فهذا إفراط فى شيء وتفريط فى شيء آخر . والإسلام لا إفراط فيه وتفريط.

يذهب سيدنا سلمان الفارسى إلى سيدنا أبى الدرداء رضي الله عنه وأرضاه وكان أخاه، قد آخى النبى ﷺ بينهما.

فلما استضافه مكث عنده ثلاثة أيام. فلما جاء وقت الطعام قال : يا أخى يا سلمان هذا الطعام . قال : وأنت ؟ قال : أنا صائم (وكان هذا الصوم صيام النافلة) . قال : لا آكل

حتى تأكل معى. فأكل معه. ثم جاء الليل فقال: هذا فراشك فنم يا أخى يا سلمان: قال سلمان: وأنت؟ قال: أنا سأقوم الليل كله. قال: لا يا أخى ننام معاً ونقوم الليل معاً. فلا أنام حتى تنام. قال: كيف ذلك؟ لقد ضيع علىّ الصيام وضيع علىّ القيام. فلما انتهت الضيافة قال سيدنا سلمان رضي الله عنه لأخيه: يا أخى لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن لربك عليك حقاً، وإن لأهلك عليك حقاً، وإن لزوجك عليك حقاً، وإن لبدنك عليك حقاً، وإن لزوارك عليك حقاً، فأعط كل ذى حق حقه».

فذهب سيدنا أبو الدرداء إلى النبى ﷺ وحضر معه الصلاة فقال: يا رسول الله لقد حدث كذا وكذا، وقال لى أخى سلمان (هذا الحديث السابق) فقال رسول الله ﷺ.

حقاً ما قاله سلمان. حقاً ما قاله سلمان.

إذن فإن الحق هو الذى قامت به البشرية وتحققت به العدالة.

العدل فى المعاملات

العدل فى كل شيء وفى البيع والشراء وفى البيت. ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ① الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ② وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ③ ﴾ «المطففين: ١-٣».

إن العدل فى المعاملة، إذا كنت غاشاً فى قلة الوزن أو فى تقصير عدد، كل ذلك ظلم لم يأت به النبى ﷺ.

كما كان العدل فى البيت كان العدل فى السوق، فالعدل ليس كلمة تعلق فوق رؤوس الناس.. وإنما هى حقيقة فى قلوبهم فيما أخذوه من أسعد الخلق ﷺ.

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ⑦ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ⑧ ﴾ «الحجرات: ٧-٨».

فى السوق يحقق العدل

يمر النبى ﷺ فوجد رجلاً يبيع قمحاً فوضع يده فى هذا القمح . فوجده صنفين، وجد ما فى داخل القمح لينا ووجد خارجه يابساً فقال : يا أخى ، لِمَ لا تظهر القمح كله حتى يرى الناس ما عندك ، مَنْ غشنا فليس منا .

إنه يُعَلِم البائع كيف يبيع ويُعَلِم المشترى كيف يشترى .

ويُعَلِم الابن كذلك .

إنها العدالة الكاملة التى لا قصور فيها .

العدل مع النفس

جاء ثلاثة رهط إلى بيوت النبى ﷺ فسألوا عن عبادته . فلما أُخْبِروا بها كأنهم قد تقالُّوها .

فقال واحد : أنا أصوم الدَّهْر كله . وقال الآخر : وأنا لا أتزوج النساء . وقال الثالث : وأنا أقوم الليل كله فقال ﷺ : «إنما أنا أخشاكم لله وأتقاكم له (بإقامة العدل فى كل شيء) فأصوم وأفطر ، وأقوم وأرقد ، وأتزوج النساء ، هذه سنتى فمن رغب عن سنى فليس منى» .

فى كل ما ورد نرى أنه يحقق العدل بين الناس . ونراه يقيم العدالة فى كل مكان . وفى كل آفاق الدنيا . وفى كل أحوالها وموازينها .

لهذا أحبه أصحابه..

صلوات الله وسلامه عليه نراه فى أبسط المسائل يشارك إخوانه عدلاً حتى لا يستغل قواهم البشرية وهو يرتاح ويقعد ، لأنه الأمَّة الجامعة .

كان معهم شاة فقال واحد : علىَ ذبحها . وقال الآخر : وعلىّ سلخها . وقال الثالث :

وعلى طهيها . إنه تقسيم . ثم قال ﷺ : وأنا عليّ جمع الحطب .

اختار أشق شيء عليهم . فقالوا : يا رسول الله نحن نكفيك ذلك . فقال : هذا حق . ولكن أحب ألا أتميز عليكم . فوجد ﷺ من الظلم على الناس أن يتميز بشيء عنهم . وأن يستخدمهم لراحته . وأن يكون عالة على الناس .

ذلك من الظلم ، فالمشاركة تبين حقيقة العدل في هذا الاسم ، وظهر للناس ذلك .

وكان ﷺ يفعل ذلك عنواناً وإعلاماً وإظهاراً بشأن تكوين الأمم . فلا تكون الأمم إلا إذا ذاق الناس العدل .

فى غزوة الخندق . أمر ﷺ بحفر الخندق .

ويحفر معهم حتى اخضرت لحيته بالتراب وأصابه الجوع فربط على بطنه الحجر . ثم جاءه واحد فقال : يا رسول الله لم أذق طعاماً منذ أمس . فقال ﷺ تعال يا أخي ، فكشف له فرأى الحجر على بطنه ، وقال : وأنا لم أذق الطعام منذ ثلاث . وهنا علّمه كيف يصبر بعدله بينهم . وبتحمله ما لم يتحمله . وعندما كان يبني مسجده ﷺ كان يحمل الحجارة على كتفيه ، ويقولون . يا رسول الله، نحن نكفيك ذلك . فقال : أنا لا أحب أن أتميز عليكم .

حتى عندما جلسوا على الأرض لم يتميز عنهم بحجر جلس عليه دونهم ، فجاء رجل من الأعراب فقال : أين محمد ؟ فدُلّ عليه . فوجده جالساً مثلهم . فقال : أين هو ؟ فقالوا له : ها هو . فرآه قد ساواهم في جلوسه على الحصى لم يتميز بحجر يرتفع به عنهم . ثم نظر فوجدهم فى إنصات وكلُ نظرٍ يُحَدِّق فيه يتمتع بهذه الذات التى ينبع منها العدل وينبع منها الخير . فلم يروا فيه كبراً ولم يروا فيه علوا . وإنما رأوا فيه حقيقة التواضع . والتواضع من العدل . فقال الرجل : والله لقد ذهبت إلى كسرى وقيصر فما وجدت قوماً

يحبون صاحبهم كما يحب أصحاب محمد محمداً .

هذه هى النتيجة الحتمية الواقعية . التجربة نبعت من سلوكه العدل ومن تصرفه الحق ومن كماله الصدق . لم يخرج عن ذلك طرفة عين وفى كل قول وفعل كان عدلاً . عدلاً يتحرك .

لقد تخلَّق بخُلُقِ الله الأعظم فكان حركة النور فى الأرض .

كلٌ يراه وكلٌ يطلّع عليه ، وكلٍّ يتعلم منه ، وكلٌ يتخلق بخلقه حتى نشأ الحب والحب لا يكون إلا نتيجة العدل .

عدلٌ يُولّد الحب . العدل يأتى بالحب . العدل منبع الحب ، العدل حقيقة الحب .

محبته من الإيمان

ولهذا أعلن للناس جميعاً ، حتى إذا ارتبط الناس به كان ارتباطهم هو الإيمان وكمال الإيمان وحقيقة الإيمان .

«والذى نفسى بيده لن يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين» .

«والله لن يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين» .

فقال سيدنا عمر رضي الله عنه : يا رسول الله أنا أحبك كذلك إلا نفسى التى بين جنبىَّ .

فقال : لا عمر حتى أكون أحب إليك من نفسك التى بين جنبيك .

فقال عمر : يا رسول الله والذى نفسى بيده لأنت أحب إلىَّ من نفسى التى بين جنبىَّ .

فقال ﷺ : إذن كَمُل إيمانك يا عمر .

أجمعت الأمة على محبته . من الذى لا يحبه ؟ ! من الذى لا يعشقه ؟ ! من الذى لا يريده إماماً وحقيقة يرجع إليها ؟ ! .

إنه عدالة الله فى الأرض وكان ذلك حباً بين الناس فأجمع الناس على حبه، ولم ينفصل أحد عن أحد. ولم يحبه قوم ويكرهه آخرون. الكل أجمع عليه. أجمع الفقير والغنى. وأجمع المريض والصحيح، وأجمع القريب والبعيد وأجمع الطفل والكبير.

فكان يجلس عدلاً كان مسئولاً عن الأطفال. فيسأل الطفل الصغير: يا عُمَيْر ما فعل النُغَيْر؟ «أى العصفور الذى كان معه».

يسأل الطفل بحسب عقله.

حفظ الحقوق

إنه العدل الذى أعطى لكل عقل حقه. وأعطى لكل إنسان غايته. وكان ذلك محبوباً بين العباد جميعاً فلم يكن فى فئة دون فئة. ولم يميز أحد عن أحد مهما كان قدره، ولو كان من أحب الناس إليه.

كانت تجلس معه السيدة عائشة رضى الله عنها فى جلسة حب وود وصفاء، ثم قالت: يا رسول الله، لا شيء فى صفية إلا أنها قصيرة.

فتغير وجهه ﷺ وقال: يا عائشة، وهو غاضب وقد انتفخت أوداجه، يا عائشة، لقد قلت كلمة لو مُزِجَتْ بماء البحر لأنتنته. فاستغفرت وتابت ورجعت إلى الله.

إنه السد المنيع لأى ذرة من ذرات الظلم. للحاضر والغائب لكل البشر فى الدنيا والآخرة.

ولهذا أجمع الناس عليه. حتى أعداؤه أجمعوا عليه.

بالعدل فتح القلوب

لما كان فى فتح مكة والناس فى قبضته قال: أيها الناس ما تظنون أنى فاعل بكم؟ قالوا: خيراً. أخ كريم وابن أخ كريم... لا شيء، مثلُك لا يفعل فينا شراً لأنه الرحمة

المهداة، العدل المطلق، الكمال المحقق، لا شيء، أخٌ كريم وابن أخٍ كريم. قال ﷺ: لا تثريب عليكم اليوم، يغفر الله لكم اذهبوا، اذهبوا فأنتم الطلقاء .. فلا تُقتَلُون اليوم، ولا يُمَثَّل بكم كما فعلتم. إنما هو العدل.

فأفاق الناس من ظلم طويل طويل، ومن اضطراب فى الحياة. فنظروا إلى إنسان متكامل وإلى حقيقة تتحرك وإلى عدل يتكلم.

فتسابق الناس إلى الإسلام، وأحب الناس الإسلام فيه.

وعشق الناس الإسلام فيه، وأقبل الناس على الإسلام فيه.

ويتحدث الله بهذه النعمة: «إذا جاء نصر الله والفتح».

فالنصر هو الأرض والغَلَبة.

أما الفتح فهو فتح القلوب بالعدل. «النصر».

إن الكلام فى الحقيقة المحمدية. لا يسعه عقل ولا يستطيعه لسان ولا يأتى به قلم.

﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤)﴾ «ن: ١-٤».

فالخلق العظيم، هو ما عرفه الناس فيه.

وكمال الخلق العدل بين الناس.

لا خلق فى ابتسامة زائفة وفيها سُمْ الظلم.

ولا سلام يُنْطَق به ولا سلام موجود بين الناس.

إنه العدل والاستقامة إنه الهدى والصراط إنه الرحمة المهداة.

إنه الإنسان الكامل الذى كَمَّل الله به العالمين.

كمال من الدنيا إلى الآخرة....!!!

وتعالوا معى إلى يوم القيامة

عندما تُحْشر الدنيا كلها بجميع أنواع الخلق وبأنواع كفرهم وإيمانهم.

وتدنو الشمس من الرؤوس.، ويزداد العرق، ويصبح الناس فى كرب شديد.. ويريد الخلق سرعة الحساب.

يريدون شفاعة.. من يشفع؟

فيذهب الناس إلى الجميع. إلى آدم عليه السلام أبى البشر، فلا يشفع.

فيذهب الناس إلى نوح عليه السلام... فلا يشفع.

فيذهب الناس إلى الخليل عليه السلام... فلا يشفع.

فيذهب الناس إلى الكليم عليه السلام... فلا يشفع.

ويذهب الناس إلى روح الله وكلمته إلى عيسى عليه السلام... فلا يشفع.

والكل يقول: «هذا مقام لا يكون إلا «لمحمد» فهو أكمل الخلق وهو أحب الخلق إلى الله.

إجماع فى الدنيا. وإجماع فى الآخرة. إنه «محمد» حُمِدَ كله فى الدنيا.

وحُمِدَ فى الآخرة ﷺ فيأتى إليه.. الخلق جميعاً .... الكل.

وهنا ينطق ويعترف شرفا وفخراً. ويقول لكل الخلائق: أنا لها أنا لها فيسجد (فكماله فى سجوده) فيسجد للحق لأنه الحق الذى مثَّل الحق فى الدنيا والآخرة. فيقول الله له: «يا محمد. اشفع تُشَفَّع».

رُفِعَت الحجب. وينتظر الحق رجاءه.

فيقول النبى ﷺ: يا ربى، الحساب ... الحساب.

فيبدأ الله بحساب الخلق استجابة للكامل المكمل الذى أجمعت الخلائق عليه، من رآه ومن لم يره، من سمع به ومن لم يسمع، فى موقف واحد، وفى حشر واحد «أنا لها.. أنا لها».

فيشفع.. فيرفع الأمر، ويحاسب الناس. ثم لا يتمتع بالآخرة وبقية أمته فى النار يحاسبون على أعمالهم، فيؤتى إليه. ويُنَادَى أن يدخل الجنة فيقول: «والله، لا أدخلها وواحد من أمتى فى النار».

إنه الكمال الممتد من الدنيا إلى الآخرة. ومن أول الدنيا إلى يوم القيامة. وعندما نزل عليه قوله تعالى ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾.

فقال: «والله، لا أرضى وواحد من أمتى فى النار».

وفى رواية: «والذى نفسى بيده لا أرضى وواحد من أمتى فى النار».

حقاً كماله. النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم فى الدنيا والآخرة.

كما قال الله تعالى فى شأنه: ﴿حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾ فلا يدخل الجنة فى الآخرة حتى يأتى إلى النار ويسجد للحق الذى أقامه بالحق. أمتى. أمتى، فيقول الحق له: اشفع تشفع.

فيقول ﷺ: أمتى، أمتى، أمتى. فيقول الله تعالى له: «كل من كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان فليخرج» فيخرج خلق كثير. ثم يطهرون بماء الكوثر. ثم يشفع: أمتى، أمتى، أمتى. فيقول الله تعالى له: «كل من كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان فليخرج» فيخرج خلق كثير ثم يبقى البقية الباقية. فيقول ﷺ: «أمتى، أمتى، أمتى».

فيقول الحق له: «كل من كان فى قلبه مثقال مثقال مثقال ذرة من إيمان فليخرج» فتخرج البقية الباقية من الأمة. ثم يحقق له الرضا فيرضى فقد تحقق رجاؤه عندما نزل عليه قوله تعالى: ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾ فقال: «والله لا أرضى وواحد من أمتى فى النار».

فيدخل الناس جميعا جنتهم فى مقاماتهم. هم درجات عند الله، وله الدرجة الوحيدة التى يستحقها لكل هذا، ما علمنا وما لم نعلم، وما أبصرناه وما لم نبصره، ما علمناه

من الحق فيه وما علمه الحق فيه وما كمله به .

هكذا يكون النبى ﷺ فى حقيقته صلوات الله وسلامه عليه فى المقام الواحد فى الآخرة .

ترك الدنيا وجبال تهامة لمقام الأعلى . وقد أمر الأمة أن تدعو به ، فقال ﷺ «سلوا الله لى الوسيلة» يطلب منا مع تقصيرنا وذنوبنا ومانحن فيه .

«سلوا الله لى الوسيلة فأنا منكم وأنتم منى» ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم﴾ «أنتم منى وأنا منكم ، سلوا الله لى الوسيلة» فقالوا : يا رسول الله وما هى الوسيلة ؟ فقال : «مقام واحد خلقه الله لواحد ، وأرجو أن أكون أنا ذلك الواحد» .

إنه المقام الأحدى الذى أفرده الله به .

كما قال أحد العارفين : «اللهم صل على الذات المحمدية ، اللطيفة الأحدية ، شمس سماء الأسرار ، ومظهر الأنوار ، ومركز مدار الجلال ، وقطب فلك الجمال ، اللهم بسرِّه لديك ، وبِسَيْره إليك ، آمن خوفى ، وأقل عثرتى ، وأذهب حزنى وحرصى ، وكن لى وخذنى إليك منى ، وارزقنى الغناء عنى ، ولا تجعلنى مفتوناً بنفسى ، محجوباً بحسى ، واكشف لى عن كل سر مكتوم .. يا حى يا قيوم ..» .

أنه المقام النبوى الشريف إنه عدل الله فى الأرض الذى يدعونا أن نمحو الظلم منا ، وأن نزيله من قلوبنا وأفعالنا . وحكامنا ومحكومينا ، فى بيوتنا ، وبيعنا وشرائنا وعقودنا التى نعقدها فيما بيننا .

إن الظلم ظلام ، إياكم والظلام . كما قال الله تعالى فى القدسيات : «يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما ، فلا تظالموا» .

إذا أردنا أن نعود إلى حقيقة العدل فى القول والفعل ، فى الحركة والسكون . فى

الصمت فى كل مكان، هو فى الحقيقة المحمدية الذى كان مظهراً للعدل وكان مظهر الحق فى الدنيا والآخرة.

هكذا نعود إلى الآية الكريمة كما علَّمنا الله إياها:

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣١) ﴾

«آل عمران: ٣١».

* * *

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً ﴾

الفتح فتح فى الظاهر والباطن وقد جمع الله لسيد الخلق ﷺ الفتحينُ له وفتح به...
﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ② ﴾ «فاطر: ٢».

وماكان الفتوح على الناس إلا بما فتح الله به على سيدنا رسول الله ﷺ عندما قال له ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ① ﴾ «الفتح: ١».

«إنا» بدأ بضمير الذات العلية الظاهر، ثم قال: «فتحنا» بالفعل الماضى، أى تَمَّ الفتح أولاً ثم تضمنت الكلمة إعادة الذات العلية مرة أخرى فقال: «فتحنا» وهذا تكرار يُلْفت، فينقل الله تعالى العقل من إشارة إلى إشارة إلى أن مرجع الفتح هو الله ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ① ﴾ «الفتح: ١».

فاللام وبعدها الكاف، وهى لام فى اللغة حرف جر، وهى لام الملكية (لك) أي لك هذا الفتح لا لغيرك ثم جاء. بالمفعول المطلق بعد لك ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ① ﴾ «الفتح: ١».

إذاً هو فتح ليس له حدود ولا يحسبه العقل فالمحدود لا يستطيع إلا محدوداً؟!
﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ① ﴾ «الفتح: ١».

«مبيناً» أى ظاهراً فى أثره وآياته وظاهراً فى تجلياته وظاهراً فى عطائه فليس فتحناً مغلقاً على ذاتك إنما هو فتح فى عمقك إلى أبعاد لا نهاية لها فهذا العمق الذى فُتِح له، فَتْحٌ يغفر لك الله به، فهو فتح فيه رقى من ساعة إلى ساعة، ومن يوم إلى يوم، ومن جمعة إلى جمعة، ومن شهر إلى شهر، ومن سنة إلى سنة. فتح دائم وفتح متجدد؛ لأن الفتح المحدود تملّ منه النفس، ولكنه فتح متجدد يرقى به ﷺ من رقى إلى رقى.

ولذلك يقول الله تبارك وتعالى ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ «الكوثر: ١».

أعطيناك هنا ذكرُ لله فى وسط الكلمة «أعطينا» الفاعل والمفعول به، المعْطى والمُعْطَى له فى كلمة واحدة، وسبقها بدء ذكر الذات بالضمير كما قال ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا ① ﴾ «الفتح: ١».

قال: «إنا أعطيناك» فهذا العطاء لا يستطيع أحد أن يمن به إلا الله، فهو يختص برحمته من يشاء، وهو صاحب الفضل يؤيته من يشاء، وهو صاحب السعة فى العطاء ﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ② ﴾ «الحديد: ٢».

(الكوثر) الخير الكثير، وليس الخير المثير فى مال يفنى، ولكن العطاء هو عطاء خالد وهو عطاء باقٍ تفنى الأشياء، وهو أثر الله فى الكون (الكوثر) فالكاف كاف الخطاب والمعْطَى سيد الخلق ﷺ والمعْطِى وهو الله ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ① ﴾ «الكوثر: ١».

أى الخير الكثير وكلمة الكوثر فى القرآن لم تتكرر، فهى واحدة وهى فريدة لذلك سمى الحوض الذى يسقى منه المسلمون يوم القيامة بالكوثر، فهو حوض يُعَوِّض الناس جميعاً الطهر واللذة، وكلٌ يشرب بقدر على قدر ولا ينفد هذا الحوض، فهو أنهار الخلود. فالشاهد هنا «أعطى» فعل ماض رباعى: ألف، عين، طاء، ألف. مضارعه يُعْطى، فعندما قال: ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ① ﴾ كأن روحه العلية وقلبه المتطلع إلى الرقى الدائم وضع علامة استفهام هى: انتهى العطاء فأخبر الله حبيبه ليطمئنه بعدم الانقطاع متجدداً ثم أقسم له من أجل ذلك.

﴿ وَالضُّحَىٰ ① وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ② مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ③ وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَىٰ ④ ﴾ «الضحى: ١-٤».

(وللآخرة) أى يوم القيامة خير لك من الأولى، وقالوا (وللآخرة) أي العطاء الذى يأتى بعد عطاء هو خير لك من العطاء الأول ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ⑤ ﴾ «الضحى: ٥».

فجاء الفعل المضارع ليعلم ﷺ أن منّة الله عليه باقية ومستمرة ويترجم النبى بقوله:

والله إنه ليُغَان على قلبى (أى أشعر بالتقصير جانب الحق) وإنى لأستغفر الله فى اليوم سبعين مرة ، ويأتى حديث آخر : والله إنى لأستغفر الله وأتوب إليه أكثر من سبعين مرة ، وفى حديث ثالث والله ليغان على قلبى وإنى لأستغفر الله وأتوب إليه مائة مرة . وفى رواية : أكثر من مائة مرة .

قواعد الفتح

إذا كان كل فتح تمتع به ﷺ وأحس به يستشعر أنه فى رقى وأنه يقين وكأنه كان قبل ذلك فى حالة آخر ففرق بين الأمر ، وهذا إحساس لا يقاس بحساب أهل المعاصى وإنما يقاس بذوق أهل الرقى والقرب فكل طبقة تعلم حقائق أمورها فلا يعرض هذا الأمر على مشاعر البشر جميعاً فمشاعر البشر فى حسابات الدنيا ، أما الصفوة فهم فى حسابات خاصة وفى مذاق خاص يعلمونه كما يعلمون الليل من النهار ، عندما ينتقلون من حال إلى حال يحسون بالحال الجديد فرقاً بينه وبين الحال القديم ،وهنا يلهجون تضرعاً ودعاء وقرباً وتذللاً فأهل الرقى كما يعلمنا ﷺ لا يركبون إلي رقيهم فيقعدون عنده ، لكنهم كلما وصلوا إلى عطاء جديد كلما ازدادوا حساسية وإحساساً وخوفاً على تحرك هذا الحال وخوفاً على دوامه بلا رقى ، فهم يتطلعون إلى أعلى حتى تكشف الحجب ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى ﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) ﴾ «المطففين: ١٤».

ومن الكسب الغرور وشعور أهل الصلاح بصلاحهم فيقعدون عند ذلك ، فقد ينتهى هذا وقد يتلاشى ، لكنهم يحافظون عليه فكان ﷺ يهتم لأمرين ، وهذا هو سر الفتح ، كان يهتم بالثبات على العطاء لينتقل إلى عطاء آخر ، فكان يقول : «اللهم يا مقلب القلوب والأبصار ثبت أمرى على دينك» فهذا أول شىء أن يثبت على دين الله وألا يتخلل فعله شىءٌ مما خالف هذا الدين فينقص هذا الحال وينقص هذا العطاء ، فأساس الفتح الأول الدين الذى انطلق منه فطلب الثبات عليه خوفاً من ترك صلاة أو جمع

صلاة أو ترك زكاة أو التقصير فى صوم أو حج أو عبارة أو إشارة... طلب الثبات على الدين. هذا من القواعد الأساسية فى الفتح «اللهم يامقلب القلوب والأبصار ثبت قلبى على دينك» وعندما نتعلم أساس الفتح أن الله جعل سبب الفتوح عليه وأساس الفتوح عليه من هذا الدين الذى وهبه إياه وجعله أساساً له، فهو مثال الدين قولاً وفعلا وحركه وسكوناً ﷺ وهنا يقول الله تبارك وتعالى لنبيه ﷺ ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ (٤٣) ﴾ «الروم:٤٣».

﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩) ﴾ «الأنعام:٧٩».

هكذا ندرك حقائق الأشياء بلا وهم؛ فلس من الفتوح أن يترك الدين على أساس أن يشغل الإنسان المسلم بنوافل الدين أو بفرعيات الدين أو بشكليات الدين، فأساس الفتح هو الدين.

ومن أساس الدين أنْ تأخذ أسباب الرقى، يقول الحق تبارك وتعالى فى حديثه القدسى رواية عن الحبيب المصطفى ﷺ: «من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلي عبدى بأفضل مما افترضت عليه ولا يزال عبدى يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده الذى يبطش بها ورجله التى يمشى بها ولئن استعاذنى لأعذته» فالأساس هو ما افترض الحق على عبده ثم يأخذ مما افترض ويزيد حبه بالتطوع ويزيد زكاته بالصدقة، وهكذا ينتقل المسلم من أساس الدين إلى الزيادة منه لا الزيادة من غيره، فهو الأصل وهو الفرع وهو الأساس وهو البناء، فكان رقيه ﷺ من دينه لأن دينه هو الذى أتمه الله وهو الذى أكمله الله وهو الذى أنعم به عليه، فالدين هو دستور فكره ومنهاج قلبه وحركة جوارحه لا يخرج عن هذا الدين فهو فى إطاره ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٣٠) ﴾ «الروم:٣٠».

مجاهدة تربط الأرض بالسماء

وعندما نأخذ مثالاً فى حضرته ﷺ نراه مثلا حياً فى قول الله تبارك وتعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۝ قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً ۝ ﴾ «المزمل:١-٢».

الفرائض قد انتهت لكن هذا سبب لعطاء وهذا سبب لعطاء آخر فكل عطاء له سبب والسبب هو أن يتذوق العبادة بجميع ألوانها وأشكالها لأن الله يحبها ويحب أن يتعبد بها.. ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۝ ﴾ «المزمل:١».

وكأن الله يقول له: أنت يا من قلت زملونى فهذا يدعوك إلى النوم، وأنا أريدك فقد انتهى نهارك عملاً وجهاداً وبحثاً ورعاية للأمة وحركة فى قول وفعل وسعى لإقامة هذا الدين على حقيقته، فالنهار فيه ما فيه والليل لى، حتى تناجينى بالحركة والفعل والقول نهاراً لرقى ولعطاء، وكذلك الفعل والقول فى الليل سبب لعطاء جديد ولمنَّة جديدة ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۝ قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً ۝ نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً ۝ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ۝ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ۝ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً ۝ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلاً ۝ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ۝ رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً ۝ ﴾ «المزمل:١-٩».

إذاً مثاله فى العطاء مثال حى لأنه حى كلما أعطى كلما جاهد من أجل عطاء آخر فهو وسيلة للأخذ والمجاهدة سبب للهداية إلى سبل لا يعلم حقيقتها إلا الله ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ۝ ﴾ «العنكبوت:٦٩».

ومعية الله لك هى معية عطاء فأنت ماذا يكون منك، هذا نداء آخر ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ ۝ ﴾ «المدثر:١-٢».

فأنت مثال الفعل والتحرك وأنت مثال السمو فى المجاهدة، فلا نوم بل هناك مذاق كمثل هذا المذاق، فى نهايته إشارة إلى مذاق آخر، فالحلقات التى يتماسك بعضها فى

بعض من حلقه هنا وهنا هى سلسلة النور التى لا تتناهى ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ① قُمْ فَأَنذِرْ ② وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ③ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ④ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ⑤ وَلا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ⑥ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ⑦ ﴾ «المدثر: ١-٧».

فهذا التوجيه بهذا النداء فيه ما فيه من العمل وفيه ما فيه من الجهد وفيه ما فيه من المثابرة والصبر على ما وراءه من السعى إلى نهاية غاية وإلى بداية غاية أخرى، وليس الأمر قعوداً ولا خمولاً فهو مثال البشرية المنطلقة فى جميع أجوائها ليحقق للخلق ما حقق له فليس هناك أنانية، فأخَذَ ليُعْطى، ومَنّ الله عليه فيقول الله تبارك وتعالى فى نداء رقيق النبرة ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ㊺ ﴾ «الأحزاب: ٤٥».

«يا أيها» خطاب التقدير والإجلال. «النبى» هذا اللفظ فيه الحق، أى النبى المنبأ من قبل الحق فاللفظ فيه المنبِّئ والمنبَّأ معاً

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ㊺ ﴾ «الأحزاب: ٤٥».

فجاء ذكر الحق فى ذكر النبى وجاء ذكر الحق فى كلمة «إنا» وجاء الفاعل والمفعول به أى صاحب الرسالة والمرسل سبحانه ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ㊺ وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً ㊻ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً ㊼ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً ㊽ ﴾ «الأحزاب: ٤٥-٤٨».

شأن الرسالة الكاملة والدعوة إلى الله والعزة بالله وعدم التأثر والخضوع والالتفات إلى أى كافر أو منافق.. مهما كان الإعزاء، فانتقل الأمر من مجرد مجاهدة إلى مجاهدة ومقاومة فاشتد التكليف، فقيام الليل سهل والإنذار سهل ولكن الرسالة مع الحفاظ عليها ومع صيانتها شىء فيه كل الأشياء، سيواجه كل عقل منحرف وكل فكر منصرف، كل ضال وكل مضل وكل جبار وكل طاغية، سيواجه سموم الكفر فى كل الأرض وسيتعرض لأحقاد لها أبعاد ولأحقاد لها مطامع، وكل منهم متمسك بترابه وإن

تخيل له أنه متاع خوفاً عليه فيحارب من أجله . ليس هناك حرب من غير عقيدة ولكن هناك حرب من أجل التراب، فدعوة من أجل التراب ودعوة من أجل السماء، فهناك فرق شاسع بين الأمرين .

دعوة تبلغ الآفاق

واقرأ الآية مرة أخرى كى نلتفت إلى حقيقيتها ونحن نصلى بها أو نقرؤها .

ثم يقول له بنفس النداء ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٢)﴾ «الأحزاب: ١-٢».

ثم يوجه له نفس النداء ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٧٣)﴾ «التوبة: ٧٣».

آيات فيها تكليف بالرسالة وفيها الاستعداد واليقظة والانتباه إلى ماوراء هذا التكليف حتى يحفظ على الأمة دينها وعقلها السلم وإيمانها القويم، كل ذلك إلى فرد واحد وإلى ذات واحدة فهو المطالب وهو المطلوب وهو المحب وهو المحبوب ﷺ ثم يأتى النداء الرابع وهو نداء الرسالة ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٦٧)﴾ «المائدة: ٦٧».

والناس فيهم العدو، وفيهم من غَطَّت الحُجُب قلبه بسلطانها ومالها وطاغوتها وجبروتها حجب كثيرة، أما وصول كلمة الحق إليهم فأنت المكلف، وهذا جهاد آخر انتقال من حيز ضيق ومن أبعاد متقاربة فى الجزيرة إلى آفاق الأرض كلها بلا استثناء ما دون البحر وماوراءه، ما عند الجبل وما وراءه، كل الأرض يطلب منك أن تبلغهم هذه الرسالة .. فرأسك هو العالى فإن صعد الزمن فأنت المقدم ...

فقصر بالبلاغ عليه، فبلغ على طاغوت الأرض بسم الله الرحمن الرحيم الذى تجلى بأسمائه وصفاته عليه فهو بأسمائه وصفاته ينتصر ويعدو هذه الآفاق إلى الناس، رضوا

أم أبوا كل شرك فى الأرض كما أخبر عن نفسه ﷺ: أنا محمد وأنا أحمد وأنا أبو القاسم وأنا الحاشر وأنا العاقب وأنا الماحى، لا يبقى شىء من الشرك إلا مُحِيَ فى عهدي، وقد كان ذلك. بسم الله الرحمن الرحيم «من محمد بن عبدالله رسول الله إلى كسرى ملك الفرس، إلى قيصر الروم، وإلى المقوقس رئيس القبط فى مصر أو ملك القبط فى مصر، إلى كل هؤلاء وغيرهم وجّه رسالته ليبلغهم الإسلام. فيقول للمقوقس عظيم القبط فى مصر: «أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين» مقدمة خطيرة فى عبارة واحدة، ليس هناك تقرير، وليس هناك أبحاث، وليس هناك انتظار من لجان مترامية الأطرف فى عقولها المتشردة الباهتة الطامعة المنحطة فى مطمع أوجاه، إنما كلمة، لأنه هو المكلف ﷺ، فأرسل كتبه للنداءات الأربع.. يأيها المزمل، يأيها المدثر، يا أيها النبى، يا أيها الرسول، كل ذلك فيه ما فيه من الشغل الشاغل ومن العمل الدائب الذى لا يتوقف، وفى وسط ذلك يأتى شيء آخر وهو الحرب القولية والحرب الفعلية.

يلاحقه كل ذلك عقبة أمام ذلك فلم يتوقف عن ذلك إطلاقاً المثل الذى تدنو منه السماء إجلالاً والكرسى والعرش، هذا القلب هو الذى حوى الكون كله فيحرك القلوب من كل بقعة من بقاع الأرض يحرك الإنسان المتجمد ويحول القلب القاسى لينا ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (١٦) ﴾ «الحديد:١٦».

من ثمار الفتح

فَحَوَّلَ القلوب إليه فلما تحولت القلوب إليه سلمت فى الأرض، فتأتى كلمة الفتح بعد النداءات الأربع وهو يجنى الثمار ويتطلع إلى النتائج، فوقف إلى جوار الكعبة ﷺ فنظر إلى الأصنام التى بلغ من أجل إزالتها فى القلوب فزالت واستقر التوحيد بدلاً من الكفر واستقرت الطاعة حركة فى الجوارح بعد المعصية واستقر الصلاح بعد الفساد وأمن الناس إلى العدل بعد الظلم وإلى الحق بعد الباطل فنظر إلى الآفاق فاطمأنَ إلى أنه

كوّن رجالاً ورثوا هذا فأصحابه من حوله وهو ينظر إلى الكعبة فنزلت الآية ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (٨١) ﴾ «الإسراء: ٨١». وصل واستقر

كان زهوقاً بصدق التبليغ وبقوة المجاهدة فالباطل لا وجود له أما التبليغ الضعيف الجبان الخائف، هذا يؤدى إلى ازدياد الباطل بطلاناً وإلى حروب الحق .

فانتهى الكفر من كل أجواء مكة ثم نظر إلى القوم الذين اتخذوا أسلوب العناد فى كلمة فضعفت الكلمة حتى ماتت أما كيان هذا الرسول العظيم فالقافلة تسير والكلاب تعوى، ولا توقف الكلاب قوافل التقدم والإقدام أبدا فكانوا فى قبضة يسيرة بعد أن كانوا فى بحبوحة الضلال وفى غرور الباطل وصولجان الكفر، فكانوا فى موقف لا يحسدون عليه، فأشفق عليهم إشفاق المبلغ الذى لم ييأس أن يؤمن هؤلاء فى هذا الوقت فالقضية لم تنته بعد، لأن الأمر بالتبليغ مازال باقياً والقضية ليست قضية مكة وإنما قضية الأرض كلها فنظر إليها ،وفى النظر رحمة، فقال: أيها الناس ماتظنون أنى فاعل بكم ؟فقالوا: أخ كريم وابن أخ كريم.. من مثلك لا يكون شر بل الخير منك، ولا يكون انتقام بل أنت الرحمة المهداة. فطمعوا فى سعة صدره فتحقق أملهم، وكان الفتح. فنظر إليهم نظرة العفو الذى يعلوه الكرم والكريم الذى يتخلله العفو، فقال: لا تثريب عليكم اليوم ... لا حرج عليكم اذهبوا فأنتم الطلقاء... فتسمرت أقدامهم كما يقال ولم ينطلقوا!!! إلى أين ينطلقون؟! هل إلى أحجار وقد نزلت وانتهت وقضى عليها؟ هل ينطلقون إلى ملك وقد قرب أن تنتهى دولته؟!

الحق يعلو ولا يُعْلى عليه فهذا هو الفتح الأكبر فوقفوا ثم تفاعلت قلوبهم فخرج ما فيها من علل وما ترسب فيها من فساد أمام هذه النظرة الفاحصة أمام هذا التدبر الذى حدث سريعاً ببركته ﷺ ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧) ﴾ «الأنبياء: ١٠٧».

فهؤلاء هم أهل الرحمة وهم أهلك وأقاربك وعشيرتك كانت مواجهات ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩) ﴾ «الأعراف: ١٩٩».

كانت هناك شدائد وكانت هناك قسوة «فاصفح الصفح الجميل» فنظر الناس إلى هذه الذات وإلى الإعجاز الذى دخل فى ثناياها، فكانت أثراً إلهياً لا يكرر وكان درة يتيمة فى شجاعته وفى كرمه وفى إقدامه وفى رحمته وفى قوته وفى حنانه .. فقالوا لا يسعنا يا محمد إلا أن نسلم لك .. مُدَّ يدك نشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله. فسبقت القلوب الأيادى، فتسابقوا بقلوبهم وأرواحهم قبل أجسادهم، فأنزل الله آية الفتح المبين ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) ﴾ «النصر:١».

وهو دخولك مكة فهذا هو النصر ثم جاءت واو العطف «والفتح» فالنصر هو نصر الأرض والتمكين، والفتح هو فتح القلوب ففتح الله بك القلوب لذلك جاء المعنى فى الآية التالية ﴿ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (٣) ﴾ «النصر ٢-٣».

هذه هى فتوحات العطاء بأسبابها وهناك عطاء بلا أسباب ﴿ رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ (٨) ﴾«آل عمران:٨».

فهذا هو عطاء الأسباب وراء ذلك عطاء لا أسباب، فكلٌ كان فيه ﷺ، فمن وصل عرف ومن عرف وصل، ومن وصل طلب المزيد ﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ وَمَا هِيَ إِلاَّ ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ (٣١) ﴾ «المدثر:٣١».

الختام كمال

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٤٠) ﴾ «الأحزاب:٤٠».

خاتم النبيين أى آخرهم، والآخرية فى البشرية لها معنى الكمال فكلٌّ قَدَّم له فى حقبة من الزمن، فمثلاً جاء سيدنا آدم عليه السلام فى الأولية وهو أبو البشر عليه السلام، فأعطى من التشريع قدرًا، وبعد الزمن جاء نبى آخر وجاءت رسالة أخرى فأعطى قدراً آخر يكمل القدر الأول. وذلك مثل الطفل أو الإنسان فى أطوار حياته وهو فى بطن أمه يُغَذَّى من الحبل السرى فلا يمكن أو يتمكن هذا الجنين أن يتناول شيئًا فى فمه ففى حاله ضعف، يناسبه نوع خاص من الغذاء ثم بعد ذلك يولد فيناسبه قدر آخر، وبعد الفطام يصير طفلاً يناسبه الغذاء من حال إلى حال ومن زمن إلى زمن حتى يقوى وتنتفع به الحياة... هكذا البشرية فى كل طور من أطوارها وفى كل زمن من أزمانها تحتاج قدراً خاصاً يناسبها فى حياتها، كما لا يمكن أن يأكل الطفل قطعة من اللحم وهو رضيع وعدم الإمكان أنه يخشى على حياته من هذه القطعة مع أنها غذاء، لكنه غذاء غير مناسب، وإن كان مناسباً لجسم آخر، لكنه لا يناسب هذا الجسم، فلو أعطينا البشرية التشريع كله فى البداية ما فطنت شيئًا وما استطاعت أن تسير فى دنياها، هذا أمر بديهى لا ينكره أحد.

فكلمه خاتم أى كملت به البشرية، كملت بتشريعة ودينه والتشريع والدين لا يكون أوراقاً تتناثر ولا كتباً تتداول ولكن التشريع الإسلامى الخاتم الذى ختمت به التشريعات السابقة تشريع يتمثل حياة متحركة والحياة المتحركة لابد وأن تتطبع فى إنسان من البشر فيه كل هذا التشريع وفيه كل هذا العطاء وفيه كل هذا المدد ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ «الأحزاب: ٤٠».

كمال الرحمة

فهو نبى أى منبأ وهو رسول أى مرسل فهو يمثل العطاء الإلهى والعطاء يُظْهر أثراً فيه فإذا ظهر هذا النبى بشىء يخالف كمال البشر فهذا ينسب إلى الله، لأن الله هو الذى رباه وهو الذى أمده فالصورة المحمدية هى خلق الله الأعظم وخلق الله الأعظم هو حياة للناس وجميع الخلق فكان رحمة كما قال عن نفسه: «أنا الرحمة المهداة» لأن الله حصر رسالته فى ذلك، فيقول الحق تبارك وتعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧) ﴾ «الأنبياء:١٠٧».

وهذا قمة القول ولم يقل: «وما أرسلناك إلا رحمة لقومك ولا رحمة للجزيرة ولا رحمة للعرب! إنما الرحمة يتذوقها الأبيض والأسود، ويعيش فيها الفقير والغنى، ويتلمسها الصحيح والمريض، ويقصدها العالم والجاهل.. العالم ليشهد لحقيقة الوحدانية والجاهل ليتعلم، فهو رحمة لكل البشرية، رحمة فى كل ساحة من ساحات الدنيا، ورحمة للحاكم، لأن الحكم عالم خاص فهو رحمة، يتعلم الحاكم منه حقيقة أهله، وهو رحمة للقاضى فيكون العدل، وكذلك رحمة للأسرة للأب والأم، ورحمة للجار والتاجر، ورحمة للمشترى ورحمة للعالم ورحمة للعامل ورحمة للمهنى ورحمة للمزارع ورحمة للماشى ورحمة للزارع ورحمة للناظر ورحمة للمتكلم، هذه هى صورة الحياة .. علاقة الإنسان بنفسه وعلاقته بغيره فهذه عوالم..

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧) ﴾ «الأنبياء:١٠٧»

أيضاً هو رحمة للحيوان رحمة للطير رحمة للحيتان، لكل ما خلق الله تعالى بما أنزل الله عليه ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (١٠١) ﴾ «الأنبياء:١٠١».

أيضاً هو خاتم فكل علم يأتى فقد بدأه بداية خاصة، فهو رحمة للعالم المختبر الذى يتكشف الأشياء فينسبها إلى الله سبحانه وتعالى، وكل ما فى العالم يرجع إلى الحقيقة المحمدية بما أنزل الله عليه ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧) ﴾ «الأنبياء:١٠٧».

كمال الغنى والهداية

هكذا نعلم كلمة ختام ونعلم كلمة خاتم ونعلم كلمة ﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَىٰ (٨) ﴾ «الضحى:٨».

ووجدك عائلاً تعول أمة كبيرة من بدايتك إلى يوم القيامة فليست الآية خاصة بأن تعول أسرة تحتاج بعض أرغفة من الخبز أو بعض قطع اللحم ولكن ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ (٩) ﴾ «الضحى:٩».

فأغنى ذاتك وعقلك أى أغناك غنى خاصاً فالكل عالة عليك والكل يستمد منك ويأخذ ويتعلم، يأخذ ويعطى، وأنت المدد الكبير والذات التى تقف عندها الكمالات البشرية والعطاءات الإلهية. كانت فيك ثم كانت منك ثم تعود إليك ﴿ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا (١١٣) ﴾ «النساء: ١١٣».

ووجدك عائلاً فأغنى الأمة بك لأنك غنى بهذا العطاء يسبق هذه الآية ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ (٦) ﴾ «الضحى:٦»

يتيماً كما قال علماء البصيرة أى درة يتمية فآواك إليه وأدبك بأدبه وعلمك بعلمه فأنت الدرة اليتيمة فإن كنت يتيماً فى البشرية فهذا هو المناسب فمن يعلمك؟ أب - أم - عم - جد - معلم، إنما هو رب العزة تبارك وتعالى، فالعلم الذى يُصَب فى عقلك هو علم يستمد مدده ونوره إلى يوم القيامة ولا يبارى ولا يجارى ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ (٦) ﴾ «الضحى:٦».

وفى هذا قال رسولنا ﷺ : أدبنى ربى فأحسن تأديبى ثم قال تعالى: بعد ذلك ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَىٰ (٧) ﴾ «الضحى:٧».

ضالاً أى تبحث عن الحقيقة وحقيقة علمك وحقيقة أمرك لا ترجع إلى أحد وإنما

ترجع إليَ «فهدى» أى فهداك إليه وهدى بك، فلا تكون تكون الهداية لغيرك إلا إذا هديت لله، فمنه إليك ومنك إلى الناس ومنه وإليه سبحانه وتعالى ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ (٦) وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَىٰ (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَىٰ (٨)﴾ «الضحى: ٦-٨».

رعاية الضعفاء

الفلسفة الحقيقية بعد ذلك انتفاع البشرية بما وُهِبَ له فلم يُعْمل له نُصْبٌ تذكارى بعد هذا العطاء أو بعد هذه الشهادة كما يُحْتفل بهذه الشهادات، ولم يعمل صاحبُها شيئاً ليشتهر وتُعْطى له سيارة ولكن الشهادة عطاء ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا (١١٢)﴾ «النساء: ١١٢».

فالعطاء جاء بعد التكوين ﴿وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَىٰ (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَىٰ (٨)﴾ «الضحى: ٧-٨».

هذا هو التكوين، الإفادة لا تحقق فى مجتمع ولا يُنْضِج هذا المجتمع إلا بدءٌ بالضعف الفقير المحتاج، فبعد التكوين بدأ الحق بأضعف شيء في البشرية وهو اليتيم الذى لا أب له لا راعٍ ولا معين له، اليتيم الذى بدأ حياته بمأساة الحرمان ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ (٦)﴾ «الضحى: ٦».

فالقهر هو الغلبة والهيمنة والسيطرة والإذلال .

فلا تقهر اليتيم أولاً وقس على ذلك كل محروم فى هذا المجتمع، فإذا أكرم الضعيف بدأ الناس يتنشقون نسيم الحياة على طبيعتها وعلى قوتها وقد بدأت سورة النساء بذلك بدأت باليتيم ﴿وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا (٢)﴾ «النساء: ٢».

ثم ثنت بالمرأة ثم ثلثت بالسفيه هؤلاء هم الضعفاء، بدأت سورة النساء بعد آية المجتمع الإنسانى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا

وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً (١) وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوباً كَبِيراً (٢) ﴾ «النساء :١-٢».

هذا لمن له مال فما بالنا بمن ليس له مال تكلم القرآن عن اليتيم الذى له مال فمن باب أولى من ليس له مال ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً (١٠) ﴾ «النساء:١٠».

هذا اليتيم الذى عنده فأما اليتيم الذى ليس عنده فهو أولى أن يراعى ألف مرة ممن عندهم ويحتاج إلى نظرة خاصة عميقة فى أجواء المجتمع حتى يستقيم الناس ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١) ﴾ «الضحى:٩-١١».

وهذا اليتيم عامة يتيم بمال ويتيم بغير مال .

قضاء الحاجات

من يسألك علماً، من يسألك حاجة، من يسألك قضاء أمر، من يسألك فصلاً فى قضية أو حكمًا، من يسألك دعاء، من يسألك براً، من يسألك رحماً .كل سائل على اختلاف أنواع البشر وعلى اختلاف أحوالهم ﴿ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ (١٠) ﴾ «الضحى:١٠».

إذا المجتمع يحتاج إلى قضاء الحاجات، والحاجات تأتى إليك تباعاً فى صورة سائل فى أى حال، فى أى أمر، فى أى معيشة، فى غنى أو فقر، فى حرب أو سلم، فى صحة أو مرض، فى عز أو ذل، فى نصر أو هزيمة، أنت مُعَرَّض تماماً لكل صاحب حاجة وصاحب الحاجة له سؤال، والسؤال الذى يسأله ينتظر منك الإنصاف، فإذا نُهِرَ هذا السائل فهذا مجتمع ساقط لأن القيادة لا تَنْهَر ولا تُبْعِد ولا تُشْقِي ولاتنفِّر .

فالسؤال يحتاج إلى تحمُّل لأنه مرهق فالمسئولية ليست نعيماً ولا ورودًا تنثر ولا حريراً يمهد ولا صواريخ تطلق، وإنما المسئولية تعب وإجابة لكل سؤال.

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩) ﴾ «آل عمران: ١٥٩».

انفضوا من حولك لأن المجتمع انفصل عنك، لأنك ما رفضت هؤلاء وما أبعدتهم إلا أنهم شغلوك عن راحتك، أخذوا وقتاً من نومك فأحببت نومك عن مصالح الناس، أخذوا وقتاً من متاعك أو نزهتك فدخل ذلك فى قلبك مدخل الكبر فكرهت الناس أن يتداخلوا فى متعك وفى متاعك وفى لذائذك، فحدث هناك تعارض بينك وبينهم، فنفر الناس وَبَعُدَ الناس عن هذه القيادة وعن هذا الحكم المنفر الذى لا يقبل السائل ولا يقبل أصحاب الحاجات ﴿ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ (١٠) ﴾«الضحى: ١٠».

كيف تُحَدِّث بالنعمة...؟

﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ (١٠) ﴾«الضحى: ٩-١١».

الحديث انطلاق جديد من حياة الحبيب ﷺ فليس معنى ذلك أنه تحدث للناس بما عندنا من الملابس والمتع والسيارات وأن يقوم الإعلام بنشر ذلك، ولكن ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١) ﴾«الضحى: ١١».

أى تُحَدِّثُ ربك بكل جزئية من جزيئة التشريع، أى يرى ربك عليك أثر النعمة، ولم تُحَدَّد النعمة هنا بالنعمة الدنيوية أو الدينية أو النعمة الإسلامية، يجب أن نحدثه بها عموماً. أنزل الله تعالى ضمن تشريعه ﴿ وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٤٢) ﴾ «البقرة: ٤٢».

نعمة المال

فإخراج الزكاة تحديث أو حديث خاص بينى وبين الله، فعندما أخرجها أنوى أن أخرج الزكاة ونيتى لمن ؟لله، عندما أعقد النية: نويت الزكاة، عندما أعطيها، أقصد بها من ؟الله ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١) ﴾ «الضحى: ١١».

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٠٣) ﴾ «التوبة:١٠٣»

تطهر مجتمعهم من الحقد ونفوسهم من الشح وأرضهم من البغضاء وأن تطهر أجواءهم من الثغرات التى يدخل منها أعداء الإسلام من الشيوعيين ومن غيرهم.

وعندما أقول: الله أكبر . .أحدثه بمعناها: الله أكبر، أنت أكبر من كل دنياى فلا أخشى رأساً فى الأرض مهما كبرت، لا أخشى أحداً إلا إذا كان هذا الإنسان يوصلنى إليك ويقوينى بك ويعزنى بدينك فأنا معه وله وبه وإليه.

الله أكبر ارزقنى حبك وحب من يحبك والعمل الذى يقربنى إلى حبك واجعل حبك أحب إلى من الماء البارد. الله أكبر فى الصلاة، أحدثه أنت أكبر من أى إنسان أنافقه من أجل دراهم معدودات أو من أجل وظيفة أو من أجل دنيا. فأخرج من صلاتى بعد الحديث، الله أكبر من أى شهوة تبعدنى عنك ومن أى مال حرام يفصل بينى وبينك، الله أكبر، ثم تكرر أحداثه فالصلاة نعمة ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١) ﴾ «الضحى:١١».

فحِّدثْه بقلبك وحدثه بعقلك وأنت تصلى وحِّدثْه بعَظْمك وحِّدثْه ببطنك وحِّدثْه بسمعك وحِّدثْه بجوارحك وحِّدثْه بكلك.

كل عبادة من العبادات أحِّدثُه بها أحاكيه أناجيه أعيش له أعيش فيه حتى أدرك حقيقة العزة الإسلامية فى الكمال المحمدى، فالنبى ﷺ كان كذلك، كان إذا جاءه أحد فى حاجة أخذه إلى حاجته حتى قال المحدثون تأتى المرأة وتأخذ بيده لقضاء أمر لها فلا يقول لها: لِمَ ولا إلى أين؟ حتى يقضى حاجتها كما يحدث ربه وبكل ما أنعم به إليه فى صلاته وفى صيامه حتى قيل فى حديث ما معناه: لوكان بينى وبين ربى بحر من نار لخضته شوقاً إليه، فالنعمة هى الموصلة والنعمة هى التى يأخذها الإنسان لمرضاة ربه ولايترك مرضاة ربه من أجل نعمة من نعم الدنيا ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١) ﴾ «الضحى:١١».

نعمة الصحة والعافية

أى استخدم كل ما أنعمت به عليك فى دنياك لله، استخدم صحتك وعقلك له، علمك له، مالك له، الدين أن تفعل كل ما أمرك به فالدين نعمة تحدثه بها، ومن أساس الدين ومن صلب الدين أن تحدثه بالدنيا بصحتك وعافيتك وما أنعم به عليك ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ⑪ ﴾ «الضحى: ١١».

وعندما نقرأ قول الله تبارك وتعالى«الفاتحة: ٥» .

أن تجتنب عمانهيت «وإياك» ولم يقل و«بك» . وإياك أى نقصدك ونستعين بالقرب إليك بكل ما أنعمت به علينا صفحتنا ليست عزيزة على طاعتك وما لنا ليس عزيزاً عليك﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ⑤ ﴾ «الفاتحة: ٥».

بمالنا وعقلنا وصحتنا وكل ما فى سبيل مرضاتك وهكذا نرى حضرته ﷺ قد جمع هذه الآيات فى حياته﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ⑪ ﴾ «الضحى: ١١».

كما يجاهد بكل ذاته يجاهد بكل قلبه يجاهد بكل عقله يجاهد بكل جوارحه يجاهد فى كل ما يناسب الجهاد إذا اقتضى الجهاد سعياً فى مصلحة الأمة فهو استخدام البدن فى راحة الأمة فيتحسس فيرى الرجل وقد غش الأمة فيعلمه «من غشنا فليس منا» ثم ينتقل إلى بيوته فلم يظلم أحداً ثم ينتقل إلى السوق ليشترى لأهله ثم ينتقل إلى أصحابه ليعود المريض ثم يتبع الجنازة، ثم يسأل عن أصحاب الحاجات هكذا يحدث ربه عقلاً وقلباً وجوارحاً، فكل ذاته وكل عقله وكل قلبه قمه فى العطاء وعَلَمُ ومثال وقوة فى القيادة، كذلك إذا دعا داعى لجهاد كان الأول، وإذا هرب الناس لا يتحرك هرباً «فقاتل فى سبيل الله لا تكلف إلا نفسك» فهو المكلف ﷺ ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ⑪ ﴾ «الضحى: ١١».

نعمة دمع الندم

فحدث بدمعك فالدمع نعمة... الدموع تنزل لتغسل العين ولكن يحدث ربه بها فيبكى بكاء شديداً حتى تقوم السيدة عائشة رضى الله عنها كان يبكى حتى يبتل الحصير من بكائه خشية من الله.

نعمة الفقراء

كان النبى ﷺ يأخذ صاحب الحاجة ويسأل: يا عائشة يا زينب يا حفصة يا أم سلمة، يمشى إلى بيوته ومعه صاحب الحاجة وليس فى بيته شيء تقول: يا رسول الله، تقول الواحدة تلو الأخرى: والله ما فى بيتنا إلا الماء فيمضى بصاحبه ولا يتركه، يمضى به حتى يعطيه لأحد الصحابة فإذا وجد طعاماً أخذه وأعطاه. فيروي سيدنا أبو هريرة رضى الله عنه قال: اشتد بى الجوع حتى التصقت بطنى بالأرض فمر بعض الصحابة فسألتهم فلم يكن عندهم، فمر النبى ﷺ فقال: مابك يا أبا هريرة؟ فقال: سألت أبا بكر وسألت عمر طعاماً فلم يجبنى أحد فقال له تعالَ معى فأخذه إلى المسجد ثم انتظر فجاء أحد الناس بطعام فتهلل وجه النبى ﷺ ولم يأخذ الطعام إلى بيته الذى لم يكن فيه إلا الماء، قال: يا أبا هريرة، كُلْ وأطعم إخوتك أهل الصفة. فأكل وأكل أهل الصفة وهو ينظر إليهم وهم يشبعون ولم يأكل كثيراً حتى ينتهى الطعام، ولم يُؤْثر بيته على عامة المسلمين، فقد يتحمل البيت لكن هؤلاء أولى وطوى لهم الجوع ما طوى من الألم، فيأتى إليه واحد فيقول: يا رسول الله، لم أذق طعاماً منذ كذا. فقال تعالَ يا أخى فكشف عن بطنه وقد ربط حجراً، فقال: يا أخى وأنا لم أذق طعاماً منذ ثلاث فاصبر حتى يكرمنا الله تعالى..

وهكذا ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (11) ﴾[الضحى: ١١].

مشاركة الآخرين من التحديث بالنعمة

حديثه بخلق المشاركة فى المجتمع عندما قام الناس ببناء مسجد قباء وغيره كان يحمل الأكثر عنهم يحمل التراب فيقول له الصحابة : يا رسول الله ، نحن نكفيك ذلك . قال : هذا حق ولكننى أحب ألا أتميز عليكم فلا تحرمونى هذا الأجر . ثم يأتى فى غزوة الأحزاب فيشارك فى حمل التراب فى حفر الخندق على عاتقه حتى اخضلَّتْ لحيته وكثر التراب فالناس ترى الخاتم الذى يحِّدثُ خاتم القيادة ، خاتم الأنبياء ، خاتم المرسلين ، خاتم المصلحين ، هذا الخاتم الذى جمع مالم يجمع أحد ، ليس فى أوراق إنما هو قمة التنفيذ وقمة التطبيق وقمة الرؤية العينية ، هكذا المثال وهكذا الكمال وليس الكمال برجاً من العاج يوضع فيه تماثيل من حطام البشر فتراب ينظر إلى تراب ، وإنما هؤلاء كانوا معه أرواحاً تصفو بهذه الروح وقلوباً تُنقّى بهذا القلب وأجساماً تتطهر بهذا الجسم وأخلاقاً تسمو بهذا الخلق ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١) ﴾ «الضحى:١١».

أى فحدث ربك فى دينك ودنياك فيقول ﴿ نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) ﴾ «القلم:١-٢».

كفى بالإسلام نعمة...

النعمة «بنعمة ربك» أى هذا الدين الذى أنت مثاله حركةً وسكوناً ، أنت مثاله فعلاً وقولاً ، أنت مثاله فى بيتك وفى معسكرك ومع الناس ، أنت مثاله سلماً وحرباً ، أنت مثاله شبعاً وجوعاً ، أنت مثاله ريا وعطشاً ، أنت مثاله صحة ومرضاً أنت مثاله غنى وفقراً ، أنت الحياة .

أى فلم يستطع أحد أن يسطر قدرك إلا أنا يا محمد ، فأنا الذى أعلم قدرك ، فالذى يسطر هم ملائكى ، يسطرون ما أنعمت به عليك فى اللوح المحفوظ ، وأنا أسطر فيك تأديبى لك ، فليس الأمر قولاً فى اللوح المحفوظ ولا كتابة فى الملأ الأعلى ، إنما أنت

القول أنت الحركة أنت السطر أنت الكتاب أنت الكلمة أنت خلقي الأعظم يا محمد ﴿ نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ① مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ② ﴾ «القلم: ١-٢».

فالمجنون الذي ذهب عقله كله أو ذهب بعض عقله والمجنون هو الذى يرى فى فعله مالا يناسب العقلاء. إذا فعل شيئاً رأى الناس فيه العجب وتعجبوا من فعله، كمن مشى علي رأسه دون رجليه، وكمن أكل زجاجاً دون لحم، أى فَعَل ما يخالف طبيعة البشر، يُنْظَر إليه بعجب: هذا مجنون. أما أنت بما أنعمت به عليك لا يمكن لأحد أن ينظر بنعمة من النعم التي فيك مخالفة إطلاقاً فأنت قد أُكْرِمْتَ بنعمة الإيمان.. أهل الكفل يتخبطون ويتغيرون أما نعمتك فثابتة، لأنها نعمة التوحيد ولأنها رحمة ... كل العقول تجمع على صلاحية الصدق للحياة، حتى اللصوص يبعدون الكاذب منهم ولا يحبون الخائن الذى يدخر غدراً بعض الأشياء منهم، فهذا يُسْتبعد، بل يأتون فى وسط الاتفاق أو بعد الاتفاق ويقولون الفاتحة: على الخائن وابن الحرام، حتى اللصوص يكرهون الكذابين فى لصوصيتهم، وحتى الخونة يكرهون الخيانة من بعضهم، فالصدق نعمة تجمع عليها العقول، الأمانة نعمة تجمع عليها العقول، العلم نعمة تجمع عليها العقول، كل ما فيك وما أعطيته لك من علم تجمع عليه العقول، فليس هناك شيء شاذ إلا من أنكره عناداً أو حجوداً أو لِهَوىً أو لدنيا أولشهوة أو لسلطان أو لغرض، أما أصحاب العقول الصافية المجردة فهى تحكم على النعم التى أَنْعَمْتُ فيها عليك بأنها نعمة العقل السليم ﴿ نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ① مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ② ﴾«القلم: ١-٢».

«أنت» ضمير المخاطب «بنعمة ربك» ولم يقل ما أنت بالنعمة فتصبح بهذا نعمة فيها التسول على عقول البشر والفلاسفة وأهل الضلال، فَقَصَر النعمة على واحد فقط وهو الله. ولم يقل: وما أنت بالنعمة بمجنون، أو ما أنت بنعمة بمجنون لأن هذا يجعلها نعمة مستوحاة من هنا ومن هنا ونعمة مستلقطة كاللقطة التى تؤخذ صدقة فى عبر الطريق،

ولكن "بنعمة ربك" فارتبط العطاء بالله ارتباط النعمة به إنه لا غرض فى هذه النعمة ولا شهوة ولا غاية دنيوية، فالله متنزه تقدست أسماؤه وتنزهت صفاته سبحانه، فلا هوىً فى هذه النعم التى أنعم بها على الحبيب المصطفى ﷺ أما أهل التشريعات الدنيوية فهم أهل هوى أخذت التشريعات من عقولهم فالعقل يفرح ويحزن ويُسَر ويخاف ويأمن، كل هذه عوارض، ويحقد ويصفو ويحب ويكره ويضطرب ويهدأ. عقول لا يمكن أن تثبت على حال فصاحب التشريع الواحد يغيره ويبدله وله مسودات وله مبيضات وله مُحَمَّرات ثم تأتى لجنه بعد لجنة فتفسد ما قالت الأولى، وتأتى دولة بعد دولة فتنقض ما قالت الأولى، ويأتى حكم بعد حكم ويعترض على ما كان فى الأول، فهكذا لا نرى ثباتاً فى البشر فيما شُرع. فالنعمة الصافية نعمة الخاتم هى النعمة الثابتة ﴿مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾﴾(القلم: ٢).

أى ما يأتى شيئاً يخالف العقل ولا يخالف الفطرة ولا يخالف البشرية ولا الإنسانية إلى يوم القيامة بل جئت بالعلوم ما يكتشفه الناس جيلا بعد جيل وبعد أجيال متوالية ومتتالية حتى يصلوا إلى حقيقة ما جئت به يا محمد، فلفظ فى القرآن يأتى العلماء بكل ما عندهم من عقل وبحث وتجربة، وذلك يكشف حقيقة من الحقائق التى نطق بها ﷺ.

* * *

ثناء الخـلاق على أخلاقه

يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿ وإنك على خلق عظيم ﴾

هذا وصف شمولي وصف كامل، وصف عام لما جمع الله فى سيدنا محمد ﷺ من الكمال الإنسانى المطلق.

فقد جمع فيه ما لم يجمع فى أحد قبله، وهذا الوصف الكامل الذى لا نقص فيه إطلاقاً، لا يتأتى لإنسان مهما بلغ عقله ومهما وصل بفكره إلى ما وصل إليه، لا يتأتى له أن يأخذ على هذه الشخصية العظيمة أي مأخذ فى أى فعل أو فى أى قول فى طول حياته ﷺ. ولا يكون التطبيق كاملاً سليماً نقياً إلا بعد الإعداد الشمولى الكامل، وهذا العلم الذى نتعلمه من القرآن الكريم فى حق رسولنا وحبيبنا محمد ﷺ وكما لا يخفى عليكم أن هذا ليس بمجرد تحفه توضع فى البشرية حتى ينظر إليها كما يُنْظر إلى شيء يعجب به لمجرد الإعجاب وإنما هو إعداد انطلاقى إلي كل الآفاق إعداد مشع، إعداد مهذب.

فهو إعداد للإعطاء بعد العطاء - كما أن هذه القدوة كانت لتكون وليست القدوة كانت تقف عند كونها كانت، وإنما كانت لتكون مثلاً عظيماً كاملاً لكل البشرية فى كل أرض وفى كل زمان ولهذا يقول الحق تبارك وتعالى ﴿ يا أيها النبى إنا إرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ﴾.

شاهداً على حقيقتك وعلى كمالك. شاهداً على علم وعن يقين.. شاهداً لحقائق الأشياء لما مضى ولما هو آت.

ومن هذا الكمال كان انطلاقك مبشراً ونذيراً وداعياً إلي الله بإذنه وسراجاً منيراً. فكان الحق في قوله جل شأنه «وسراجاً منيراً» هو المراد وكلمة السراج هو النجم المضيء في ذاته المنير لغيره، فلم يستمد نوراً من غيره بل هو الذى أمدَّ، ولهذا فهناك نجم وهناك قمر، فالنجم جسم ملتهب في ذاته مضيء لغيره، والقمر جسم معتم يستمد نوره من غيره.

ولهذا يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿ وهو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً ﴾

فوصف الله سبحانه وتعالى سيدنا محمداً بهذا الوصف الشامل وبهذا الإطلاق الشمولي العام الذى لا نقص فيه، فهو السراج وكل الأرواح تستمد حقيقتها وميزانها منه وهو لا يستمد من غيره، وكل العقول تستمد نجمها منه فهو السراج المضيء للبشرية علماً وسلوكاً قولاً وفعلاً. فهذا معنى ﴿ إنك لعلى خلق عظيم ﴾ كلمة «عظيم» هي صيغة مبالغة، فوصفة بهذا الوصف حتى ننتبه إلى هذه الشخصية العظيمة الكبيرة وكيف أعدها الله إعداداً شمولياً للتطبيق لا لتكون في متحف من المتاحف.

سبحانه جل شأنه وضع نُظُماً عالية لا تكون لسواه في أعنف الأمور وفي أشدها وفي أخطرها فهو دائما المثل الأعلى لا للتدليل والتذُّلل وإنما للشموخ والحق.

شجاعة نبوية

يقول الله تبارك وتعالى: «فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك وحرض المؤمنين» نبدأ بهذا الخلق حتى نسير سيراً علمياً في حقيقة الإعداد "فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك" ما معنى ذلك ... يجوز إذا كان العدو ضعف المسلمين أكثر من مرتين بمعنى أنه إذا كان أكثر من ذلك فيجوز لهم الفرار للنجاة كل هذا في شأن

المسلمين عامة أما هو ﷺ فلا يجوز له ذلك إطلاقاً بأى صورة من الصور.

نحن بدأنا بهذا حتى نفهم معنى الكمال وليس الكمال للمديح وإنما الكمال للتطبيق ليؤثر فى آفاق العقول وفى أبعاد النفوس كيف يكون الإعداد ليكون التطبيق فى الأرض.

هذا هو القائد والحاكم الذى وهبه الله كل ما وهب من كمال الوهب حتى يكون المثل الأعلى فى أشد المواقف.

فالكل دونه وهو وحده يقف أمانا للمسلمين ويقف حصناً ولو بذاته وشخصه فقط.

وقد حدث ذلك فى غزوة حنين عندما فر المسلمين ووقف وحده إلا بقلة.

فالقلة قد وقفوا تطوعاً. أما هو ﷺ فقد وقف فريضة وتكليفاً. فإن مشى هؤلاء فلا حرج عليهم، أما هو فلا يكون منه ذلك فوقف وحده وكل الأعداء حوله ويقول قولته العظيمة العالية الكريمة "أنا النبى لا كذب .. أنا ابن عبد المطلب" ويكرر ذلك إعلانا: مثلى لا يكون منه الفرار وإنما يكون منه الإقدام. فأنا المثل الكامل لأمتى إلى يوم القيامة ﷺ.

بعد هذا يأتى خبر أو إشاعة حول المدينة أن بعض الأعداء قد جاءوا أو وفدوا فسمع ذلك، صلوات الله وسلامه عليه فأخذ فرسه بلا سرج ولم يتأخر لحظة حتى يهيئ فرسه وإنما خرج فى شجاعة عظيمة خالدة وحده، ولم يدعُ أحداً إطلاقاً، وكان ذلك فى صبيحة يوم مبكر، فلما استيقظ الناس وجدوه بينهم. فقال: "لقد خرجت ولم أجد شيئاً والحمد لله تعالى". ما هذا؟! إنه قدوة وأمة فى شخص واحد، وإنه مثل لا يكرر حينا بعد حين فى كل أحوال الحياة. هو قمتنا وهو سمونا، بهذا الإقدام فى أخطر المواقف إذا خرج الجيش كان أوله حتى إذا أصيب كان أول من يصاب. وإذا رجع الجيش

كان فى المؤخرة حتى إذا ضرب الجيش من الخلف كان أول من يضرب .

فلم تكن هناك حصون منيعة تحجبه عن الأمة . فالمثل لابد أن يُرَى حركة بعد حركة وإقداماً بعد إقدام ، فكيف يوصف بالشجاعة إلا إذا كان أشجع الخلق ﷺ .

هو إسلام يتحرك بشجاعة ، إسلام يتحرك إقداماً ، إسلام يتحرك قوة .

إسلام يتحرك قدوة إسلام يتحرك فى كل معنى مراد حتى يحقق المعنى المراد الذي أراده الله سبحانه وتعالى .

التواضع

بعد هذا نجده ﷺ لا يخرج من هذا المقياس العلمى ، وأنما ينتقل من معنى إلى معنى إذا اقتضى ذلك فى حينه ، نجده سراجاً وهاجاً ﷺ نوراً منيراً فى خلق آخر ، فعندما يمشى فى طريقه وتقابله امرأة فتأخذ بيده لحاجتها وهو الشجاع الأشجع وهو القدوة والقيادة . تأخذ بيده امرأة ليقضى حاجتها وهى فقيرة من فقراء الأمة مسكينة أرملة فلا يسألها لم تأخذين بيدى .

﴿ واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ﴾

هذا شىء وهذا شىء آخر ، اقتضى أن يكون صاحب الخلق العظيم فى الحرب اقتضى أن يكون صاحب الخلق العظيم فى التواضع ﷺ .

شيئان لم يؤثر أحدهما فى الآخر ، فلم تكن شجاعته سيفاً على رقاب الخلق وعلى أحاسيس الأمة وإنما كان هذا فى وضع وهذا فى وضع آخر ، فشجاعته لم تكن شكلاً ومظهراً دون تطبيق وعمل ، تواضعه لم يكن ذلاً وانكساراً وإنما هى الحاجة الماسة والرحمة والشهامة تقتضى ذلك . العلم الإعدادى للأمة .

وعندما يسير مرة أخرى ويقابله سائل : يا رسول الله إنى فى حاجة إلى طعام ، فيدخل

بيوته بيتاً بيتاً : يا عائشة أعندك طعام؟ فتقول : يا رسول الله، ما عندنا إلا الماء . فلا يترك صاحبه، لابد من قضاء حاجته، ثم يسأل بيتاً آخر : أعندكم طعام؟ والرد يكون : يا رسول الله ما عندنا إلا ماء . كل بيوته وهو رأس الأمة وليس فى بيته إلا الماء ! ! ومعه صاحبه فلا يتركه حتى يطعمه . . . ! إن لم يكن فى بيته فيقترض وإن لم يقترض يسأل أحد أصحابه : هل عندك طعام؟ .

﴿ رحماء بينهم ﴾ فهذا هو الذى وضعه فى كمال الكمال .

﴿ واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ﴾ .

العفو والتسامح

يقول الله تعالى له : ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾ فى وقت يحتاج الأمر فيه إلى أن يكون عاملاً فى بيته، الحقوق متشابكة ومتنوعة، هل إقدامه فى حربه وهل انتصاره يصرفه عن أبسط الحقوق فى بيته ومع نفسه . فكان على خلق عظيم مع زوجه وأهله فكانوا يعملون وهو يعمل .

فكان يخصف نعله وكان يُرقِّع ثوبه ويحلب شاته عمل فى الحرب وعمل مع أصحابه وعمل فى بيته، ثم كان يساعد أهله، فيقول سيدنا أنس رضي الله عنه : كان ﷺ فى خدمة أهله . "لقد خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لشىء فعلته لم فعلته فإذا أعجبه شىء أكله وإلا حمد الله تعالى : لا كلام ولا اعتراض ولا شجار ومشاجرة من أجل طعام أو من أجل شراب . بيت فيه نور الأسوة ونور القدوة .

كيف يعالج الأمور فى رقى وفى حساب دقيق مع النفس، لم يضيع الوقت من أجل لقمة أو من أجل شربة أو من أجل شىء عابر . وكم ضيع الناس أوقاتهم فى ذلك .

كذلك ﷺ كان في حياته كما وصفه الله تعالى: ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ هناك خلق صناعى وهناك خلق للاكتساب، يحتاج أصحاب التجارة أن يعاملوا الزبائن بخلق طيب حتى يأتوا إليهم.

فكل مهنة من المهن تحتاج إلى معاملة خاصة لاكتساب المشترين لكثرة البيع، ولكن خلقه ﷺ خلق صافٍ لا يريد دنيا أو خَلْقًا، وإنما خُلُق ليعلم البشر، فلا نريد كثرة بدعاية وإنما كثرة تتخلق بهذا الخلق.

فليس زيفاً وإنما هو أصل وليس دعاية وإنما دعوة، فليس الخلق لمجرد أن يكتب التقرير أنه حسن السير والسلوك ليأخذ درجة وأنما خلق طبيعى .. خلق نقى، خلق للخلق ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ .

ليس معللاً وليس مشوهاً وليس نقصاً وإنما هو خلق ليتعلم البشر منه الخلق. فأول ما افتتح به هذا المعنى ﴿ قل ما أسألكم عليه من أجر ﴾ فليس هناك أجر للدعوة وليس هناك مرتب أو مراتب من الدعوة وإنما هى دعوة صافية فلا أجر لهذا الرسول ﷺ من أحد.

لا يريد من كل بيت قسطاً من الأقساط وأو راتباً أو ذهباً أو فضة، وعندما جاءه رجل فقال: يا رسول الله، لم أذق طعاماً وأصابنى الجوع، فأخذ ﷺ وكشف له وقال: لم يدخل جوفى طعام منذ ثلاث، وقد ربط الحجر على بطنه ﷺ من شدة الجوع، وكذلك كانت تقول السيدة عائشة رضى الله عنها: "كان يمر الشهر والشهران لا يوقد فى بيتنا نار ولا يعلم أحد بذلك إلا الله".

فهذا الخلق لا للمدح ولا للشكر وإنما هو عمق الدعوة، لا تنشر الدعوة إلا بهذا العمق الأصيل والخلق الكامل فى هذا الخلق.

ثم يُخيَّر - يأتيه جبريل عليه السلام فيقول :

(يا رسول الله إن الله يُخَيِّرك بين أن تكون ملكاً نبياً أو تكون عبداً نبياً) فقال : (أختار أن أكون عبداً نبياً) .

ويُخَيَّر فى أن يكون أغنى أغنياء الأرض . مهما وصل غنى أهل الأرض فلا يصل إلى هذا العرض إطلاقاً ، فقالوا له : يا رسول الله إن الله يعرض عليك جبال تهامة أن تكون ذهباً . شيء يغرى وشيء عظيم وشيء فيه راحة الأمة . ولكن الذهب بهذه الصورة سيتولد منه خطر ما بعده خطر .

فقال : "لا - لا ... أجوع يوماً فأحمد الله وأشبع يوماً فاشكر الله" . لا نريد هذا وألا يأتى أصحاب الأغراض ويعرضون الدخول فى الإسلام للذهب فيقولون يا محمد جئنا مسلمين ، ما أحسن الإسلام والإيمان ... يأتون بألسنة تسيل ويحيطها اللعاب من أجل الذهب ، فهى أجسام بين يديه وقلوب عند الذهب ، وعيون شاخصة تنتظر كم الثمن من أجل الإسلام .

إذن ستصبح جبال الذهب فساداً عاماً يترتب عليه انعكاس الشر على الأرض بدلاً من انعماس النور من السرج المنير .

فجاء الإسلام سراجاً منيراً للقلوب والأرواح فليس الخُلُق لكثرة المال ولكثرة الذهب وللبريق واللمعان والشهرة ، وإنما هو خلق للإنسانية ذاتها ليولد الإنسان بعد مخاض طاهر نقى . وليخرج بالإسلام مولوداً جديداً صافياً . ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ (١) رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً (٢) فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ (٣) ﴾ .

بهذا الخلق المحمدى خلق القدوة والأسوة بدأ الإسلام فأثر تأثيراً سليماً فى نفوس من

بدأ بهم الإسلام فلا علة أو سبب إطلاقاً إلا الإسلام.

لأنهم رأوا رحمةً ونوراً وتواضعاً وشجاعة وحباً وكرماً وصفاء ونقاء وعطاء ورفعة، لم يجدوا أى نقص فى هذه الذات ولا فى تلك الشخصية إطلاقاً، وكان بشعوره وبقلبه مع أصحابه وهم فى ألمهم وهم فى مصائبهم.

الرأفة والرحمة

يقف ﷺ ذات مرة وهو يرى سيدنا بلالاً رضى الله عنه يتعذب ويتألم فحزن حزناً شديداً، لم يقف فى حزن ثم انصرف يملأ بطنه يلهو مع أهله وإنما وقف وقفة الراعى المسئول عن رعيته.

وقف ﷺ وقفة العطوف، ولكن هذا الشعور هو الذى يولد الأسباب، فمر سيدنا أبو بكر رضى الله عنه وقال: ما بك يا رسول الله؟! الحزن فى عينه وبلال فى قلبه. إنه الوعاء الأعظم لأمته ﷺ.

مَنْ غَيْرُه سيكون وعاء شاملاً للرحمة؟ "أنا الرحمة المهداة" من يتأثر إذا لم يتأثر هو؟!

﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ فأصحابه أولى.

﴿ بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾

فقال: يا أبا بكر بلال يُعَذَّب. فذهب أبو بكر رضي الله عنه إلي بيته ثم ذهب لشراء بلال وذلك لإرضاء النبى ﷺ ولعتق واحد من الأمة.

فلما اشتراه قال له أميه بن خلف "يا أبا بكر إن بلالاً يساوى أقل مما دفعت" فقال: "لا إن بلالاً يساوى الدنيا كلها".

ويخرج به، وقبل أن يخرج يعلن كيف يكون الإسلام، وكيف أثَّر نور النبى ﷺ فى

صدر أبى بكر، ثم أصرّ أبو بكر فى هذه الجلسة فأعلن ما استمده وما أخذه من الخُلُق.

فقال: "يا بلال أنت حر لوجه الله"

فقالوا: لما تعتقه هنا؟

فقال: "إنى أستحي من الله تعالى أن يمشى خطوة واحدة وهو عبد لى".

إنه نور فى فلك دائم لا ينتقطع ولا يتأثر بالمؤثرات إن المال لم يمنع أن يعُتق بلال، إن الطعام لم يمنع أن يُعْتق بلال.

إرادة وراءها خلق عظيم لا لمديح وإنما للسلوك.

كيف يهنأ المسلمون وكيف يهنأ سيد المسلمين ورسول الإسلام ﷺ. وواحد فى هذا الحال.

هناك تناقض بين الإهمال والتمتع. كيف يهمل ثم يلذ له أن يتمتع وكيف يحس أن غيره فى مأزق وهو يرتاح وينام.

لا، إنه الذى قال، وقبل أن يقول كان خلقه سلوكاً يتكلم وفعلاً يتحرك وإنه سلاماً ينطلق، قال ﷺ: "مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى" وهو الذى يقول ﷺ: "من مشى فى حاجة أخيه مشى الله فى حاجته .. والله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه" كلامٌ على أثرٍ وعلى سلوكٍ وعلى فعلٍ، كلام طبَّقه ﷺ ثم تكلم به بعد ذلك فهو السراج المنير، فى كل موقف من مواقف الخلق لا نجد إلا فعلاً وسلوكاً حقيقياً ليتعلم البشر.

إن الله تعالى هو الذى أدبه ﷺ "أدبنى ربى فأحسن تأديبى".

أدبنى ربى تأديباً حسنا، هذا الأدب الذى نراه يتجلى فى مسألة من المسائل العظيمة.

فى أن الله تعالى يمدحه مدحاً جميلاً عندما يلتقى عنده أصحابه فى بيته.

ويطول جلوسهم عنده للتمتع به وللتشرف به ﷺ. فالله تعالى يخبره ويلهمه: أخبر إخوانك من المسلمين أن ينصرفوا إذا أكلوا وأن يذهب كل واحد إلى بيته فأنت مشغول.

يقول تعالى: ﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ﴾.

- وحاشى أن تكون ذلك .. لأنى جعلتك غير ذلك.

﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾

- يذكرنا كتاب الله تعالى العظيم بشىء جميل.

عندما تحولت القبلة إلي بيت المقدس وقال اليهود ما قالوا من السفاهة والفظاعة:

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٤٢) ﴾ «البقرة: ١٤٢»،بهذا القول وبعد ستة أشهر وبضعة أيام وقال الناس ما قالوا.

فقال ﷺ: يا أخى جبريل، سل الله تعالى أن يحول القبلة إلى الكعبة.

فقال لرسول الله: أنت أعظم جاهاً منا عند الله، سل الله أنت.

فازداد حياء من الله، وعندما نزل التحويل قُدِّمَ لمرضاته ﷺ.

قال تعالى: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٤٤) ﴾. «البقرة: ١٤٤»

كذلك يقول الله تعالى هنا: ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا

اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٤٤) ﴾ . «البقرة: ١٤٤»

لا تكون القبلة إلى مكان تتزاحم فيه النفوس الخبيثة بخبثها .

ولا تتجه القلوب إلى مكان ملوث ، لابد من التنقية فأراد تحرير الاتجاه بلا شبهات .

لم يكن لمجرد هوى وإنما هي فلسفة القائد المحنك .

وهى الخلق المجردة لمصلحة الأمة ، فتمني كل شيء يُنْتظر الإجابة عنه أو ينتظر الحكم فيه ، إلا هذا (تحويل القبلة) قد تمناه لأنه رمز وحدة الأمة إلى يوم القيامة ، لأنه ليس بالأمر السهل ولا بالبساطة العابرة ، وإنما هو مدى السير فيه لابد أن ينطلق من أساس لا شبهة فيه ولا غبار ولا تلويث فيه .

فارتضى هذه القبلة حتى يصح للمسلمين أمرهم .

﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٤٤) ﴾ . «البقرة: ١٤٤»

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤) ﴾ «القلم: ٤»

محيط لا ساحل له - لأنها خلق الله الأعظم - وهو النور الذى لا يكتب بالمداد ولا يمسك بالأيدى ولا يمحوه الزمن وإنما هو نور آفاق الأمة إلى يوم القيامة إن شاء الله .

إرضاؤه لزوجاته

- من خلقه ﷺ ما سجله القرآن ، وذلك عندما حرم على نفسه العسل وحرم على نفسه العسل وحرم على نفسه القبطية فى رواية : إنى حرمت العسل . . . وفى رواية أخرى "إنى حرمت مارية على نفسى" لماذا ؟ وما الخلق فى هذا

إنه رحمة ورحمة عظيمة ، ولكن سجل الله تعالى هذه الحادثة حتى يعلمنا كيف يربى رسوله ؟

وكيف كان هذا القول فاتحة عظيمة على أهل بيته.

فيقول الله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١) ﴾ «التحريم: ١».

هذه خلاصة الخلق، لا يكون منك تصرف على حساب التشريع مطلقاً.

﴿ يا أيها النبى ﴾ ولم يقل يا محمد لأنه موضوع يتعلق بالنبوة - وهنا الجمال والسمو فى التوجيه.

السؤال هو ﴿ يا أيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك ﴾ ؟

والجواب: ﴿ تبتغى مرضات أزوجك ﴾.

برز فى التعبير حتى تكون الصورة متكاملة فى السؤال والجواب تبتغى مرضاة أزواجك - القاعدة.

كل القواعد تنطلق للتشريع، ومن هنا توجه القرآن مباشرة إلى النساء.

﴿ عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا (٥) ﴾. «التحريم: ٥».

- فتوجه إليه أولا بهذا العتاب ... على تحريم العسل ومارية لمرضاة أزواجه ثم توجه القرآن الكريم بعد ذلك لتنبيه أزواجه وإنذارهن.

فيقول الله سبحانه وتعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٢٨) وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا (٢٩) ﴾ «الأحزاب: ٢٨-٢٩».

﴿ يا نساء النبى ﴾ وهذا هو القانون الجديد الذى سوف ينطبق على آل هذا البيت ولا

ينطبق على بيت آخر.

﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (٣٠) وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا (٣١) ﴾. «الأحزاب: ٣٠-٣١»

﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفًا (٣٢) وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (٣٣) ﴾ «الأحزاب: ٣٢-٣٣».

إذا إنعكس هذا الخلق العظيم انعكاساً مباشراً سلوكياً بنظام على أهله وعلى بيته ثم حكم الله تعالى بهذا الحكم.

ما دام هؤلاء قد اخترن الله ورسوله فلا تبديل ولا تغيير بعد ذلك.

﴿ لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ ﴾. «الأحزاب: ٥٢».

هذا العدد انتهى - لأنهن قد سلكن السلوك المحمدى الذى جعله الله تعالى سلوكاً طاهر طاهراً نقياً للأمة - فهو كمال.

ثم جاءت الرتبة - ثم جاء تاج العطاء.

﴿ النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم ﴾

فإذا كان الأب على هذا المثال العظيم فالأم لابد من أن تسلك هذا السلوك حتى تنشأ الأسرة الإسلامية نشأة من بيت متكامل لا عيب فيه.

تربية ربانية

بعد هذا البيت الذى تخلق بخلق الإسلام يأتى مثال الذرية ، الذرية من الصلب .

إنها مقاييس ومقاييس لعلم الخلق .

﴿ إنك لعلى خلق عظيم ﴾

– فلما تزوج سيدنا على بن أبى طالب رضى الله عنه وكرم الله وجهه السيدة فاطمة الزهراء رضى الله عنها قال لهما :

"إذا أويتما إلى فراشكما فقولاً قل هو الله أحد ٣ مرات"

– قل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس ، فما تعوذ المتعوذون بأفضل من هذا .

– ويأتى وقت إعلان ظاهرة من ظواهر السلوك الخطير . ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ .

لأنه مد لا جزر

فجاءت السيدة فاطمة الزهراء رضى الله عنها وقد جاءت الغنائم .

فقالت يا رسول الله لقد كَلَّتْ يدى من الرحى ، أريد خادماً .

فقال ﷺ :

لا ، لا يا فاطمة ألا أدلك على خير من ذلك .

إذا أويت إلى فراشك فقولى سبحان الله ثلاثا وثلاثين ، والحمد لله ثلاثا وثلاثين ، والله أكبر ثلاثا وثلاثين أو أربعاً وثلاثين ، فذلك خير من الدنيا وما فيها .

– السلوك الإحصائى الخلقى فى كل ركن من أركان الحياة وفى كل ظاهرة من ظواهرها نجد الخلق العظيم يتفتق عن المعانى وعن العلم وعن الحياة ، لأن الخُلُق هو الحياة ، والحياة هى الخلق . خلق يريح – وخلق تطمئن إليه نفوس البشر – ليس بالمال ولا بالعتاد ولا بالحديد ولا بالخشب ولا بالجواهر وإنما بجوهر الخلق فقط يأتى كل شىء .

﴿ وما كان لنبى أن يغل ﴾

يغل : أى أن ينفرد بشىء عن بقية الأمة .

﴿ ومن يغلل يأتى بما غل يوم القيامة ﴾

إلا من أتى الله بقلب سليم، وينطلق الخلق فى كمالاته وفى فلكه ينطلق انطلاقاً بلا تقاعس وبلا قعود .

- لا تجد شيئاً إلا وقد ظهر فى خلق الحبيب ﷺ .

عدل النبوة

- ثم يأتى مطلق العدل فى المرض .

- ففى مرضه ﷺ كان يقسم الليالى بين أزواجه . فكان يتنقل من بيت إلى بيت كما كان وهو صحيح، ولم يمنعه مرضه ﷺ أن يظهر خلق العدل الأكبر . فإذا كان عادلاً فى هذا المعنى فما بالك فى غيره .

عندما قال لصاحبه : (ويحك يا أخى ومن يعدل إذا لم أعدل) .

فكما الخلق "العدل" إعطاء كلى ذى حق حقه . هذا جو الخلق، محور الخلق العدل .

وأول مراحل العدل أن يذوق أولوا القربى العدل . الأم والأب والزوجة والأخوة والأبناء .

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربىٰ وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾

فكان صلى الله عليه وسلم عند قوله : "ويحك يا أخى ومن يعدل إذا لم أعدل" .

فكان يقسم الليالى بين أزواجه، ولكن فى قلبه رغبة أن يكون عند السيدة عائشة رضى الله عنها .

ولما ألهمه الله لما وراء ذلك إشارة بلا تجريح : فكان يقول قوله الرقيق : أين غداً ؟

فراعى شعورهن وهو فى مرض الموت ﷺ .

ثم أذنَّ له لما علمن من رغبته ﷺ فى ذلك فدخل عند السيدة عائشة رضى الله عنها وُمِّرض فى بيتها حتى انتقل إلى الرفيق الأعلى صلواتِ الله وسلامه عليه .

ولكن قبل أن ينتقل ختمت هذه الحياة الشريفة بقول عظيم :

قال : يا عائشة عندى سُبعة دنانير فأنفقيهن يا عائشة إنى أخاف أن ألقى الله تعالى دون أن أنفق ذلك فأنفقهن فأنفقت سبعة الدنانير .

حتى يظهر للعالمين جميعاً أن هذه هى نتيجة الخلق ، خلق القيادة خلق الرئاسة ، خلق الزعامة ، خلق القدوة ، عطاء بلا حدود ، حتى سبعة الدنانير لم ينتقل إلا وهى بعيدة عن بيته – فمات وليس فى بيته سبعة دنانير ، وليس ذلك دعوة إلى الفقر وإنما هى دعوة إلى السلوك الإحصائى الذى يرمى إليه صلاح المجتمع .

كل شيء له وضعه وكل شيء له مقياسه . ولهذا جاء الحق تبارك وتعالى بالآية العامة الشريفة : ﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة ﴾ .

حُسْنٌ بلا سوء وبلا قبح ، أسوة حسنة وصفها الله بالحسن .

الحُسْن بالجمال والجلال ، فكما قال تعالى : ﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً ﴾ وهناك ما نقف عنده طويلاً لنتعلم عندما انتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى .

الميراث : وأى شيء يورث : قربة ماء ، سرير من جريد ، وسادة حشوها ليف ، حصير . أشياء هى طاهرة نقية .

الدنيا دونها ، لما لمست من الخلق العظيم لما رأت ولما عاشت ، فأرسلت السيدة فاطمة الزهراء رضى الله عنها حتى ترث فى أبيها .. بركة ...لا طمعاً فى الدنيا كما يقولون

إنها سألت عن الدنيا .. لا .. لم تسأل عن أى شىء ؟

سبعة الدنانير قد أنفقت ، أي شيء يورث ؟

فقال لها سيدنا أبو بكر رضي الله عنه وقد كان الخليفة :

"لا يا فاطمة لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول : نحن معاشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه صدقة لمن يحتاجه . فهناك من المسلمين من يحتاج إلى قربة ماء فليأخذها ، وهناك من يحتاج إلى حصير فليأخذها ، ومنهم من يحتاج إلى سرير من جريد .

(نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه **صدقة**) .

وإنما كان خلقه القرآن ، قرآناً يمشى على الأرض قرآناً قولاً وفعلاً وسلوكاً ونظراً ومشياً وتناولاً وعطاءً .

- كان سلوكاً فى فلك يسبح لم يتوقف ومن هنا كان قول الله تعالى حقاً فيه :

﴿ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ﴾

وقال تعالى ﴿ نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ ﴾ . «القلم ١ : ٤»

وأى نور فى غيره ؟ .. هذا هو قدوتنا ومثلنا فى الاتباع والتطبيق بأولية الخلق والسلوك والمعاملة .. هذا هو مقياس الإيمان وميزانه .

* * *

حول معنى زواج الرسول ﷺ

العِصْمة من الصِغَر

نتحدث عن معنى زواج سيدنا محمد ﷺ بأكثر من أربع.

هذا التعداد الذى أثاره الجهلاء، وجهلهم لم يكن فيه إنصاف فازدادت الحماقة جهلاً وعدم إنصاف، لأنهم ليسوا على معرفة بحقائق هذه الأشياء. والجاهل بالشيء هو عدو له، فعدم فهم من جانب، أو فهم ومكابرة وحقد وتطاول على هذه الشخصية العظيمة التى اختارها الله سبحانه وتعالى رسولا ونبياً ورحمة.. وكرماً.. ورأفة.. ونعمة للعالمين. وعندما نبدأ هذا الموضوع نبدأه بالتحليل العقلى وبالعوامل التى يجب أن نقف عندها وقفة إنصاف وعلم.

فالنبى ﷺ نشأ يتيماً فقد مات أبوه وهو في بطن أمه، وماتت أمه وهو فى السادسة من عمره ومات جده ﷺ وهو في الثامنة من عمره فكفله عمه أبو طالب وكان مثالاً للطفل الحَيِيّ الوديع، الطفل الجاد، وكذلك الغلام الذى له وزنه فى هذه الحياة.

فلم يؤثر عنه أى تصرف فى صباه يخالف الطبائع السليمة والأخلاق الحميدة فنشأ نشأة فريدة.

وقد أخبر الله سبحانه وتعالى عن ذلك بقوله: ﴿ألم يجدك يتيماً فآوى﴾.

كمال العفة

بلغ مبلغ الشباب ولم يفكر إطلاقاً فى امرأة ليتزوجها بل كان يرعى الغنم كما يرعى أقرانه.

وقد ورد في الصحيح أنه ﷺ أراد أن يرى سامراً في مكة فطلب من صديق له أن يرعى الغنم حتى السامر " وهو فَرَحٌ من أفراح العرب وفيه ما فيه" فجلس على حجر ثم ألقى الله سبحانه وتعالى عليه النعاس حتى أصبح الصبح وأحس بالشمس تؤثر في رأسه، فاستيقظ وقد انفض السامر كله. فهي إشارة إلى مدى حفظ الله سبحانه وتعالى ومدى عنايته الفائقة التي يحيط بها رسوله ﷺ .

ومن العادة في هذه القبائل التي ألفت أن يتزوج الشباب في سن مبكرة، وقد ورد مثلاً أن بين سيدنا عمرو بن العاص وبين ولده سيدنا عبد الله بن عمرو بن العاص أحد عشر عاما في السن.

فكان يتزوج الشاب منهم في هذه السن المبكرة في الحادية عشر أو الثانية عشرة أو في الخامسة عشرة أو الثامنة عشرة على أقصى تقدير، فإذا بلغ العشرين دون زواج نظر الناس إليه أنه خالف المألوف... لماذا تأخر في الزواج؟

لقد بلغ العشرين من عمره، فالعشرون من العمر هو مبدأ التفاف من الناس إلى هذا الشاب الذى لم يتزوج.

لماذا لم يتزوج وقد بلغ العشرين من عمره؟ بالنسبة لهم في هذا الوقت شيء يستحق العجب والسؤال، فالنبي ﷺ لم يفكر في هذا الأمر رغم الاحترام الكامل ورغم التقدير له والمجمع عليه، ورغم وصفه بالصدق والأمانة وكان معروفًا في كل بيوت مكة وكان عنده أمانات الناس، فهو المؤتمن الصدوق فهو صادق بالوصف والتجربة، فقد وُصفَ أنه أمين، فكان مثلا للشباب الأمين المؤتمن على سِيَرِ الناس وعلى أعراضهم وعلى مالهم وحججهم وعلي وثائقهم، فكان أمينا بمعنى الكلمة ﷺ.

وكانت سيرته كالبدر التام تضيء في كل مكة ﷺ وذاع صيته وانتشر أمره في

الجزيرة كلها، فلم يشذ أحد إطلاقاً على هذا الإجماع، فكل بيت يتمنى أن يكون له الشرف أن يأخذ هذا الشاب الصالح الأمين الصادق الصدوق المؤتمن لابنتهم.

كل بيت يحب أن ينتسب إلي هذه الدرة الفريدة التي لم يسبق لها مثيل في هذه البقاع.

ومع ذلك لم يشر إشارة واحدة ولا بكلمة ولا بتلميح ولا بتصريح لأى كائن كان فى هذا الأمر مطلقاً. صمت تام حيث لا رغبة فى ذل. إذن أين الاندفاع الشهواني فى هذه السن؟!.

لايخلو شاب من عبارة.. حتى العبارة لا تخرج من ثناياه.

ولم تخرج من فيه ﷺ إطلاقاً مطلقا.

فضلا عن التصرف... لم يتصرف أى تصرف يشير إلي رغبة هذا الشاب فيما يرغب فيه الشباب وفيما يسعون إليه فى هذه السن، وهو في أَوُجّ صحته.. وقوته وكماله.. وسيرته العطرة في سائر أرجاء العرب... ﷺ.

حب الخلوة والتفكر

بل لم يقف الأمر عند هذا الحد، فأخذ ينطلق إلى الوحدة وهو شاب. ينطلق إلى غار حراء بعيداً عن فتن المجتمع المحيط.. وبعيداً عن ضلالات الناس وعن شرور أفعالهم وعن لقاءاتهم المفضوحة التي لاتخلو غالبا من فسق أو فجور من خمر أو نساء.. هذاهو سامرهم وهذه هي نواديهم.

خرج عن كل ذلك ولم يكن هناك تشريع ولا رسالة ولاشيء، وإنما هى الفطرة التي حفظها الله عليه له..

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ (٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ (٧) ﴾ (الضحى ٦-٧، (فهداك إليه).

فذهب إلى غار حراء لكى يفكر فى خلق السموات والأرض. ولكى يخرج عن أطار ما ألفه الناس إلى الحقيقة التي يبحث عنها كل عقل. فذهب إلى الغار وكان يتحنث فيه الليالى ذوات العدد. كان يتعبد علي ملة سيدنا إبراهيم.

الفكر الصحيح الثاقب يخرج به إلي نهاية واحدة "لا إله إلا الله"

وظل كذلك سنوات عديدة.. لم يكن شهرا أو شهرين، أو لم يكن وقتا بسيطاً سرعان ما انتهى.. ولكن كان هناك استمرار فيه عزم، استمرار فيه عزم القادم إلى الله وفيه إصرار الباحث عن الحقيقة.. وفيه المكتشف لأسرار الكون ملكوته ليكون من الموقنين.

ثم أخذ هذا الأمر دون تفكير إطلاقاً فيما سواه.. كان يرعي غنمه ويأخذ في أسباب المعيشة في رحلة مع عمه.. أو في أسباب أخرى من التجارة التي لايكون بها عالة على الناس.. ولايكون لأحد فضل عليه. فكان يتكسب ويأكل بعمل بيده ﷺ حَتيَّ لايشار اليه.. بأن أحداً ينفق عليه.. فكان يعمل حتي ينفي هذه الشبهة.. وحتى لايكون لها أثر فيما بعد، وكان يتعبد، فجمع بين العبادة والعمل.

هذه البداية التي أردت أن أشير إليها تطرد تماما من أي ذهن فكرة تفكير سيدنا محمد ﷺ في النساء أو في الشهوات أو في الزواج.. أو في تلك الأمور التي يتعلق بها كل شاب أو كل إنسان مهما بلغ سنه.

بداية لابد منها وحقيقة أولية يأنس إليها العقل ويقف منها موقف المنصف. إلى أن وصل سنه إلى ٢٥ عاماً ﷺ فى هذه السن الذي بلغ فيه مابلغ، نظر إليه الناس نظرة أخرى.. محمد لم يتزوج.. لم يتقدم لخطبة أي امرأة وكل بيوت مكة تنتظر إشارته.. ولكن لم يفكر في ذلك إطلاقاً. وكل أنثى في شبابها تتمنى أن ترتبط به فهو خيار من

خيار من خيار. وهو المجمع على سيرته العطرة الكاملة.

لاينقصه شيء وهو قمة الشرف في هذا الوقت.. ولا يقرب منه أحد ولايدانيه أي شيء، فكلٌ تَمنَّى ولكنه لم يتقدم.

إذن الرغبات تكون في مقدمات العمر.. والتقرير الذي يشار إلى الإنسان فيه يكون في هذه البدايات.

فالبداية هي بداية طاهرة.. نقية.. صفية.. جلية من أي شبهة في هذا الكلام وفي التطرق المشبوه من خفاف العقول ومن غير المنصفين الظالمين الجافين للحقائق.

إعجاب السيدة خديجة به

ثم سمعت عنه السيدة خديجة رضي الله عنها وأرضاها فرغبت هي أن يكون زوجا لها فهو لم يخطب وعندما خطب على خلاف العادة، فهو لم يبدأ الخطوة الأولى وإنما أوتيت إليه. فالحركة لم تكن منه في البداية وإنما كانت من السيدة خديجة رضى الله عنها وأرضاها. فأرسلت إليه. بعد خبرة جديدة عندما تاجر في مالها مع ميسرة غلامها رضى الله عنه فوصفه لها.. كيف كان مباركاً.. وكيف كان صادقاً.. وكيف كان أميناً.. وكيف كان باراً في كلمته.. وكيف كان وفياً في وعده .. وكان جم الأدب.. دمث الخلق.. عالي القدر... وقد انتهى من أمر تجارته في أقرب وقت، وذلك لسعي الناس إليه ولوجود نوعية جديدة من البشر لم يسبق لها مثيل.

هذا الوصف شَوَّقها أكثر إلى أن تكون زوجا له. وقد رفضت كثيراً وكثيراً من الخُطَّاب الراغبين،وهى صاحبة الشرف وصاحبة المال في مكة فهي خيار من خيار. فهي خديجة بنت خويلد بن أسد، تلتقى معه ﷺ في النسب في عبد مناف. وقد تزوجت قبله مرتين، وهى الآن بلا زوج وكان سنها فى هذا الوقت أربعين عاما.

فرق ليس بالسهل على الشاب أن يقدم إلى أمثالها فيه. ولكنه ﷺ لم يكن هذا فلكه ولا خياله.. وإنما هو مُعَدٌ لما هو أكبر من هذا، لم يعد ليختار النساء وليفرق بين الصغيرة والكبيرة والشقراء والبيضاء.. وإنما أُعِدَّ ليكون أمة كاملة الخلق والعلم والشرف.. وأن يكون حامل الرسالة إلى يوم الدين ﷺ.

فهذه نقطة أخرى تضاف إلى النقطة الأولى. عندما تزوج ﷺ خُطب ولم يَخطب. وكان من زوجة تزوجت قبله مرتين وكانت فيْ سن الأربعين من عمرها رضي الله عنها وأرضاها فتزوجها النبي ﷺ وأنجب منها ستة.

أنجب منها السيدة زينب والسيدة رقية والسيدة أم كلثوم والسيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنهن جميعا. وأنجب منها أيضا القاسم وعبد الله رضى الله عنهما.
أنجب منها أربعة بنات وذكرين. وجاء سيدنا إبراهيم رضى الله عنه من السيدة ماريا القبطية. وعاش معها زوجا بمعنى هذه ا لكلمة، يحافظ على حقوق زوجته يعمل ليعطى بيته من عرقه، ولم يغتنم فرصة زواجه من امرأة غنية بأن أصبح عالة على مالها، وإنما كان غير ذلك.

المرأة الكاملة

كان يقيم أمر بيته ولاينسى أمر نفسه فظل ﷺ يتوجه إلى غار حراء كما كان من قبل. ولم يفصله زواجه عن دوام التعبد والتحنث والتفكير والتدبير في ملكوت السموات والأرض. فهذا هو الزواج، فلم يكن هو الغاية ولم يقتنع بوجوده مع زوجته وترك ما أَلِفَ وماسعى إليه ومايريده فكان يؤدي حق بيته، يسعى إلى غار حراء ليتعبد فكانت تعينه على ذلك ولم تضق الزوجة بهذا الأمر ولم يكن خلاف واحد استطاع المؤرخون أن يصفوه في هذا التاريخ الشريف. فكانت زوجة وهى سيدة الزوجات،

وكانت امرأة هى سيدة نساء العالمين.. واستمرت دون اعتراض على انطلاقه ﷺ إلى الأفق الأعلى.. إلى أفق الخلاص من هذا الوثن ومن هذا الشرك.. ومن هذه الأعمال الخاسرة التي يعيش فيها الناس فرضيت واطمأنت وظلت معه إلى أن وصل سنه ﷺ اثنين وخمسين عاما. انتهى سن الشباب وبدأ سن الكهولة. وقارب إلى سن يغادر فيه الكهولة إلى الشيخوخة - سن بعيد- سبعة وعشرون عاما لم يفكر مرة واحدة فى أن يتزوج غيرها، فامرأة وصل سنها إلى قرابة السبعين عاما وهى زوجة له.

ومن هنا يكون الرد الصحيح - وإنى أخص الدعاة من إخواننا فى كل مكان أن يكونوا على بصيرة تامة من هذه المسألة التي تشاع فى هذا الوقت وأوقات أخرى كثيرة.

هذه الزوجة المباركة التى يقول فيها ﷺ: "لقد كمل من الرجال كثير .. ولم يكمل من النساء إلا أربع .. آسيه بنت مزاحم .... ومريم ابنة عمران .. خديجة بنت خويلد... وفاطمة بنت محمد...".

وقد ورد فيها حديث خاص.

جاء سيدنا جبريل عليه السلام فقال: يا رسول الله هاهى خديجة قادمة إليك بطبق فيه إدام (طعام) فإنْ هى أتت إليك فأقرئها من ربها السلام ومني.

فقال لها يا خديجة: إن الله يقرئك السلام. وجبريل يقرئك السلام.

وفاوه للطاهرة

بعد سبع وعشرين عاماً انتقلت رضي الله عنها فى مكة، وقد انتقل فى هذا العام أيضاً أبو طالب، فأطلق على هذا العام: عام الحزن. هكذا وصفه رسول الله ﷺ.

عام الحزن هى إشارة جديدة وملحوظة تضاف.

من مألوف الرجال الذين يرغبون فى النساء أن يفرح أحدهم عندما يتخلص من امرأة فى هذه السن بالموت فيسمى هذا العام بعام الفرح والانطلاق لأنه الخروج من القيد، ولكنه رسول الله ﷺ وهو أبو الوفاء وأبو الأوفياء.

وأصلاً لم تكن هذه رغبته ولم تكن هذه الصلة فاصلاً بينه وبين تعبده.. بل كان أكثر تعبداً وهو زوج للسيدة خديجة رضى الله عنها وأرضاها.

والتى نزل فيها القرآن وعندما انقطع الوحى آنسته .. وخففت عنه وقالت: والله لن يخزيك الله أبداً .. إنك لتصل الرحم وتكسو المعدوم وتَحْمِل الكَلَّ وتُعين على نوائب الدهر .. ماودعك ربك وما قلاك.

والذى قال فيها رسول الله ﷺ: "لا تؤذونى فى خديجة" هكذا انتقلت رضى الله عنها وهو يتعلق بها بكامل ما فيها من خلق ومن حرص على هذا البيت الطاهر .. فكانت زوجة وأماً وصديقة وهى أول من صلى فى الاسلام وهى أول من دخل الإسلام هى أول البداية فلم تنفصل عن رسول الله ﷺ فى أى شىء قبل الرسالة وبعد الرسالة.

البُعْد الإنسانى عند النبى ﷺ

توفيت السيدة خديجة رضى الله عنها قبل الهجرة فخطب رسول الله ﷺ فى مكة اثنتين.

خطب السيدة أم حبيبة وهى زوج عبد الله ابن حجش وكانت قد هاجرت مع زوجها إلى الحبشة فتنصر زوجها فانفصلت عنه، والسيدة أم حبيبة هى بنت أبى سفيان بن حرب أعدى أعداء الإسلام ، وأعدى أعداء سيد الخلق سيدنا محمد ﷺ وهناك علامة استفهام.

من يستطيع أن يُقْدم على خطبة أو زواج السيدة أم حبيبة من العرب؟ مَنْ؟ أو حتى من المسلمين؟ وذلك لهيبة وعصبية أبى سفيان بن حرب.

أولاً: هى تأبى أن تخرج عن الإسلام - وتأبى أن تتزوج كافراً لأن هذا قد حرمه الله تعالى، فمن يتزوجها ومن يجرؤ؟؟ امرأة أصرت على إسلامها وعلى دينها رغم تنصُّر زوجها. إن صاحب الرسالة أولى بها حتى يؤمن على حياتها وحتى لاتكون عُرْضة لأنظار الرجال حولها. إنها نظرة واسعة لأفق بعيد المدى، حتى يؤمنها من جانب ويُتَوِّجها من جانب آخر.

ومع الخطبة لم تكن معه، هي فى الحبشة وهو فى مكة فلم يسع إلى خطبتها لغرض دنيوى أو شهوة عابرة، وهو المعصوم رسول الله ﷺ.

وإنما خطبها ليؤمنها وليتوجها وليشرِّفها بهذا الزواج وحتى تزداد فى الأصحاب كرامة وهى زوج الرسول، رسول الله ﷺ.

فلا يفكر واحد فى أن يجعلها معه إضافة على زوجته، وقد تحدث مشاكل فى هذه البقعة وفى هذه الغربة - فأراد أن ينزع من قلوب الناس هذه العلل وأن ينسبها إليه زوجةً فخطبها وأرسل إلى النجاشي ملك الحبشة أنْ اخطب إلىَّ أم حبيبة لتكون زوجةً لى، وتم ذلك وهى فى مكان وهو فى مكان.

أين رغبة الزواج هنا؟ وأين رغبة التعدد؟ أين هى من بداية الأمر وإلى هذه النقطة؟ أين الرغبة؟ أين الشهوة؟؟ ليس هناك ذرة من شبهة.

الخِطْبة الثانية: هى خطبة رسول الله ﷺ للسيدة عائشة رضى الله عنها وهى بنت سيدنا أبى بكر الصديق رضي الله عنه. كانت الخطبة فى مكة ولم يتم الزواج إلا فى السنة الثالثة بعد غزوة بدر فعقد عليها فى مكة ولم يتم الزواج إلا فى السنة الثالثة بعد غزوة

بدر ولم تكن فى بيته.

خطبتان فى مكة ولم يكن معه واحدة منهما، لا أم حبيبة ولا عائشة رضى الله عنهما، والهجرة كانت بعد ثلاثة عشر عاماً من البعثة الشريفة فهاجر وكان سنه ثلاثة وخمسين عاماً ومرت السنة الأولى فأصبح أربعة وخمسين عاماً.

وكانت غزوة بدر فى السنة الثانية وكان سنه خمسة وخمسين عاماً، وصل إلى سن حرج ليس من جهة الجسم، فكان رسول ﷺ صحيح الجسم وصحيح البنية وكان قوياً صلوات الله وسلامه عليه.

ولكنه سن حرج فى تعدد المسئوليات الكبرى وكان قد تعدد زواجه فى خلال خمس سنوات، فى خمس سنوات تم كل هذا الزواج، فى سن من خمسة وخمسين عاماً إلى ستين.

أحب أن نأتى بعلماء الدنيا الباحثين حتى نضع هذا الموضوع موضع البحث وموضع التقسيم، ولكى نضع نِسَباً سليمة لكى نوزعها على الأعباء. يقول بعض الناس إن النبى رسول الله ﷺ قد تزوج هذا العدد لكى يؤلف بين القبائل (شىء مضحك) ما هذه القبائل التى ألّفَ بينها بهذا الزواج؟!.

إذا أتينا بمثال واحد وهو زواجه من السيدة أم حبيبة.

فزواجه من السيدة أم حبيبة زاد أبا سفيان حقداً وكراهية وكان أشد عليه من ذى قبل.

فأُحب أن نضع عقولنا وأنفسنا، ونأتى بعقول العالمين جميعاً لكى نحسب مدى المسئولية الملقاه على أسعد الخلق رسول الله ﷺ فزوجاته لهن حقوق وهذه الحقوق لم تكن هى الغاية ولم ينفرد لها فقط، فهناك الرسالة والقرآن ينزل، ولم يحدد وقت

خاص لنزول القرآن إنصافاً أو راحة لزوجاته أو تلبية لمزاجه، فالوحى كان ينزل كما أراد الله تعالى أن ينزل فى أى وقت وفى أى ساعة، قد يكون فى بيته أو وهو فى طريقه أو وهو راكب أو عند أصحابه. مسئولية الوحى أو نزول الوحى عليه هذا شىء كبير وليس أمراً سهلاً بسيطاً يمر عبر الألفاظ أو عبر الخاطر، فقط أُعدّ لذلك، ينزل الوحى ويتلقاه رسول الله ﷺ ثم ينفصل عنه الوحى فتبدأ مهمة أخرى وهى كتابة ما نزل وتبليغ ما نزل، ثم بعد ذلك تطبيق ما جاء به الوحى. نزول الوحى تبليغ الرسالة والآيات، تنفيذ ما جاء فى هذه الآيات، هذا من جهة الوحى، ومن جهة أخرى هو صاحب دولة يُكَوِّنُها وينشئها ويخطط لها.

فالوحى ونزوله وتطبيقه لتكوين هذه الدولة سياسياً واجتماعياً واقتصادياً مسئولية ثقيلة عن تعاليم الأمة وعن جيشها وعن معاهداتها، فكان معه اليهود وقد عاهدهم. وكان معه المنافقون وقد هادنهم إلى حين وكان معه المسلمون وهم متفاوتون فى درجات إيمانهم ومشاكلهم وأحوالهم. لم يقف الأمر عند المدينة كرجل مسئول عنها بل كان ينتظر الوفود من اليمين ومن نجد ومن سائر الجزيرة، فكان يتلقى الوفود وهو مسئول عن وفادتهم لا لمجرد النزهة والضيافة وإنما لنشر الإسلام.

الوحى ونزوله وتطبيقه ومسئولية دولة في المدينة ومسئولية الوفادة، أين نصيب الزوجات هنا؟! وأين نصيب الشهوات والرغبات؟؟! إن النِّسَبَ تقل كلما كثرت المسئوليات .

فكلما كثرت المسئوليات كلما قلت نسبة الزوجات ونصيبهن منه ﷺ العقل يقول هذا، والعلم يقول هذا ومع ذلك لم يهمل حق واحدة منهن.

الدنيا بين ذراعيه ﷺ

يقول الحق تبارك وتعالى :-

﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ﴾ ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ .

فالإسلام ليس مقصوراً على مكة ولا المدينة ولا الجزيرة ولا اليمن، **وليس مقصوراً** على هذه البقعة من الأرض، وإنما الإسلام هو دين الأرض كلها **لابد من نشره**.

فانطلق ﷺ يخاطب الملوك والحكام فى سائر الأرض وبدأ **يستعد استعداداً كاملاً** لتحمل المسئولية .

أنه يخاطب جميع الكتل فى الأرض مهما كبرت .

خاطب قيصر وخاطب كسرى، صاحبى الدولتين العظيميين **برسالتين من أقوى** الرسالات التى انطلقت بكل جرأة :

من محمد بن عبدالله إلى كسرى ملك فارس .

إلى قيصر ملك الروم ... إلى المقوقس ملك مصر .. جرأة عجيبة على الباطل .. إذ هذا شُغْل يضاف إلى شُغْل سابق وليس ورقة تزاد على عدة أوراق فى الكتابة .

وليس شاعراً يزيد بيتين على قصيدته فيقدح ذهنه حتى يأتى بأشعاره فى هدوء وفى راحة وفى انسجام . وإنما هو حرب الباطل حرب الأرض كلها من أولها إلى آخرها من أقصاها إلى أدناها كل هذه المسئوليات تحتاج إلى عناء وإلى جهد وإلى جهاد وإلى فكر خاص . أين النزوة هنا فى عقله؟ ! عقل بهذا التصور وبهذا الإشراق الذى يتحمل فيه كل المسئوليات أين جزئية الشهوة ؟ وأين السعى إليها ؟ وأين الإعداد لها بمزاج خاص وبجلسة خاصة وبنزهة خاصة ؟ ! ! هذا هو السلم، أما الحرب فهى شىء أخر .

بدأ يطهر المدينة من اليهود ومن يهود قينقاع . وثارت ثورته بنقض المعاهدة .

فقد آذوا امراة فى سوق الذهب. امرأة مسلمة، فثارت ثورته وحاصر بنى قينقاع وأجلاهم جميعاً. ثم نقض بنو النضير عهدهم وأردوا قتله.. فصدهم وأخرجهم، وبنوقريظة عندما فعلوا فعلتهم فى غزوة الأحزاب وكشفوا ظهر الجيش انتهى منهم.

﴿وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطئوها وكان الله على كل شيء قديراً﴾ شغل القائد الذي يقود العالم برسالة حكيمة فيها كل المسئوليات، ولم يكن هناك طغيان فى المسئولية فى ناحية على ناحية أخرى.

﴿فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير﴾ ثم كان فى خيبر فتخلص من اليهود تماماً. هى أحداث متلاحقة. هذا يعقب هذا - ولم يكن بين الحرب والحرب عشرات السنوات وإنما هى حروب متلاحقة، وسرعة فى إيجاد الكرامة وفى تصنيع الإنسان المسلم تصنيعاً ربانياً بالإسلام.

ثم كانت حروبه مع قريش فى بدر، فى أحد، وفى الأحزاب، وفى حنين والطائف، وفى فتح مكة، وفى تبوك، وفى مؤتة، إلى أن وصل إلى الشام فى تبوك واشتركت مكة وجاءت الأحزاب كلها .. كلٌ تحزب عليه.

لو دخلت بيتك ووجدت ثعباناً فى بيتك حاصرتك الهموم فما بالك بحصاره بأعدائه فى داخل الجزيرة وبحصار العالم له وتوعد كسرى وقيصر لحرب الإسلام ومع ذلك كان يواجه كل هذه المسائل مواجهة جبارة وهو العملاق الذى يداعب الطفل ويقف أمام الجبابرة ويرقُّ لحاجة الناس ويعطف ثم يقسو على الظلم والظالمين ﷺ.

فأين وسط هذا كله الرغبة فى النساء لأجل الشهوة؟!

ورد فى الحديث الشريف الصحيح المعنى الآتى: كانت ليلة السيدة عائشة رضى الله عنها وأرضاها فقالت: ونمت أنا ورسول الله ﷺ تحت لحاف واحد. ثم قال لى: يا عائشة

ذريني أتعبد . قالت : فقام ﷺ فتوضأ فأحسن الوضوء من قربة فى البيت ، ثم أخذ يصلي ويبكى حتى آذنه ابن أم مكتوم بصلاة الصبح . فقلت : هوِّنْ على نفسك يا رسول الله فقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر .

فقال : هذا حق . ولكن أفلا أكون عبداً شكوراً . (صلى الله عليه وسلم) فكان بَكَّاء يكثر بكاؤه فى الليل ، لأن قيام الليل قد فرض عليه الأمر . رُفِعَ عن المؤمنين أما أنت فلا يرفع عنك . ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً (٢) نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً (٤) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً (٥) إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً (٦) إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلاً (٧) وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً (٨) رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً (٩) ﴾ «المزمل ١-٩».

هناك زاوية أخرى لابد من ذكرها فهو الشمس كالسراج المنير ، حق كل إنسان أن يتمتع بهذا السراج ، فكلٌ يأتى إليه (يا رسول الله، ويطلب حاجة) يا رسول الله .. يا رسول الله ... ولم يكن يجلس للمسلمين فحسب فكان يجلس ويأتى الماكرون أيضاً . المشركون الكافرون والمنافقون . فتأتى الأسئلة .

(يسألونك عن الروح) - (يسألونك عن ذى القرنين) .. هكذا .. ثم يُسْأَل عن ذات الله وصفاته ونسبه فيأتى بالإجابة لأنه محيط لا ساحل له .

﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ كل هذا يفعله واحد ، كل هذا وغيره يفعله ويصنعه واحد فقط لا غير .

حكمة تشريعية

ننتقل بعد ذلك إلى مسألة خاصة من مسائل التعدد وهى زواجه ﷺ من السيدة زينب بنت جحش رضى الله عنها وأرضاها وهى بنت عمته السيدة صفية بنت عبد المطلب

رضي الله عنها. هذه ابنة عمته وهي أمامه، ويستحيل على الرسل إطلاقاً أن تتحرك خواطرهم في غير ما يرضي الله.

ولذلك يقول ﷺ "تنام عيناي ولا ينام قلبي" فخاطره ليس فيه شيء لغير الله. ولا يمكن أن ينظر نظرة إطلاقاً فيها شبهة وهو الذى ساق الله على لسانه ﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم﴾ فكيف يأتى منه ﷺ أن يفعل ذلك وأن يحبها خلسة أو كما قال هؤلاء الخاسرون الجهلاء. هناك مبدأ لابد من تطبيقه، فقد شاع في العرب وذاع قبل الإسلام أن الابن المُتبنَّى كالابن من الصلب، يرث كما يرث الأبناء. ويطبق عليه الأحكام التى على الأبناء الحقيقيين فلا يتزوج زوجة أبيه وهو لا يتزوج امرأته (يعنى: إذا مات الابن المتبنى لا يجوز للأب أن يتزوج زوجة ابنه المتوفى، أو إذا طلقها، فلا يجوز أن يتزوجها من بعده إطلاقاً كالابن تماماً). سيدنا زيد ابن حارثة كان رضي الله عنه يتبناه ﷺ ثم قال تعالى: ﴿ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله﴾

فبدل أن كان يطلق عليه زيد بن محمد، أصبح عليه زيد بن حارثة وانتهى الأمر ولكن مازال هذا الأثر موجوداً فى نفوس الناس.

وأراد الله تعالى وأراد النبى ﷺ: أن يمحو فكرة الطبقية واللون بين المسلمين فلا أبيض ولا أسود ولا فقير ولا غنى الكل سواء (فكسر النبى ﷺ هذه الحدة، حدة البداية فأمره الله تعالى أن يُزَوِّج زينب رضى الله عنها لزيد بن حارثة رضى الله عنه حتى يفهم الناس جميعاً أن زينب القرشية الشريفة يتزوجها زيد بن حارثة وهو غير قرشى فلا طبقية فى الإسلام ولا قبائل الكُلُّ سواء). مادام هناك رِضىً فتزوجها رضى الله عنه، وحدث خلاف بينهما ... وليس قاعدة أن كل زواج يحدث فيه خلاف ولكن حدث خلاف بينهما. بقيت مشكلة أخرى. إذا طلقها زيد، فماذا يفعل النبى وقد أوحى الله إليه

بالزواج منهـا . . ؟ ! يقول تعالى : ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً (٣٧) ﴾ «الأحزاب:٣٧»هذه هى العلة ، العلة هى عدم مساواة الابن المتبنى بالابن من الصلب ، هذا ابن متبنى لا تنطبق الأحكام الخاصة بالابن من الصلب والابن الحقيقى . فتزوجها النبى ﷺ بأمر الله وبنص القرآن فأين الشهوة ؟ .

هل علمياً ونفسياً - ونسأل علماء النفس- هل يقدم الإنسان على زواج فيه إهدار لكرامته بين قبائله ومعارفه وإقلال شأنه ؟ إن الآية ترد بنفسها على هؤلاء ﴿ وتخفي فى نفسك ما الله مبديه ﴾أنت تخشى هذا ، لماذا تخشى هذا ؟ لأنه سيسىء إليك وتصبح عرضه للكلام والاتهام ونظر الناس إليك . فكيف يقدم شخص بهذه الصورة على هذا الزواج . إنه زواج مخيف ، زواج شديد على النفس . لو كان الأمر بالعكس - ، لو كان يحبها لفرح واغتنمها فرصة ذهبية عظيمة لقد طلقها زيد وأنا أولى بها .

إن الآية تُفصِّل الشعور النفسى وتبرزه أمام العقول وأمام الباحثين .

كيف يقدم رجل على زواج يسبب له هذه المشاكل ؟ وكيف يتغلب عليها أمام قومه وأمام الناس ؟ هذا شىء غريب .

﴿ وإذا تقول للذى أنعم الله وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك ﴾هذا كان توجيهًا .

﴿ وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس ﴾هذا هو الرد وتخشى الناس .

أبرز الله ذلك حتى يرد على العالم كله . يا علماء النفس يا علماء الدنيا ، كيف نتهم رجلاً فى زواج يخشاه ؟ ويكرهه ولا يتمناه ؟

إن الله ذكر هذه العبارة ، هذا التصوير النفسى الداخلى حتى يرد به على هؤلاء .

﴿ وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه ﴾ فى هذه المسألة .

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً (٣٧) ﴾ «الأحزاب: ٣٧» . زواجه ﷺ من ابنة عمته السيدة زينب بنت جحش يمثل فاصلاً كبيراً فى مجتمعات الأرض .

إذا أراد صاحب الدولة أو رئيس الأمة أو المسئول أن يأمر بشيء فإذا بدأ هو بنفسه أصبح سهلاً على بقية الناس . لأن النبى ﷺ هو الأسوة الحسنة وهو المرآة الصافية فربما يتحرج الناس بعد ذلك إذا لم يكن هناك فعْل منه ﷺ .

أما الفعل فهو الذى يميت المشاعر الخبيثة وهو الذى يقوى الإقدام الضعيف لأنه نبي قوى وفعل ذلك عنواناً على تطبيق هذه الأحكام وإلى تغيير صفة قديمة فى المجتمع فهو يبدأ بنفسه .

وهكذا نرى أن ﷺ عندما تزوج السيدة زينب بنت جحش رضى الله عنها كان فى اختبار نفسى شديد وكان فى وضع لا يُحْسد عليه .

فأين نسبية الشهوة هنا ؟ فى هذه القضية بالذات ؟

وفى هذه المسألة بعينها ؟

أين الرغبة وسط هذا كله

هناك أمر آخر .. زواجه ﷺ بالسيدة أم سلمة وكانت امراة قد قتل زوجها فى أحد ، معها ولدها سلمة ، ولا أحد يرغب فيها ثم ، تزوجها ﷺ حتى يراعى فيها وحدتها بعد أن تخلى الناس عنها ، ثم تنازلت عن ليلتها حباً فى سيدنا رسول الله ﷺ للسيدة عائشة رضى الله عنها .

وقالت يا رسول الله أنا لا رغبة لى فى ذلك فأحب أن أتنازل عن ليلتى فتنازلت . إذن

السيدة أم سلمة امرأة عجوز وتنازلت. إذا حللنا ذلك فأين الرغبة فى السيدة أم سلمة؟! أين الرغبة؟ ليس هناك رغبة.

والسيدة صفية بنت حُيىّ بن أخطب وهى من اليهود وكان أبوها من سادات اليهود ومن حكامهم. فلما أسرت اختارها ﷺ لغيره ثم تنازل غيره عنها، قال رسول الله أولى بها، فلما كانت أَمَة وغنيمة من الحرب ... أراد أن يظهر شأن الإسلام، فأعتقها ثم تزوجها فكان لذلك أثر كبير فى نفوس هؤلاء، وأسلم عدد كبير.

هذه هى سماحة الإسلام تتجلى فى ارتباطه بالسيدة صفية ارتباطًا له شأن. وكذلك زواجه بالسيدة حفصة بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنها.

وفى الختام نقول إن زواجه لم يكن من تلقاء نفسه وإنما كان بأمر من الله تعالى.

فهو الذى أمره فى هذه وفى هذه. ثم نرى القرآن الكريم يضع هؤلاء النسوة موضعاً لأنهن ينتسبن إلى النبي ﷺ.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً (٢٨) وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ هل يمكن فى هذا الخيار عقلاً أن يخترن الانفصال؟. لقد اخترن الله ورسوله فجاء أمر الله تعالى بعد هذا الاختيار ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (٣٠) وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا (٣١) يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفًا (٣٢) وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (٣٣) وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي

بُيُوتكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ .

بعد هذا أصبحن أمهات المؤمنين ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾ فأصبح سيدنا أبو بكر رضي الله عنه بدلاً من أن يقول لابنته يا ابنتى، أصبح يقف موقف الابن من أمه ويقول لها يا أماه.

وسيدنا عمر رضي الله عنه كان يقول لابنته السيدة حفصة رضى الله عنها فى بعض الأحيان يا ابنتي يا عدوة نفسك. ثم انتقل بعد هذه الآية إلى أن يقف موقف الولد من أمه ويقول بها يا أماه.

بعد هذا العدد بهذا التدرج وبعد هذه الأضواء التى علَّمنا القرآن إياها وأوقفتنا عندها السنة حتى نتبصر، نأتي إلى هذه الآية بعد هذا التدرج وبعد هذا الاختيار، نأتي إلى الآية التي تقول: ﴿ لا يحل لك النساء من بعد ﴾ انتهى الأمر. كان الزواج فى هذه الفترة الوجيزة وجاء الأمر بعد الحل. ﴿ لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن ﴾ ليس المراد العدد ولكن المراد هؤلاء النسوة.

يعنى لو أردت أن تتزوج أخرى حسنة فى نظرك على أن تطلق واحدة من هذا العدد لا يجوز لك ﴿ لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن ﴾ انتهى الأمر.

ثم لا شهوة للنساء كذلك لا يجوز لمسلم أن يتزوج أمه إطلاقاً فأصبحن أمهات المؤمنين. ﴿ وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً * إن ذلكم كان عند الله عظيماً ﴾

بهذا القدر أردنا أن نضع النبى ﷺ كما وضعه الله بقدره وبشرفه وبكماله لأنه الرسول الكامل، وهو مثال الكمال البشرى الذى كان المثل الأعلى فى إعطاء كل ذي حق حقه،

فلم يعش لنفسه ولم يعش لشهواته كما يقول الخبثاء والمنافقون، وكما يقول المدعون لإثارة نفوس المسلمين، فالاسلام يحاربهم فكرياً فى هذا الزمن والصراع قائم .

والمقصد من هذا كله هو التقليل من نظرة المسلم إلى نبيه، فإذا قل فى نظره وضعفت شخصيته كان من السهل أن يؤثر عليه، فهى بداية مقصودة، ولكن لم يصل إليها هؤلاء طيلة هذا الزمن، فكانت موجة قديمة من الموجات التى انتشرت فى العالم وتأثر بها المسلمون.

ثم أعادوا الكرة فى مجتمعات الشباب ونواديهم وفى مدارسهم وفى جماعاتهم وتأتى هذه الأسئلة: لماذا تزوج ﷺ بأكثر من واحدة؟ ثم تأتى النتيجة المباشرة لهذا التعدد أن الرسول ﷺ رجل شهوانى ورجل نساء، كما يقال عنه ﷺ هذه هى النتيجة التى تكون بعد السؤال مباشرة.

لماذا هذا العدد؟ لا إجابة، ويتحير الشباب ويتحير الناس.

فأردت أن أثير هذه المسائل أمامكم حتى تختلط عقولكم بها وحتى تدخل فى ثنايا العقل فتثبت.

ومن هنا نتحرر جميعاً من الأوهام التى يثيرها أعداء الإسلام، ومهمتنا فى هذا الوقت أن نتناول بين حين وآخر كل قضية من القضايا التى تشكك المسلمين فى دينهم. أو فى نبيهم أو فى شريعتهم كل ذلك لابد من طرحه لأننا فى زمن حرب.

* * *

الصلاة عليه حب يتجدد

سلام الله على الأنبياء

يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٥٦) ﴾.

«الأحزاب: ٥٦»

هذه الآية من أمهات التكريم لسيد الخلق ﷺ قد شمله الله تعالى بصنوف الود... وأنواع التودد.. وكرمه وعظمه.

وعندما ذكر هذه الآية شدنا شداً إلى كمال التكريم.

وقد وصل النبي ﷺ إلى مطلق الكمال البشرى، فلا بشر فوقه وإنما هى غاية العبودية وليس بعد ذلك إلا كمالات الألوهية. إذا استطلعنا حكمة "وسلموا" وكلمة "صلوا" فكلمة سلموا أولاً من السلام.. سلم يسلم تسليماً .. وفعل الأمر "سلم" للفرد وهذا السلام أى من الأمان.

والله تعالى قد كرم أنبياءه بأن سلم عليهم وأمَّنهم... ووصلوا إلى السلام.

يعنى "سلام" عليكم من غضبى .. وسلامٌ عليكم من عذابى. وسلام عليكم من سُخْطى.. وسلامُ عليكم من كل ما تكرهون وما أكره لكم.. وإنما عليكم الأمان كله حتى تلقوا ما تحبون وما أحب لكم فى دنياكم وفى آخرتكم.

وقد ذكر الله تعالى فى محكم الآيات كيف سلم على أنبيائه.

فيقول الله تعالى "﴿ سلام على نوح فى العالمين ﴾

﴿ سلام على إبراهيم ﴾ ﴿ سلام على موسى وهارون ﴾ ﴿ سلام على إل يس ﴾

ثم ذكر سيدنا يحيى عليه السلام أنه سُلِّم.. فذكر السلام نفسه فقال:

﴿ وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا ﴾ وسيدنا عيسى عليه السلام ذكر سلاماً خاصاً .. لأنه يحتاج إلى سلام من نوع جديد ... فلابد من سلام متجدد فى الأرض ويتنقل ذلك إلى السماء .. ويمتد ذلك إلى أن ينزل مرة أخرى إلى الأرض فيحتاج إلى سلام جديد ... وإلى أن يموت .

فجاء القرآن فقال : ﴿ والسلام علىّ ﴾

يعنى هذا السلام سلام خاص . وسلام له دقته وخاصيته لشأن سيدنا عيسى فى الأرض ولسأنه فى السماء .

الآية ... ﴿ والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً ذلك عيسى بن مريم ﴾.

بعد هذا هناك سلام على المؤمنين ... سلام على الصابرين إلى غير ذلك .

من السلام إلى الصلاة

﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٥٦) ﴾ . «الأحزاب:٥٦»

هنا الصلاة ... صلى . صلاة وفعل الأمر للمفرد صل والجماعة صلوا فالصلاة معناها اللغوى الدعاء صلّى على فلان أى دعا .

وفى الحقيقة الشرعية هى أفعال مخصوصة فى أوقات مخصوصة بنظام مخصوص مبتدأة بالتكبير ومختتمة بالتسليم .

ولكن الصلاة تزيد في المداومة .. مثلاً .. الله سلَّم على فلان ... انتهى .. سلم عليه وأمنَه ... المداومة المستمرة التى لا تنقطع .

ولذلك نجد أن الله تعالى لا يقبل عذراً فى الصلاة الشرعية بين العبد وبينه مادام مكلفاً .

لا عذر بالمرض .. لا عذر بفقد الماء.. ولا عذر للحرب كلٌ يصلى على قدر الطاقة وعلى حسب المقدرة..

ولا يُعْفَى الإنسان من الصلاة إلا عند الموت أو الجنون.

إذن الصلاة بمداومتها هى حقيقتها التى تريد أن ننظر منها وبها فى هذه الآية.

فنبينا ﷺ ارتفع إلى الصلاة أى المواصلة المستمرة التي لا تنقطع.

ولذلك عندما أراد الله تعالى أن يُسلِّم عليه... لم يسلم عليه كبقية الأنبياء فى الأرض وإنما سلم عليه عند اللقاء الخالد العظيم في ليلة المعراج فوق سبع سموات.

عندما قال: ﴿ التحيات لله والصلوات والطيبات ﴾.

فقال الله تعالى: ﴿ السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ﴾

فقال نبينا ﷺ: ﴿ السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ﴾

فقال نبينا ﷺ: ﴿ أشهد أن لا إله الا الله ﴾

فقال الله تعالى: ﴿ وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﴾

﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُل لاَّ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (١٩) ﴾. «الأنعام:١٩»

فهى الشهادة المطلقة كانت عقب هذا التسليم ولما جاءت هذه الآية لم تذكر شيئاً عن السلام لأن السلام شيء عابر وأدى نتيجته وحقيقته ولكن قال:

- انتقلت من السلام إلى الصلاة.

فلم يقل: إن الله وملائكته يسلمون

بل قال: ﴿ أن الله وملائكته يصلون على النبي ﴾

فذكر المواصلة والمداومة. وجاء بنون التوكيد "إن الله"

وجاء بالذات العليا فلم يقل: إن الرحمن.. حتى لا يشاركه من فيه رحمة.

ولم يقل:

- إن اللطيف... فالخلق فيهم لطف وفيهم رحمة.

ولم يقل:

- إن الملك .. حتى لا يشاركه ملك.

ولم يقل:

-إن الجبار.. حتى لا يشاركه جبار.

بل جاء باسم الذات انفراداً .. حتى يحدد التكريم.

يعنى... أنا وحدى الذي بدأت بهذه النعمة على عبدى.

(إن الله)

ثم نادى الله على أصفى ما خلق.. فلم ينادِ على الحيوان .. فلا يدرك هذا. ولم ينادِ على الجن .. ففيهم الآثم والعاصي.

وإنما نادى على أصفى خلقه.. الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴿ فيزدادون نوراً فوق نورهم.. فهم على نورانيتهم .. فنادهم إلى الصلاة فيزدادوا هم تكريماً ﴾.

عطاء رباني

﴿ إن الله وملائكته يصلون على النبى ﴾

- منذ متى هذه الصلاة؟

الفعل المضارع معناة المداومة.. ولم يقل: صلّوا. بل قال: يصلون، ولم يذكر البداية

البشرية، وإنما كانت الصلاة فى عالم الذّر من قبل صلاةً قديمة.

عندما اختار الله سبحانه وتعالى نور نبينا ﷺ وخلق منه روحه الشريفة... فبهذا بدأ ولذلك يقول ﷺ.

"لقد أُعطيت النبوة قبل خلق آدم بأربعة آلاف عام"

وفى حديث آخر...

.. أُعطيت النبوة وآدم بين الروح والجسد.. أى أن النبوة قديمة وجددت حيث وضع الله نوره فى ظهر آدم.

فالنبوة قديمة إذا كانت النبوة قبل خلق آدم بأربع آلاف عام..

فما بالك به وبروحه؟! إذن الصلاة قديمة ولم تكن بعد تكوين البشرية بل كانت من قبل.

﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي﴾

- وهنا جمال آخر.. وهو أن الله نسب الملائكة إليه

ولم يقل..

-إن الله والملائكة-

- بل جاء بذكر الذات العليا مرة أخرى فى الملائكة.

- ثم جمع نفسه مع الملائكة فى الأمر الثالث وهو الفعل المضارع "يصلون" فكرر الله نفسه حباً فى نبيه ثلاث مرات.

﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي﴾

- ولم يقل على محمد بل قال جمالاً ودلالاً وجلالاً: على النبى.

- فجاء بذكر الأمر الرابع.. فهل يكون نبياً إلا إذا نُبِّئ؟

ومن نَبَّأه؟؟ .. الله نبأه.

فذكر الله نفسه مرة رابعة ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ﴾ «الأحزاب -٥٦»

ولم يقل: على محمد.. كان يمكن ذلك ولكن كما نسب الملائكة إليه لم يرد أن يذكر عبده مجرداً منه بل أغدق عليه ربوبيته ورسالته حتى يكون العبد والرب في لفظ واحد وهو "النبي".

ولا يكون نبياً بغير نبوءة.. ولا تكون النبوءة إلا من الله.

﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ﴾ «الأحزاب -٥٦»

- وبعد ذلك لم يقل يا أيها الناس فيذكر الناس ذكراً مجرداً عن الله.. فذكر نفسه مرة خامسة .. فقال: ﴿ا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾. «الأحزاب -٥٦»

فاقتضى الأمر مؤمنون و مؤمَن به . والذى يُؤْمَن به هو الله.

فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ ﴾. «الأحزاب -٥٦»

كما صليت أنا وملائكتى . فأنا أناديكم لمشاركتنا فى شيء أحببته فدعوت أحبابى إليه فلبُّوا.

وأنا أديكم وأنتم مؤمنون أن تشاركونا فى هذا التكريم.. فجاء بالصلاة واختصه بها ثم قال: ﴿ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾ . «الأحزاب -٥٦»

أى وسلموا عليه تسليماً.. وسلموا أنفسكم تسليماً من البخل من الصلاة عليه.

الاستغفار والدعاء

- قال علماؤنا الكرام .. إن صلاة الله عليه رحمة.

وقد شعَّ من الرحمة رحمة .. فاقتبس نبينا رحمة.

فأصبح رحمة ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧) ﴾ «الأنبياء - ١٠٧»

إذن هي مواصلة .. لم تكن رحمة عابرة .. وإنما أراد أن يكون رحمة مطلقة في الأرض .. للعالم .. رحمة للعالمين.

ثم قال : ﴿ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨) ﴾ «التوبة -١٢٨»

فقالوا هي رحمة الله عليه . ورحمة الله عليه هي القرب الذى لا يتناهى والوصال الذى لا ينقطع.

- وصلاة الملائكة .. استغفار ... فالاستغفار .. أى طلب أسمى، هو مصدر كل شيء.

فغاية الوصول هو نوال المغفرة، فإذا حصلت المغفرة، حصل كل شيء بعدها فلذلك يقول الله تعالى : و﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ «آل عمران- ١٣٣»

﴿ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ «الحديد -٢٢»

لم يقل صلاة ولا صيام ولا شيء آخر.

أى الله أعطى نبينا كل أسباب الوصول إلى نوال هذا العطاء.

﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٧) ﴾. «غافر-٧»

- ولم يقل يدعون للذين آمنوا ، ولكن يستغفرون للذين آمنوا، أى يطلبون المغفرة للذين آمنوا، لأن الله يحب المغفرة..

فإذا أحب عبداً أنالها إياه.. فالمغفرة تُنيل العبد الجنة.

فإذا دخل الجنة يحتاج إلى مغفرة حتى يرى الذات العلية.

﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن

رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴾. «محمد-١٥»

إذن مغفرة الدنيا نالوا بها الجنة ..ومغفرة الآخرة نالوا بها رؤية ربهم.

- فاستغفار الملائكة .. طلب من الحق .. أن يتجلى الحق على نبيهم بدوام القرب والمشاهدة.

إذن هنا .. صلاة الله رحمة .. غاية الرحمة هى الحق.

استغفار الملائكة غايتها الحق.. ورؤية الله.

- صلاة الناس وفيها الكلام .. هى دعاء لنبينا ﷺ لينال ذلك أيضاً.

فقال ﷺ: "سلوا الله لى الوسيلة"

فقالوا: وما الوسيلة يا رسول الله؟

فقال: مقام واحد .. خلقه الله لواحد.. وأرجو أن أكون ذلك الواحد.

- وهل هذا المقام الأوحد إلا مقام القرب إلى الحق؟

فالآية فيها الخيوط الثلاثة.. والخيوط الثلاثة توصل إلى معنى واحد وهى أن يكون هناك الله ومحمد.

- سُئل نبينا ﷺ عن هذه الآية فقال:

"لولا أنكم سألتمونى ما أجبت.. إنها من العلم المكنون.

- ثم قيل له: يا رسول الله عرفنا كيف نسلم عليك. فكيف نصلى عليك؟

فقال: "قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم فى العالمين إنك حميد مجيد".

وفاءً لدعوته

وهنا سؤال يفرض نفسه..

لم اختص سيدنا إبراهيم عليه السلام؟

- حتى نكون أمة وَفِيّةٌ لصاحب نعمة علينا .. فهو الذى دعا الله أن يرزقنا بسيدنا محمد ﷺ.

فلما أتم بناء البيت قال: ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٢٩) ﴾. «البقرة - ١٢٩»

- وعندما رآه النبى ﷺ فى ليلة المعراج وقد أسند ظهره على البيت المعمور قال:

- يا محمد أقرئ أمتك منى السلام. (وهو الوحيد الذى قال ذلك. فلذلك أراد الله أن توفى الأمة هذا الحق).

- أقرئ أمتك منى السلام. وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة عذبة الماء. غراسُها... سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم. وأوصاه بالحجامة إلى غير ذلك.

مقامات الحب والإجابة

بعد ذلك نعيش فى هذا المدد وهو مدد مفتوح. وعطاء ممدود وفتح لا يغلق. ومنّة لا تنقطع.

- يقول ﷺ:

-إن الله تعالى وكّل ملكين كريمين فما مسلم يصلى علىَّ إلا قال عند ذلك الملكان: اللهم صل عليه:

- ويقول النبى ﷺ:

من صلى عليَّ صلى الله عليه.

ومن صلى الله عليه لا يبقى شيء في السموات السبع ولا في الأرضين السبع ولا في البحار السبع.. ولا في الجبال والنبات ولا الأوراق ولا الأشجار ألا وصلى عليه.

وقَدِمَ النبي ﷺ على سيدنا عبد الرحمن بن عوف ثم تركه وسجد سجدة طويلة ... ظن سيدنا عبد الرحمن بن عوف أنه فارق الحياة: فلما انتهى قال الرسول: من؟... قال: عبد الرحمن بن عوف.

قال: إن جبريل أتاني الآن فأخبرني.

وقال لي: إن الله يقرؤك السلام ويقول لك: من صلى عليك صليت عليه ومن سلم عليك سلمت عليه.

إذن هذا النوال بهذه الصلاة شيء مدهش.

فهو صفاء الله تعالى يعطيه لخلقه بسبب نبيه ﷺ ويوالى ذلك.

فمن أراد أن يحاسب الله بالعدد.. فالعدَّاد موجود.

- من صلى عليَّ صلاة واحدة صلى الله عليه عشرا.

من صلى عليَّ عشراً صلى الله عليه بها مائة.

من صلى عليَّ مائة صلى الله عليه بها ألفاً.

من صلى عليَّ ألفاً حرم الله جسده على النار.

هذا لمن أراد أن يعامل بالعدد والحساب.

- أما من أراد الاستغراق وأن يعامل بلا حساب فقد كشف الغطاء وترك العدَّ للحقِّ ليعطى كما يريد.

- من صلى عليَّ عشراً صلى الله عليه بها مائة.

- من صلى عليّ مائة صلى الله عليه بها ألفاً.

- ومن ازداد صبابة وشوقاً زاحمت كتفي كتفه فى دخول الجنة.

فالصلاة بالعدد لها حدّ. والصلاة بغير عدد لا حد لها.

- يقول ﷺ فى مقام آخر لمن أراد أن يناله.

قال ﷺ:

- من صلى عليّ عقب الآذان والإقامة وجبت له شفاعتى.

- ومن أراد الرضا فليكثر من الصلاة عليّ.

وفى الحديث الصحيح.

لم يبقَ من الليل إلا الثلث الأخير فقام نبينا ﷺ فقال: "يا أيها الناس جاءت الراجفة تتبعها الرادفة فأكثروا من الصلاة عليّ"

فقال أحد الصحابة:

أنا أكثر من الصلاة عليك فأصلى عليك ثلثاً أي ثلث وقت عبادتى ليلاً فهل هذا يكفى؟

قال: هذا خير.. وإن زدت فهو خير. فقال: لك نصف الصلاة.

فقال: ما زدت فهو خير فقال: لك الثلثان.

فقال: ما زدت فهو خير

فقال: إذن أجعل كل وقتى صلاةً عليك.

فقال ﷺ: "إذن تُكْفى غَمَّك ويُغْفر لك ذنبك"

مقام الحب

يقول النبي ﷺ :

- من أراد أن يكون حبيباً للحبيب فليكثر من الصلاة على الحبيب.

مقام الإجابة

يقول نبينا ﷺ :

"من كان له عند الله حاجة. فليصلِّ عليَّ ثم ليسأل الله حاجته فإن الله يستحى أن يقبل واحدة ويرد الأخرى".

وفى حديث آخر: من كانت له عند الله حاجة فليصل عليَّ ثم ليسأل الله حاجته ثم يصلِ على .. فإن الله يستحى أن يرد ما بين الصلاتين.

- وقال ﷺ :

"من أصابه الكرب أو اصابته شدة فليكثر من الصلاة عليَّ فإن الصلاة على تفرج الكرب، وتكشف الهم فى الآخرة"

ويقول نبينا ﷺ : "واحد على الصراط قد ارتعد كما ترتعد السعفة (النخلة) فجاءت صلاته عليَّ فأمنت روعه وأخذت بيده إلى الجنة"

فالصلاة عليه نعمة فى الدنيا ونعمة فى الآخرة.

يوم الصلة بيننا وبينه ﷺ

- ثم نأتى إلى يوم الجمعة ... أَحَبُّ الأوقات إلى النبى ﷺ أن يكثر العبد الصلاة عليه فى هذا اليوم.

يقول ﷺ : "يوم الجمعة خير يوم طلعت فيه الشمس .. فيه خلق آدم وفيه أدخله الله الجنة. وفيه أهبطه إلى الأرض وفيه قبضه. وفيه يُنْفخ فى الصور. وفيه تُبعثون. فإذا كان

يوم الجمعة فأكثروا فيه من الصلاة عليّ فإن صلاتكم على تبلغنى" .

فقالوا يا رسول الله كيف تبلغك وقد أرمت؟ (بليت) .

فقال ﷺ : "إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء" .

فالصلاة عليه فى هذا اليوم هى وصال وقرب إليه، وفى نفس الوقت هى قرب من الله سبحانه وتعالى .

وإذا كان الأمر كذلك فلابد من شيء هام ليكون كذلك .

الصلاة عليه جمال العد . . فالشيء المجمل لابد وأن يكون قوياً حتى يبقى الجمال وحتى تبقى الزينة .

فالحائط البالى لا يبقى الدهان عليه . وإذا أتينا بنجفة وكان السقف هشاً فالنجفة تأخذ هذا وتقع وتتهشَّم . فأساس ذلك أن يكون العبد على صلة قوية بالله لأنها هى الأساس .

لأن الصلاة عليه مددٌ وعطاء . . وكيف أطلب مدداً بلا أساس .

وكيف نرضي نبينا بالصلاة عليه . . ونغضب الحق الذى يقبل هذه الصلاة فالدائرة لا تكمل إلا بهذين الأمرين .

– أن يسير الاتباع والصلاة معاً، كقضيبى السكة الحديد لا يسير القطار إلا بهما . فإذا أزيل واحد انقلب القطار وضاع ما فيه .

فالصلاة عليه هى حبُ فيه . . . وما أحببناه إلا لنصل إلى الله.

فيقول الله تعالى : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم ﴾

صيغ من الصلاة عليه

- اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد النبى الأميّ وعلى آله وصحبه وسلم.

- اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد على قدر حبك فيه. وفرج الكرب الذى أنا فيه.

- اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد صلاة تفتح لنا بها أبواب الخير والتيسير وتغلق بها عنا أبواب الشر والتعسير.

- اللهم صلِّ صلاة كاملة وسلم سلاماً تاماً على سيدنا محمد الذي تنحل به العقد.. وتنفرج به الكُرَب... وتُقْضى به الحوائج .. وتُنَال به الرغائب وحسن الخواتيم ويُسْتسقى الغمام بوجهه الكريم وعلى آله وصحبه بعدد كل معلوم لك يا الله يا حيّ يا قيوم.

- اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد صلاة تنجينا بها من ظلمات الوهم. وتكرمنا بها بنور الفهم وتوضح لي ما أشكل عليَّ حتى يُفهم فإنك تعلم ولا أعلم فإنك أنت عَّلام الغيوب.

- اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد النور الذاتى والسر السارى فى سائر الأسماء والصفات.

- اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله كَمَا لا نهايةَ لكمالك.

اللهم صلّ على الذات المحمدية اللطيفة الأحدية شمس سماء الأسرار ومظهر الأنوار ومركز مدار الجلال، وقطب فلك الجمال. اللهم بسره لديك وبِسَيْره إليك آمِنْ خوفي وأَقِلْ عَثْرتي وأَذْهِبْ حَزَني وحرصي وكن لي وخذني إليك مني وارزقني الفناء عني ولا تجعلني مفتوناً بنفسي محجوباً بحسي واكشف لي عن كل سر مكتوم يا الله ياحيّ يا قيوم.

الصلاة جامعة بين الله وحبيبه ﷺ

فى أول الصلاة (الله أكبر) وأنت واقف.. ختام صلاتك كما بُدأ بالله يختم بمحمد. فتصلى عليه وأنت جالس.

فجمعت الصلاة بين الله وبين رسوله.

اللهم صل على محمد وعلى آل محمد إلى آخر التشهد

وبذلك ندرك تماماً أن الله تعالى وضع نبيه ووضع الصلاة عليه فى أجمل شىء بحبه وهو الصلاة.

"وأقم الصلاة لذكرى"

فإذا كانت الصلاة لذكر الله فقد ختمها بذكر رسول الله... حتى نجمع بين الخيرين.

والله أعلم.

صفاته وأخلاقه وشمائله

فى رحاب رسول الله ﷺ تقف البشرية كلها تستمد كمالها وشرفها وترى إنسانيتها وعزّها.

فهو المصطفى المجتبى ﷺ وهو المختار المعصوم ﷺ الأمين على الرسالة، الصادق فى تبليغها، الحريص على أمته الرؤوف بأحوالهم فهو أولى بالمؤمنين من أنفسهم، الرحيم بهم الرحمة للعالمين.

فهو دعوة أبيه إبراهيم عليه السلام، وهو الرحمة المهداة مع مدد الله فيه وعطاء الله له، ووحى الله إليه، يستمد العالم من حياته الطاهرة ووجوده النقى، فهو صاحب الخلق الجامع الذى حوى كل صفة جليلة ومعنى جلّى فكان حقا كما وصفه خالقه وباعثه:

﴿ **وإنك لعلى خلق عظيم** ﴾ «القلم: ٤».

وكان حيث أعطاه، فأعطاه الكثير: ﴿ **إنا أعطيناك الكوثر** ﴾ «الكوثر: ١»

وكان حيث يعطيه فيرضى: ﴿ **ولسوف يعطيك ربك فترضى** ﴾ «الضحى: ٥».

فهو حركة الهدى ونور الصراط، وجمال الشريعة، هو القرآن خُلُقاً، والإبداع خَلْقاً، والإيمان يقيناً، والإسلام حقاً.

هو سيد ولد آدم على الإطلاق.

محمد سيد الكونين والثقلين ... والفريقين من عُرْبٍ ومن عَجَمِ

نبينا الآمر الناهى فلا أحد ... أبرَّ فى قول "لا" منه ولا نَعمِ

فمبلغ العلم فيه أنه بشرٌ ... وأنه خير خلق الله كلهم

(بردة المديح - الإمام البوصيرى)

والكلام فى هذه الذات الكريمة والصفات المجيدة، لا يستطيعه أى لسان، ولا يدركه أى بيان، إنما هو مولاه الذى تولاه خلقاً وخلقاً، وأدباً وعلماً، فما وراء ذلك إلا الوحى فى القول والفعل والتقدير والهم والعزم والسكوت.

﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (١٠٩) قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠) ﴾ «الكهف: ١٠٩-١١٠».

فهو البشر الموحى إليه، وهو المثال الذى تمثلت فيه بصدق عناية ربه ورعاية مولاه.

فحقاً ما تراه الخلائق فيه، وأسوة خَلْقاً وأدباً وخُلُقاً.

ويحدث ﷺ فيقول: «أدبنى ربى فأحسن تأديبى، أدبنى ربى تأديباً حسناً».

نسب رسول الله ﷺ

نسبه الشريف

وقد حافظ الله على الرسول الكريم ﷺ نسباً وشرفاً ، أباً وأماً.

فقال فى ذلك: ﴿ وتقلبك فى الساجدين ﴾.

وقال صلوات الله وسلامه عليه: «ولدت من نكاح ولم أولد من سفاح. من لدن آدم إلى أن ولدنى أبى وأمى، ولم يصبنى من سفاح الجاهلية شىء، لم يصبنى إلا نكاح الإسلام، فأنا خيار من خيار من خيار».

فهو سلالة الطيبين الطاهرين.. ونتيجة الكرام الموحدين.

محمد بم عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى بن كلاب بن مُرَة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فِهْر بن مالك بن النَضْر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن

إلياس بن مُضَر بن نزار بن معد بن عدنان بن إسماعيل بن إبراهيم عليهما الصلاة والسلام ﷺ.

وأمه السيدة آمنه بنت وهب سيد بنى زهرة وينتهى نسبه الشريف إلى سيدنا إسماعيل عليه السلام النبى الرسول الصادق الوعد ﴿ **واذكر فى الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبياً** ﴾ «مريم: ٥٤».

وهو ابن سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿ **إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٢١)** ﴾ «النحل ١٢٠-١٢١».

فسبحانك ربى اخترت واصْطَفَيْت. ﴿ **وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٨)** ﴾ «القصص: ٦٨».

خَلْقه الشريف ﷺ :

فإذا ذكرت شمائله ذُكر الله ... وإذا ذكرت محامده ذكر الله
وأذا ذكر فى دنيـاه ذكر الله ... وإذا ذكر فى أخـراه ذُكرَ الله

وعلى بركة الله تعالى نبدأ الحديث فى خلقه الشريف ﷺ.

أخبرنا أبو رجاء قتيبة بن سعيد عن مالك بن أنس عن ربيعة بن أبى عبد الرحمن عن أنس بن مالك أنه سمعه يقول: كان رسول الله ﷺ ليس بالطويل البائن ولا بالقصير أى هو المتوسط بين الطويل والقصير.

ولا بالأبيض الأمهق (أى ليس شديد البياض خالياً من الحمرة والنور) بل بياضه ﷺ كل نيراً مشرباً بحمرة . أزهر اللون ولا بالآدم (أى ليس بشديد السمرة).

ولا بالجعد القَطَطَ ولا بالسبط. أى شعره ﷺ ليس ملتوياً على بعضه منقبضاً ولا مسترسلاً، سهلاً لا التواء فيه، فهو وسط بين الجعودة والسبوطة.

بعثه الله على رأس أربعين سنة فأقام فى مكة ثلاث عشرة سنة وبالمدينة عشر سنين، وتوفاه الله على رأس ستين سنة وليس فى رأسه عشرون شعرة بيضاء. ولما بدأ الشيب بالظهور قيل له: يا رسول الله نراك قد شبت.

قال ﷺ «شيبتنى هود وأخواتها».

ويقول العلماء فى ذلك وحكمة قلة شيبه ﷺ مع ما جاء فى فضل الشيب هو استبقاء نضرته وشبابه ورونقه.

وفى أحديث آخر يوصف فيه ﷺ بالصفات الماضية مع إضافات أخرى نزداد بها علماً ووضوحاً لما جمع الله فيه من المحاسن كلها:

حدثنا حميد بن مسْعَدَة البصرى، حدثنا عبد الوهاب الثقفى عن حميد عن أنس بن مالك قال: كان رسول الله ﷺ رَبعَةَ، أى متوسط بين الطول والقصر. حسن الجسم أى هو متناسب الأعضاء جميل الهيئة.

وكان شعره ليس بجعد ولا سَبْط، أسمر اللون، أى سمرة بحمرة تخالط البياض فى وجهه وما ظهر من جسمه. وإذا مشى يتكفأ، أى مسرع فى مشيته، أى مشية أهل العزم والهِّمة والإقدام.

حدثنا محمد بن بشار يعنى العبدى، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شبعة عن أبى إسحاق قال: سمعت البراء بن عازب يقول:

كان رسول الله ﷺ رجلاً مربوعاً، أى كامل الرجول، وسط الطول - بعيد ما بين المنكبين أى عريض أعلى الظهر وعريض الصدر، عظيم الجمة إلى شحمة أذنيه (والجمة هى ما سقط من شعر الرأس ووصل إلى المنكبين) وهو أعلى الظهر أو تدلى إلى شحمة الأذنين.

عليه حلة حمراء، أى ثوب له ظهارة وبطانة، ما رأيت شيئاً قط أحسن منه. فهو ﷺ أحسن من كل شيء.

وقد جمع الله فيه من مظاهر الجمال والمحاسن الخلقية من مهده الشريف إلى نهاية عمره المبارك ﷺ.

وهكذا نأتي إلى حديث بعد حديث حتى تكتمل المعانى الربانية فى سيد البرية ﷺ.

حدثنا محمود غيلان قال: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان عن أبى إسحاق عن البراء عن عازب قال: ما رأيت من ذى لِمّة (أى صاحب شعر نزل إلى الأذنين) فى حلّة حمراء أحسن من رسول الله ﷺ، له شعر يضرب منكبيه أى يصل إلى أعلى ظهره، بعيد ما بين المنكبين أى عريض أعلى الظهر، وأيضاً عريض الصدر، لم يكن بالقصير ولا بالطويل.

حدثنا محمد بن إسماعيل أبو معين، حدثنا المسعودى عن عثمان بن مسلم بن هرمز عن نافع بن جبير بن مطعم عن على بن أبى طالب قال: لم يكن النبى ﷺ بالطويل ولا بالقصير شثن الكفين والقدمين (أى غليظ أصابع الكفين والقدمين).

ورد فى ذلك أن كفه ﷺ كانت ممتلئة اللحم غير أنها كانت لينة.

كما جاء فى حديث أنس رضي الله عنه: ما مسست خزا ولا حريراً ألين من كف رسول الله ﷺ ضخم الكراديس أى متين بناء الجسم، قوى الأعضاء، عظيم البنية، طويل المسربة (أى له شعر دقيق ممتد من الصدر إلى السرة) إذا مشى تكفأ كأنما ينحط من صبب (أى يسرع فى مشيته كأنما يميل يمنة ويسرة كأنما ينزل من موقع منحدر) لم أر قبله ولا بعد مثله.

وهذا ما يجب اعتقاده فى رسول الله ﷺ أن الله قد خلق بدنه الشريف على الوجه الأكمل، لم يكن ذلك لأحد قبله ولا بعده صلوات الله وسلامه عليه. حدثنا سفيان بن وكيع حدثنا أبى عن المسعودى بهذا الإسناد نحوه بمعناه.

حدثنا أحمد بن عَبْدَة الضبِّى البصرى وعلى بن حجر وأبو جعفر محمد بن الحسين وهو ابن أبى حليمة (والمعنى واحد).

حدثنا عيسى بن يونس عن عمر بن عبد الله مولى غفرة. قال: حدثنى إبراهيم بن محمد من ولد على بن أبى طالب رضي الله عنه قال: كان علِّى إذا وصف رسول الله ﷺ قال: لم يكن رسول الله ﷺ بالطويل الُممَغَّط (أى المتناهى فى الطول) ولا بالقصير المتردد (أى المتناهى فى القصر) كان رَبْعَة من القوم (أى هو متوسط الطول)، ولم يكن بالجعْد القَطَط ولا بالسَبْط. كان جعداً رَجلاً (أى شعره ﷺ وسط بين الجعودة والسبوطة كما سبق). ولم يكن بالمطَهَّم (أى لم يكن منتفخ الوجه عبوساً من السمنة) ولا بالمكلثم (أى مدور الوجه غاية التدوير) وكان فى وجهه تدوير أى بعض التدوير. ولم يكن مستديراً كل الاستدارة. أبيض مشرب، أى بحمرة.

أدعج العينين (أى شديد سواد حدقتهما مع سعة العين وشدة بياض بياضهما) فهو ﷺ شديد بياض البياض وشديد سواد السواد. أهدب الأشفار (أى طويل شعر الأشفار وحرف جفن العين)، جليل المشاسن، أى قوى رؤوس العظام، متين المفاصل، عظيم فى جمع كتفيه. وهذا يدل على منتهى القوة وشجاعته ﷺ.

أجرد أى غير أشعر فى المواضع التى ليس بها شعر، ذو مسربة أي ذو شعر دقيق من البطن إلى السرة.

شثن الكفين والقدمين. أى غليظ الكفين والقدمين مع النعومة. إذا مشى تقلع كأنما ينحط من صبب أى يسرع فى مشيته، وإذا التفت التفتت معه أى التفت كله لا يلوى عنقه فقط يمنة ويسرة وهذا من كمال الاتزان، وكذا يدل على اهتمامه بشأن من يلتفت إليه وهذا من جلاله وهيبته ﷺ.

برهان النبوة

بين كتفيه خاتم النبوة، وهو قطعة لحم كانت بارزة بين كتفيه ﷺ بقدر بيضة الحمامة تقريباً.

وكان ﷺ منعوتاً به في التوارة والإنجيل فهو علامة على نبوته أجود الناس صدراً، أى كان كريماً كرماً هو فيه أجود من السحب المرسلة فلا يضيق بأصحاب الحاجات ولا يمل منهم بل هو واسع الصدر، طيب القلب، حليم الطبع، وأصدق الناس لهجاً، أى أصدق الناس حديثاً، فيستحيل عليه الكذب ﷺ، وألينهم عريكة، أى كان متواضعاً ليناً خافضاً للجناح لمن اتبعه من المؤمنين فى غير تهاون فى الخلق ولا جبن في الحرب ولا خوف إذا انتهكت حرمات الله وأكرمهم عشرة، أى كريم الصحبة طيب الأصل، من رآه بديهة هابه، أى من رآه أَجَلَّه وعظَّمه لجلالته ومهابته وفخامته ﷺ.

ومن خالطه معرفة أحبه لكمال خلقه وفريد رأفته ورحمته لأنهم رأوا فيه أنه أولى بهم من أنفسهم. يقول ناعته، لم أر قبله ولا بعده مثله.

مازلنا فى أنوار الشمائل المحمدية التى تصف خلق الله لهذه الذات الشريفة وما أظهره الله تعالى فيها سبحانه هو الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى.

حدثنا سفيان بن وكيع قال: حدثنا جميع بن عمر بن عبد الرحيم العجلى إملاءً علينا من كتابه قال: حدثنا رجل من بنى تميم من ولد أبى هالة زوج خديجة يكنى أبا عبد الله بن أبى هالة عن الحسن بن على رضى الله عنهما قال: سألت خالى عبد الله بن أبى هالة، وكان وصافاً عن حلْية النبى ﷺ أى عن هيئته وصورته وصفته وأنا أشتهى أن يصف لى منها شيئاً أتعلق به أي تعلق علم ومعرفة. لأن الحسن رضي الله عنه قد فارقه رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى وهو فى سن صغيرة.

فقال: كان رسول الله فخماً مفخَّماً أى عظيم الشأن نفسه، مُعَظَّماً فى صدور الناس وأعينهم. يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر، أى أنه ﷺ مشرق الطلعة بَهى الهيئة يُرَى فى وجهه نور ربه وهدى مولاه. أطول من المربوع وأقصر من الُشَذَّب، فهو ﷺ كما سبق بيانه، مائل إلى الطول طولاً غير بائن.

عظيم الهامة أنه ﷺ كبير الرأس. رَجْل الشعر، أى فى شعره تَكَسُّر وتَثَنٍّ قليل، إذا انفرقت عقيقته فرقها وإلا فلا، أى إن انفرق شعره فرقه عن يمينه وشماله وإن لم يقبل الفرق فلا يفرق بل يُسْدِلُهُ، أى يرسل شعره على جبينه يجاوز شعره شحمة أذنيه إذا هو وفَّره، أى إذا هو تركه نزل على أذنيه أزهر اللون، أى أبيض بياضاً نيراً مشربًا بحمرة. واسع الجبين، أى ممتد الجبهة طولاً وعرضاً وهى كناية عن طلاقة الوجه، أزَجُّ الحواجب، أى مقوس الحواجب كالنون المقلوبة، (والحاجب الأَزَجُّ هو الطويل الدقيق المستوى) سوابغ بغير قرن أى تواصل بغير اتصال حاجب بالآخر، فكل حاجب مستقل لا يلتقى طرفاهما بينهما عرق يدره الغضب، (أى بين الحاجبين عرق يحركه ويظهره الغضب ويصيره ممتلئاً دماً ينبض دلالة على كمال قوته الغضبية فهو ﷺ لايغضب إلا لله.

أقن العِرْنين أى طويل قصبة الأنف، دقيق أرنبته وفى وسط أنفه حدب ليس بأفطس ولا أشم.

له نور يعلوه يحسبه من لم يتأمله أشَم، أى الرائى له ﷺ يظنه أشم الأنف أي مرتفع قصبة الأنف، ولو أمعن النظر لحكم أنه غير أشَم أى معتدل الأنف. كث اللحية، أى كثير شعرها. سهل الخدين، أى هو غير مرتفع الخدين وذلك أغلى وأجمل. ضليع الفم، أى عظيمة وواسعة.

مفلج الأسنان أى منفرجها. وقال ابن عباس رضي الله عنهما ؟

أفلج الثنيتين إذا تكلم رُئى كالنور يخرج من بين ثناياه ﷺ .

دقيق المسربة، وهو الشعر الدقيق من الصدر إلى السُّرَّة، كأن عنقه جيد دمية فى صفاء الفضة .

فعنقه الشريف ﷺ مستوى الطول والاعتدال طريف الشكل حسن الهيئة، أبيض الرقبة بياضاً فى غاية الصفاء كالفضة .

معتدل الخلق أى جميع أعضائه ﷺ متناسبة متناسقة .

بادن أى سمين سمناً معتدلاً، فليس بالسمين جداً ولا بالنحيف جداً متماسك أى غير مسترخ سواء البطن والصدر أى بطنه وصدره مستويان فلا ينتأ بطنه على صدره، ولا صدره على بطنه .

عريض الصدر أى رحب الصدر، عريض ما بين المنكبين أى عريض أعلى الظهر، عريض الصدر . ضخم الكراديس أى عظيم رؤوس العظام . أنورُ متجرد، أى ناصع اللون . نيِّر العضو موصول ما بين اللُّبَّه والسرة بشعر يجرى كالخط .

أى أن شعره كالخيط ما بين النقرة فى عنقه والسُّرَّة فى بطنه . وهو مستقيم الامتداد . دقيق الشعر، عارى الثديين والبطن . أى خاليهما من الشعر ما سوى ذلك . أى سوى محل الشعر المذكور ما بين النقرة والسُّرَّة .

أشعر الذراعين والمنكبين وأعالى الصدر، أى كثير شعر هذا المواضع الثلاثة فشعرها كثير وغزير وطويل .

طويل الزندين وهو من الذراع مما يلى الكف والمرفق مما يلى العضد .

رحب الراحة . أى واسع الكف .

شثن الكفين والقدمين أي غليظ الكفين والقدمين مع النعومة .

سائل الاطراف، أى طويل الأصابع ممتدها، ليست بمتعقدة ولا متكسرة أو قال شائل الأطراف والمعنى واحد.

خُمْصان الأُخْمُصَين، أى ضامر بطن القدمين، أى وسط قدميه مرتفع عن الأرض.

مسيح القدمين. أى أملسها ليس فيهما تكسُّر ولا تشقق ينبو عنها الماء، أى إذا صب على قدميه الماء فإنه يمر سريعاً، إذا زال زال قلعاً. أى إذا مشى وانتقل من مكان إلى مكان يرفع رجليه بقوة كأنما يقلع شيئاً من الأرض ﷺ يخطو تكفياً كالسفينة فى جريها ويمشى هوناً، أى برفق سواء كان مجداً فى مشيه أو غيرذلك.

وهذا مظهر وقاره وحلمه وتواضعه ﷺ.

ذريع المشية، واسع الخطوة، خلق لا تكلف فيه، إذا مشى كأنه ينحط من خبب أى كأنه ينزل من موضع منحدر.

إذا التفت التفت جميعاً أى بجميع أجزاء جسمه كهيئته الشريفة ﷺ وأدبه الجم فى كل أحواله. خافض الطرف أى خافض البصر، شأن المتأمل المتدبر المشتغل بمولاه،

نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء، وهذا دليل على حيائه وخوفه وخشوعه، جُلّ نظره الملاحظة أى معظم نظره بلحاظ العين وهو طرفها. يسوق أصحابه أى يمشى خلفهم كالمربى لهم الملاحظ أحوالهم،ويبتدر من لقى بالسلام، أى يسبق من لقيه بالسلام والتحية. وبذلك من كمال أخلاقه ﷺ.

ما زال الحديث فى شمائلة ﷺ نوراً وعلماً وخلقاً وهداية.

حدثنا قتيبة ب سعيد قال: أخبرنى الليث بن سعد عن أبى الزهير عن جابر بن عبد الله.

أن رسول الله ﷺ قال: «عرض علىّ الأنبياء، أى ليلة الإسراء والمعراج فى بيت

المقدس على صورهم الحقيقية التى كانوا عليها فى الدنيا».

فسبحان من أحياهم تكريماً لحبيبه المصطفى ﷺ واحتفاءً بمقدمه الشريف فى هذه الليلة المباركة.

وهذا دليل من أدلة فضله على جميع الأنبياء والمرسلين وعلى جميع الخلائق عامة ﷺ: فإذا موسى عليه السلام ضرب من الرجال كأنه من رجال شنوءة. أراد النبى ﷺ أن يصف موسى عليه السلام فشبهه برجال شنوءة وهى قبيلة مشهورة باليمن. رجالها متوسطون بين السمنة والخفة وهم طوال.

ورأيت عيسى ابن مريم عليه السلام فإذا أقرب من رأيت شبهاً، عروة بن مسعود رضي الله عنه وعروة قد أسلم سنة تسع من الهجرة. ورأيت إبراهيم عليه السلام، فإذا أقرب من رأيت شبهاً صاحبكم، يعنى نفسه ﷺ، «أنا أشبه ولد إبراهيم به». ورأيت جبريل عليه السلام فإذا أقرب من رأيت شبهاً دَحْية. ودحية رضي الله عنه هو دحية بن خليفة الكلبى، وكان جبريل عليه السلام يأتى رسول الله ﷺ فى صورة دحية لما كان من جماله وكماله ومكانته عند رسول الله ﷺ وعند إخوانه.

خاتم النبوة

ننتقل بعد ذلك إلى خاتم النبوة الذى كان بين كتفيه ﷺ.

وهو مكتوب بقدرة الله علامة على نبوته وصدق رسالته صلوات الله وسلامه عليه.

حدثنا أبو رجاء قتيبة بن سعيد حدثنا حاتم بن إسماعيل عن الجعد بن عبد الرحمن قال: سمعت السائب بن يزيد قال: ذهبت بى خالتى إلى النبى ﷺ فقالت: يا رسول الله إن ابن أختى وَجِع (أى مريض) فمسح على رسول الله ﷺ ودعا لى بالبركة أى الزيادة. يقول الجعد رضي الله عنه فى ذلك:

رأيت ابن يزيد وهو ابن أربعة وتسعين عاماً معتدلاً . وقال له يزيد قد علمت أنى ما تمتعت بسمعى وبصرى إلا ببركة دعاء النبى ﷺ . وتوضأ فشربت من وضوئه ، أى من الماء الذى كان يتوضأ منه ، وقيل من الماء الذى كان ينفصل من أعضائه الشريفة ﷺ وكنت خلفه ظهره فنظرت إلى الخاتم بين.كتفيه . فإذا هو مثل ذر الحجلة ، أى رأى الخاتم بين كتفيه ﷺ مثل بيض طائر يسمى بالحجلة .

حدثنا سعيد بن يعقوب الطالقانى . أخبرنا أيوب بن جابر عن سماك بن حرب عن جابر بن سمرة قال : رأيت الخاتم بين كتفى رسول الله ﷺ غدة حمراء مثل بيض الحمامة .

فهذا حديث آخر يبين شأن خاتم النبوة الشريف وهو قطعة لحم بارزة بين كتفيه ﷺ وقدرها مثل البيضة الصغيرة كبيضة الحمامة أو ما يشبهها حجماً .

حدثنا محمد بن بشار حدثنا أبو عاصم . حدثنا عذرة بن ثابت حدثنى علبا بن أحمر اليشكرى قال : حدثنى أبو زيد عمرو بن أخطب الأنصارى قال : قال لى رسول الله ﷺ يا أبا زيد ، ادن منى فامسح ظهرى ، فمسحت ظهره فوقعت أصابعى على الخاتم قلت . وما الخاتم ؟ قال : شعرات مجتمعات .

وهذا تأكيد صحيح لخاتم النبوة الشريف بين كتفيه ﷺ .

حدثنا أحمد بن المقدام أبو الأشعث العجلى البصرى حدثنا خماد بن زيد عن عاصم الأحول عن عبد الله بن سرجس قال : أتيت رسول الله ﷺ وهو فى ناس من أصحابه فدرت هكذا من خلفه . فعرف الذى أريد . أى عرف الرسول ﷺ أننى أريد رؤية الخاتم الشريف فألقى الرداء عن ظهره فرأيت موضع الخاتم على كتفه ، مثل الجُمْع حولها خُيَلاَن . كأنها ثليل أى مثل الكف بعد جمع الأصابع .

حول الخاتم خيلان : أى قطعة بارزة على سطح الجسد ، كأنها ثليل : وهى الحبة الناتئة المستديرة .

فرجعت فاستقبله فقلت : غفر الله لك يا رسول الله. فقال : ولك . فقال : القوم : استغفر لك رسول الله ﷺ فقال : نعم ولكم. ثم تلا قوله تعالى : ﴿واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات﴾ «محمد:١٩».

وهذا من باب : ﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾ «الرحمن:٦٠».

فلما دعا عبد الله لرسول الله ﷺ قابله بالدعاء له أيضاً . ودعا الرسول ﷺ مقبول عند ربه .

وقال أبو داود الطيالسى حدثنا قرة بن خالد حدثنا معاوية بن قرة عن أبيه قال : أتيت رسول الله فقلت : يا رسول الله أرنى الخاتم .

فقال : أدخل يدك . فأدخلت يدى فى جُرُبّانه ، وهو جيب القميص فجعلت ألمس . أنظر إلى الخاتم فإذا هو على نغض كتفه مثل بيضة . فما منعه ذلك أن جعل يدعو لى وإن يدى لفى جُرُبّانه أى فى قميصه الشريف .

وروى البيهقى من حديث سماك بن حرب عن سلامة العجلى عن سلمان الفارسى قال : أتيت رسول الله ﷺ فألقى رداءه فقال : يا سلمان انظر إلى ما أمرت به . قال : فرأيت الخاتم بين كتفيه مثل بيضة الحمامة .

وهذا مما أنبأ الله به رسوله ﷺ فى شأن سلمان الفارسى الذى أخبره أحد النصارى بعلامات النبوة الموجودة فى الكتب السابقة ومنها خاتم النبوة . فجاء يبحث عن هذا النبى الكريم فهداه ﷺ بلا عناء حتى يتم إيمانه ويزداد يقينه . حقاً إنه رسول الله ﷺ

تبسمه ﷺ

حدثنا عبد الرحمن بن حُمَيْد. حدثنا مصعب ابن المقدام حدثنا المبارك ابن فضالة عن الحسن قال: أتت عجوز إلى النبى ﷺ فقالت: يا رسول الله ادع الله أن يدخلنى الجنة. فقال: يا أم فلان إن الجنة لا يدخلها عجوز، فولّت تبكى فقال رسول الله ﷺ: أخبروها إن الجنة لا تدخلها وهى عجوز، إن الله تعالي يقول: ﴿إنا أنشأناهن إنشاءً * فجعلناهن أبكاراً عرباً أتراباً﴾.

والعجوز هنا فى الحديث. قيل هى صفية عمة رسول الله ﷺ وهى أم الزبير بن العوام وكان همها الآخرة وأن تكون من أهل الجنة. فمازحها رسول الله ﷺ بقوله: إن الجنة لا يدخلها عجوز.

فخرجت وبكت ثم عرفها صلوات الله وسلامه عليه قصده من هذه الكلمة التى مازحها بها. وهو أن الجنة لا يدخلها ذكر أو أنثى وهو عجوز، بل جعل الله السن ثلاثين سنة وهو سن الشباب فيعاد الإنسان إلى هذا السن تماماً للنعيم المقيم. ويظل أهل الجنة على هذا السن خالدين فيها أبداً.

وكان هذا الحديث لجواز الملاطفة البريئة والمزاح المقبول شرعاً مع بيان أمر هام من أمور الآخرة وهو السن الذى حدده الله تعالى.

وكذلك حرص المؤمنات على معرفة أمور دينهن والتفقه فيه، وعلى التبصر بأحوال يوم القيامة حيث هى دار البقاء حتى يتم الاستعداد لهذا اليوم بالعمل الصالح. وكذلك الاطمئنان بما أعد الله فيه بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

ضحكه ﷺ

وبعد التبسم والمزاح يأتي ضحكه ﷺ فكان يضحك ﷺ ولكن كما ورد جُلّ ضحكه التبسم.

حدثنا أحمد بن منيع. أخبرنا عَبّاد بن العوام. أخبرنا الحجاج وهو ابن أرطأة عن سِماك بن حرب قال: عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال:

كان في ساق رسول الله ﷺ حموشة. وكان لا يضحك إلا تبسماً فكنت إذا نظرت إليه قلت «أكحل العينين وليس بأكحل» فساقه ﷺ كانت دقيقة ليست بغليظة. وضحكه ﷺ تبسُّم. هذا في أمور الدنيا. أما في أمور الآخرة.

فكان يضحك كما سيأتي إن شاء الله. و(كانت عيناه) ﷺ في هيئة طبيعية في حسنهما ودقة خلقتهما.

حدثنا أحمد بن خالد الخلال حدثنا يحيى بن إسحاق السيلحاني حدثنا ليث بن سعد عن يزيد بن أبي الحرث رضي الله عنه قال: ما كان ضحك رسول الله ﷺ إلا تبسماً وفي أمور الآخرة يضحك وضحكه في ذلك فرح وسرور برحمة الله على عباده.

وكيف لا يُسَرّ وهو الرحمة المهداة. رحمة الله للعالمين جميعاً.

حدثنا أبو عمار الحسين بن حريث حدثنا وكيع، حدثنا الأعمش عن المعرور بن سويد عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: إني لأعلم أول رجل يدخل الجنة: وآخر رجل يخرج من النار. يؤتى بالرجل يوم القيامة فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه، ويخبأ عنه كبارها. فيقال: علمت يوم كذا. كذا وكذا.

وهو مقر لا ينكر وهو مشفق من كبارها، فيقال: أعطوه مكان كل سيئة عملها

حسنة، فيقول: إن لى سيئات لا أراها هنا، قال أبو ذر: فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه. (والنواجذ: أقصى الأضراس، وقيل الأضراس كلها).

أى بالغ ﷺ فى الضحك حتى ظهرت ضروسه وهذ نادرة من نوادر ضحكه ﷺ.

حدثنا هنّاد بن السريّ حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن إبراهيم عن عبيدة السلمانى عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: إنى لأعرف آخر أهل النار خروجاً. رجل يخرج منها زحفاً فيقال له: انطلق فادخل الجنّة.

قال: فيذهب ليدخل الجنّة فيجد الناس قد أخذوا المنازل أى ملئت الجنّة بأصحابها. فيرجع فيقول: يا ربى قد أخذ الناس المنازل. فيقال له: أتتكر الزمان الذى كنت فيه فيقول: نعم، فيقال له: تَمَنَّ. قال: فيتمنى (أى يتمنى من النعيم الذى رآه فى الوقت الذى عاشه فى دنياه وعشرة أضعاف الدنيا (دلالة على سعة رحمة الله) قال: فيقول العبد: أتسخر بى وأنت الملك. أى من كثرة العطاء وجليل الفضل تَعَجّبَ العبد من ربه. ولا يصدق ما قيل له (لا تكذيباً وإنما دهشة من مدد ربه).

قال أبو ذر: فلقد رأيت رسول الله ضحك حتى بدت نواجذه أي بالغ فى ضحكه الشريف أنْساً واستبشاراً بعطاء ربه، ﴿وما كان عطاء ربك محظوراً﴾.

فنِعْمَ الرحمة. ونِعْمَ العطاء.

حدثنا أبو اليمان قال: أخبرنا شعيب عن الزهرى قال: أخبرنى سعيد بن المُسَيَّب وعطاء بن يزيد الليثى أن أبا هريرة أخبرهما أن الناس قالوا: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: هل تمارون (أى تَشُكّون) فى القمر ليلة البدر ليس دون سحاب؟ قالوا: لا يا رسول الله، قال: هل تمارون (أى تَشُكّون) فى الشمس ليس دونها سحاب؟ قالوا يا يا رسول الله، قال فإنكم ترون ربكم كذلك.

أى رؤيته سبحانه وتعالى يوم القيامة لأهل المحبة أمرٌ لا شك فيه، كما لا يَشُك أحد فى القمر إذا رآه. ولا فى الشمس إذا رآها. أما الحق تبارك وتعالى. فلا يعلم حقيقته إلا هو.

والحديث طويل. ونأتى لنبدأ بقوله ﷺ فى نفس الحديث. ثم يفرغ الله من القضاء بين العباد ويبقى رجل بين الجنة والنار وهو آخر أهل النار دخولاً الجنة مقبل بوجهه قبل النار فيقول: يا ربى اصرف وجهى عن النار. قد قشبنى ريحها وأحرقنى ذكاؤها (أى لهيبها) فيقول تبارك وتعالى: «هل عسيت إن فُعِل بك أن تسأل غير ذلك؟» فيقول العبد: لا وعزتك وجلالك. فيعطى الله ما شاء من عهد وميثاق فينصرف وجهه عن النار.

فإذا أقبل به على الجنة رأى بهجتها سكت ما شاء أن يسكت وقال:

يا ربى قدمنى عند باب الجنة. فيقول الله تبارك وتعالى: «أليس قد أعطيت العهود والميثاق ألا تسأل غير الذى كنت تسأل؟» فيقول العبد: يا ربى لا أكون أشقى خلقك. فيقول الله تبارك وتعالى: «فما عسيت إن أعطيت ذلك ألا تسأل غيره؟ فيقول العبد: لا وعزتك لا أسأل غيره. فيعطى ربه ما شاء من عهد وميثاق فيقدمه إلى باب الجنة. فإذا بلغ بابها. فرأى زهرتها وما فيها من النضرة والسرور. فيسكت ما شاء الله أن يسكت فيقول: يا ربى أدخلنى الجنة. فيقول الله تبارك وتعالى. «ويحك يا ابن آدم. ما أغدرك. أليس قد أعطيت العهود والميثاق ألا تسأل غير الذى أعطيت» فيقول العبد: يا ربى لا تجعلنى أشقى خلقك. فيضحك الله عزو وجل منه. ثم يأذن له فى دخول الجنة. فيقول: «تَمَنَّ» فيتمنى حتى إذا انقطعت أمنيته قال الله عز وجل: من كذا وكذا. أقبل يذكره ربه حتى إذا انتهت به الأمانى قال الله تعالى: لك ذلك ومثله معه.

قال أبو سعيد الخدرى لأبى هريرة رضى الله عنهما :

إن رسول الله ﷺ قال : «ذلك وعشرة أمثاله» .

قال أبو هريرة : لم أحفظ من رسول الله ﷺ إلا قوله :

«لك ذلك ومثله معه» .

قال أبو سعيد : إنى سمعته يقول : «ذلك وعشرة أمثاله» .

صدق هذا وصدق هذا ففضل الله واسع .

عبادته ﷺ

فى عبادته ﷺ كل أسباب الوصال . وكل حقائق الآمال وكل ما يرضى مالك الملك ذا الجلال والإكرام .

صيامه ﷺ

مع صيامه النقى ونوره النقى وإخلاصه الوفى مع رسول الله ﷺ صائماً بعد ما علمناه قائماً .

وهو بين صيامه وقيامه قلب يمد كل القلوب بنور علام الغيوب .

حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا حماد بن زيد عن أيوب عن عبد الله بن شقيق قال : سألت عائشة رضى الله عنها عن صيام رسول الله ﷺ قالت : كان يصوم حتى نقول قد صام أى لا يفطر . وكان يفطر حتى نقول قد أفطر ، أى نظن أنه لا يصوم بعد ذلك وقالت : «وما صام رسول الله ﷺ شهراً كاملاً منذ قدم المدينة إلا رمضان» .

حدثنا حماد حدثنا عبدة عن محمد بن عمرو حدثنا أبو سلمة عن عائشة قالت: «لم أر سول الله ﷺ يصوم في شهر أكثر من صيامه في شعبان كان يصوم شبعان إلا قليلاً بل كان يصومه كله».

فكان ﷺ يتابع صيام أكثر أيام بعض الأشهر خاصة شعبان كما يفهم من الحديث الثاني وذلك لأفضلية هذا الشهر وكذلك للتمرن على صيام شهر رمضان. وكان غالب صومه ثلاثة أيام من كل شهر.

حدثنا القاسم بن دينار الكوفي. حدثنا عبد الله بن موسى وطلق بن غنام عن شيبان عن عاصم عن زيد بن حبيش عن عبد الله قال: «كان رسول الله ﷺ يصوم من غُرَّة كل شهر ثلاثة أيام. وقلّما كان يفطر يوم الجمعة، أى كان يصوم يوم الجمعة ولا يفرده بالصوم بل كان يصومه مع يوم آخر قبله أو بعده. وذلك لكراهة صيامه منفرداً».

حدثنا أو حفص عمرو بن على حدثنا عبد الله بن داود عن ثور بن يزيد عن خالد بن معدان عن ربيعة الجرشي عن عائشة قالت: «كان النبي ﷺ يتحرى صوم الاثنين والخميس وذلك لأفضلية اليومين عند الله تعالى. فقد ورد أن الأعمال تعرض فيهما على رب العزة سبحانه وتعالى».

وفي رواية لمسلم أنه سئل ﷺ عن صوم يوم الاثنين فقال: «فيه ولدت وفيه أنزل على القرآن».

حدثنا محمود حدثنا أبو داود حدثنا شعبة عن يزيد قال: سمعت؟ معاذة قالت: «قلت لعائشة: أكان رسول الله ﷺ يصوم ثلاثة أيام من كل أسبوع؟ قالت: نعم. قلت: من أي الأسبوع كان يصوم؟ قالت: لا يبالي، أى كان يستوى عند الصوم من أوله أو من وسطه أو من آخره».

وذلك ليتيح لأمته ﷺ الصيام في أى وقت. فقد تختلف أحوال بعضهم عن الآخر. وهذا من رأفته ورحمته، كما وصفه الله تعالى: ﴿ بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾ حدثنا ابن عروة عن أبيه عن عائشة قالت: «كان عاشوراء يوماً تصومه قريش فى الجاهلية، وكان رسول الله ﷺ يصومه، فلما قدم المدينة صامه وأمر بصيامه. فلما افترض رمضان كان رمضان هو الفريضة وترك عاشوراء أى لم يصبح فرضاً. فمن شاء صامه ومن شاء تركه.

ويوم عاشوراء قيل فيه كثير من الأخبار. فصامه نوح عليه السلام شكراً لله تبارك وتعالى على نجاته من الطوفان.

وكانت قريش تعظم ذلك اليوم بصومه وكانوا يكسون الكعبة فيه، وكان رسول الله ﷺ يصومه موافقة لقريش أو موافقة لأهل الكتاب، وبإلهام من الله سبحانه وتعالى.

وجاء فى صحيح البخارى أن النبى ﷺ لما قدم المدينة وجد اليهود تصوم يوم عاشوراء فسألهم عن ذلك قالوا:

هذا اليوم نجى الله فيه موسى وأغرق فرعون وقومه، فصامه موسى شكراً لله فنحن نصومه.

فقال ﷺ: نحن أحق بموسى منكم: فصامه وأمر بصيامه. وصيام عاشوراء سنة مستحبة ويسن معه صيام التاسع مخالفة لليهود. ورد فى فضله ما رواه الإمام مسلم عن قتادة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ سئل عن صيام يوم عاشوراء فقال: يُكفِّر السنة الماضية. أى ببركة صومه يغفر الله لصائمة السنة الماضية مع التوبة الصادقة والندم الشديد وطلب العفو والرضى.

ومن عبادة الصوم إلى أخرى وهى تلاوته ﷺ للقرآن الكريم..

تلاوته ﷺ للقرآن الكريم

وتلاوة القرآن الكريم من العبادات الجليلة حيث يتقرب بها العبد إلى الله سبحانه وتعالى وهى تنفع صاحبها فى الدنيا والآخرة. وقد روى الإمام مسلم رضي الله عنه حديث أبى إمامة عن رسول الله ﷺ: «اقرأوا القرآن فإنه يأتى يوم القيامة شفيعاً لأصحابه».

وفى جامع الترمذى من حديث عبد الله بن مسعود عن رسول الله ﷺ: «من قرأ القرآن فله بكل حرف حسنة والحسنة بعشرة أمثالها».

حدثنا قتيبة بن سعد. حدثنا الليث عن أبى مليكة عن يَعْلى بن مملك أنه سأل أم سلمه عن قراءة رسول الله ﷺ فإذا هى تنعت قراءة مفسرة حرفاً حرفاً أي مفصولة الحروف واضحة اللفظ ظاهرة المبنى بمعنى أنه يعطى كل حرف حقه وأن يخرج كل حرف من مخارجه الطبيعة مع مراعاة أحكام الترتيل والتلاوة كما نزلت.

حدثنا محمد بن بشار حدثنا وهب بن جرير بن حازم حدثنا أبى عن قتادة قال: لأنس بن مالك كيف كانت قراءة رسول الله ﷺ؟ قال:

مداً، أي لما يستحق المد. إما مطولاً أو مقصوراً أو متوسطاً.

حدثنا عليّ بن حجر. حدثنا يحيى بن سعيد الأموى عن ابن جُرَيْش عن ابن أبى مليكة عن أم سلمه قالت: كان النبى ﷺ يقطع قراءته أى يقف على رأس كل آية يقول: الحمد لله رب العالمين. ثم يقف ثم يقول الرحمن الرحيم. ثم يقف ثم يقرأ مالك يوم الدين. ثم يقف.

أى وهكذا فى كل تلاوته ﷺ.

يقول ابن حجر: وبهذا عُلِمَ أن قراءته ﷺ كانت ترتيلاً، وكانت مفسَّرة الحروف

مستوفاة ما تستحقه من مداً وغيره لأنه كا يُقَطِّعها آية آية.

حدثنا قتيبة، حدثنا الليث عن معاوية بن صالح عن عبد الله بن أبى قيس قال: سألت عائشة رضى الله عنها عن قراءة النبى ﷺ: أكان يُسِرُّ بالقراءة أم يجهر؟ قال كل ذلك قد كان. قد كان يفعل ذلك. وقد كان ربما أسرَّ وربما جَهَر. فقلت: الحمد لله الذى جعل فى الأمر سعة.

وكل ذلك يرجع إلى الخشوع والخضوع والتدبر فى القراءة. فالجهر والسرّ بحسب حال القارىء.

أما الأجر والمثوبة فبحسب نيته وما فى قلبه وما يكون بعد ذلك من عمل.

كما فى قول الله تعالى: ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون ﴾. «الأنفال: ٢».

حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا نوح بن قيس الحُدَّانى عن حسام عن قتادة قال: ما بعث الله نبياً إلا حسن الوجه حسن الصوت. وكان نبيكم ﷺ حسن الوجه حسن الصوت وكان لا يُرجِّع أى لا يوقع قراءته توقيع الغناء بل يتلو تلاوة واضحة مع تحسين الصوت ضمنا بلا غناء حتى لا يخرج عن الخشوع المطلوب عند التلاوة.

أسماؤه الشريفة ﷺ

مع النبى ﷺ وأسمائه الشريفة.

وهى كثيرة دلالة على شرف المسمى وقدره. وكل اسم من أسمائه الشريفة له معناه الرفيع. وقد ذكر العلماء الكثير من هذه الأسماء أوصلها بعضهم إلى ألف اسم. وألَفت فى ذلك رسائل عديدة.

حدثنا سعيد بن عبد الرحمن المخزومي وغير واحد قالوا: حدثنا سفيان عن الزهري عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لي أسماء أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي تحشر الناس على قدمي. وأنا العاقب، الذي ليس بعده نبي».

حدثنا محمد بن طريف. حدثنا أبو بكر بن عياش عن عاصم عن أبي وائل عن حذيفة قال: لقيت النبي ﷺ في بعض طرق المدينة فقال: «أنا محمد وأنا أحمد. وأنا نبي الرحمة، ونبي التوبة وأنا المقفى أي المتبع لآثار من سبقني من الأنبياء وتبع أطوار من تقدمه من الأصفياء ﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾ وذلك في التوحيد ومكارم الأخلاق وغير ذلك في أصول الشرائع. ولكنه هو النبي الخاتم الذي جاء بأعظم رسالة وأكمل شريعة ﷺ وأنا الحاشر: أي يحشر الناس على أثري. وفي الحديث: «بعثت أنا والساعة كهاتين وأشار بإصبعيه السبابة والوسطى. أو كما ورد: أنه أول من تنشق عن الأرض يوم القيامة فيَقْدُم الناس في المحشر ويحشر الناس على أثره. أو كما ورد: أنه أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة. فيقدم الناس في الحشر ويحشر الناس على أثره.

ونبي الملاحم: جمع ملحمة، وهي الحرب. وسميت بذلك لاشتباك لحوم المقاتلين بعضهم ببعض. وسمي النبي ﷺ بنبي الملاحم لحرصه على الجهاد في سبيل الله ومسارعته للقتال وخوض الحروب لإعلاء كلمة الدين. ورفع راية الإسلام ليتلاحم البشر على دين واحد. وقيل نبي الملاحم لأنه جمع أواصر الناس وأزال عدواتهم وصَفَّى قلوبهم من الحقد والبغضاء بفضل الله تعالى وببركته ﷺ. ويقول الحق جلّ وعلا في ذلك ﴿واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بيم قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً﴾ «آل عمران: ١٠٣».

ومن أسمائه ﷺ: المبين البيِّن أمره قال تعالى: ﴿حتى جاءهم الحق ورسول مبين﴾

«الزخرف: ٢٩»، وأيضاً: ﴿ وقل إني أنا النذير المبين ﴾ «الحجر: ٨٩».

ومن أسمائه ﷺ: الحق: قال تعالى ﴿ قد جاءكم الحق من ربكم ﴾ «يونس: ١٠٨»، وقال ﴿ بل كذبوا بالحق لما جاءهم ﴾ «ق: ٥».

ومن أسمائه النور: قال تعالى: ﴿ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ﴾ «المائدة: ١٥»، وقال تعالى: ﴿ وسراجاً منيراً ﴾ «الأحزاب: ٤٨».

سمي بذلك لوضوح أمره وبيان نبوته وتنوير قلوب المؤمنين والعارفين لما جاء به.

ومن أسمائه ﷺ الشهيد، قال تعالى: ﴿ ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾ «البقرة: ١٤٣»، ومن أسمائه ﷺ الشاهد: قال تعالى ﴿ إنا أرسلناك شاهداً ﴾ «الفتح: ٨». والشاهد والشهيد بمعنى واحد وهو شهادته على العباد يوم القيامة.

ومن أسمائه ﷺ: البشير النذير، قال تعالى: ﴿ ومبشراً ونذيراً ﴾ «الفتح: ٨».

ومن أسمائه ﷺ الوليّ: قال تعالى: ﴿ إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا ﴾ «المائدة: ٥٥»، وقال ﷺ «أنا وليّ كل مؤمن».

ومن أسمائه ﷺ: الصادق: قال تعالى: ﴿ وصدق الله ورسوله ﴾ «الأحزاب: ٢٢»، وفي رواية ابن مسعود رضي الله عنه: اسمه ﷺ الصادق المصدوق.

ومن أسمائه ﷺ الأمين: كما وصفه قومه بالصادق الأمين.

ومن أسمائه ﷺ: المؤمن: قال تعالى: ﴿ يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ﴾ «التوبة: ٦١».

ومن أسمائه ﷺ الشكور: قال ﷺ «أفلا أكونُ عبداً شكوراً».

وهذه الأسماء وغيرها مما ذكرها أهل العلم لتبين فضل هذا الرسول العظيم. وكل اسم من الأسماء هو حركة وعمل وجهاد. وليس اسماً مجرداً يطلق على الذات دون المراد. ولكن وراء كل اسم حقيقة ووراء كل اسم صفة وبرهان. ومن ذلك في نداء الله

تعالى له ﷺ : ﴿ يا أيها المدثر ﴾ ويأتى بعد الوصف أمر بالقيام بالدعوة وأصولها. ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) وَلا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ (٦) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (٧) ﴾ «المدثر١-٧».

وفى ندائه ﷺ : «يا أيها المزمل» نجد أمراً آخر من أوامر الله له. ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً (٢) نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً (٤) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً (٥) ﴾ «المزمل: ١-٥».

ويناديه الحق تبارك وتعالى بوصف النبوة فيقول جلّ وعلا: ﴿ يا أيها النبى ﴾ وبعد النداء والتكريم بهذه الصفة يأتى الأمر والنهى. ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١) ﴾ «الأحزاب: ١».

ويأتى النداء الرابع فى الصفة الجامعة لكل معانى الصفات والأسماء: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٦٧) ﴾ «المائدة:٦٧».

وهى حكمة الله البالغة فى وصف رسوله ﷺ ، وتسميته بما اختار له بعلمه وأفاض عليه نور أسمائه.

فسماه ببعضها فى محكم الآيات البينات إشارة إلى ما في هذا الرسول من مدد إلهى وعطاء ربانى ونفحات فياضة بالإحسان والفضل والعطاء والمنة.

﴿ وكان فضل الله عليك عظيماً ﴾ «النساء:١١٣».

ولا غرابة ففى القرآن آيات عديدة ذكر لله فيها أسماء بعض أنبيائه ورسله حتى نقف موقف التسليم فى ما ذكر من بعض أسماء رسول الله ﷺ .

﴿ وبشروه بغلام عليم ﴾ «الذاريات: ٢٨».

هو سيدنا إسحق عليه السلام: ﴿ فبشرناه بغلام حليم ﴾ «الصافات: ١٠١».

هو سيدنا إسماعيل عليه السلام: «إن ابراهيم لأواه حليم ﴾ «التوبة: ١١٤».

وأيضاً: ﴿ ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكوراً ﴾ «الإسراء: ٣».

وأيضاً: ﴿ وبرا بوالديه ﴾ «مريم: ١٤».

هو سيدنا يحيى عليه السلام: ﴿ وبراً بوالدتى ﴾ «مريم: ٣٢».

هو سيدنا عيسى عليه السلام: البر: هو اسم من أسماء الله الحسنى.

﴿ وقد جاءهم رسول كريم ﴾ «الدخان: ١٣». ﴿ إن خير من استأجرت القوى الأمين ﴾ «القصص: ٢٦» هو سيدنا موسى عليه السلام: القوى: هو اسم من أسماء الله تعالى. وصف به هذا النبى الكريم.

ويكفينا ذلك فى الاستدلال بما حَلَّى الله به تعالى أنبياءه ورسله وزينهم وكرمهم بما سماهم ووصفهم وفى مقدمتهم أسعد الخلق سيدنا محمد ﷺ.

وفى الدار الآخرة نجد أن الله تبارك وتعالى قد أعطاه الشفاعة الكبرى لطفاً بأهل الموقف. فيقول فى ذلك ﷺ: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر، وأنا أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة ولا فخر، وأنا أول شافع وأول مشفع».

وأيضاً: هو صاحب لواء الحمد. كما جاء فى بقية الحديث الشريف: «وأنا صاحب لواء الحمد يوم القيامة فما من نبى آدم تحت لوائى يوم القيامة».

فكثرة أسمائه المطهرة، هى دلالة واضحة على كثرة عطاء الله له قال تعالى: ﴿ إنا أعطيناك الكوثر ﴾.

أى الخير الكثير من القرآن والإسلام والخُلُق والعلم والنصر والفتح والمغفرة والرضوان وغير ذلك مما لا تحصيه العقول والأفهام.

ومن الخير الكثير : الكوثر :

وهو حوضه ﷺ الذي يسقى به أهل النجاة بيده الشريفة شربة هنية لا يظمأون بعدها ظمأ الدنيا الفانية .

فتعالى الله الملك الحق : سَمَّاك ووصفك بما يحب ، وحقق فى تسميته لك ووصفه كل الكمال والخير حتى ترضى يا رسول الله .

صلوات الله وسلامه عليك يا سيدى يا رسول الله .

بكاؤه ﷺ

البكاء هو سيلان الدمع من غير صوت أوبصوت . بحسب سبب البكاء .

فقد يكون بكاء خوف وخشية ، وتارة بكاء رحمة ورأفة ، وتارة بكاء محبة وشوق أو فرح وسرور ، أو جزع وحزن .

وبكاؤه ﷺ هو فى الأصل خشية من الحق جلَّ وعلا أو قد يكون خوفاً على الأمة ، أو رحمة وشفقة على ميت . وتارة يكون شوقاً ومحبة للحق تبارك وتعالى عند استماعه لكتابه عزوجلَّ وغير ذلك فى أحواله ﷺ .

حدثنا سويد بن نصر . حدثنا عبد الله عن حماد بن سَلَمة عن ثابت عن مطرف وهو ابن عبد الله بن شخير عن أبيه قال : أتيت رسول الله ﷺ وهو يصلى ولجوفه أزيز كأزيز المرجل من البكاء (والأزيز هو صوت القِدْر إذا غلى ما فيها أو صوت الغليان) أى أن الأزيز هو صوت جوفه ﷺ وكا يبعث منه كأنه قدر على النار . وهذا دليل على كمال خوفه ووجله من ربه . وذكره لمولاه ذكراً لا ينقطع ، وفكراً لا ينتهى ، وشهوداً لمقام الحق فى كل ما يرى وما يسمع فكان حاله ﷺ حالاً ربانياً مع ربه دائماً ظاهراً وباطناً والله

معه برحمته وآياته وعلمه ونوره وبركته. وعطائه ووحيه، وإلهامه فى يقظته ومنامه. فهو رسول الله ﷺ وحبيبه ومصطفاه.

حدثنا محمود بن غيلان. حدثنا معاوية بن هشام حدثنا سفيان عن الأعمش عن إبراهيم عن عبيدة عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال لى رسول الله ﷺ: اقرأ علىَّ، أى القرآن: فقلت: يا رسول الله أقرأ عليك، وعليك أُنْزِل؟ قال: إنى أحب أن أسمعه من غيرى.

فقرأت سورة النساء، أى شرعت وبدأت قراءتها حتى بلغت: «فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً». «النساء: ٤١»

قال: فرأيت عينى رسول الله ﷺ تهيمان (تدمعان). أى كما كان ﷺ يحب تلاوة القرآن تقرباً إلى الله تعالى، أيضاً كان يحب الاستماع إليه، ففى الاستماع فهم وتدبر. وفى كلٍّ خير ورحمة من الله تعالى.

وفي ذلك معايشة تامة بين القرآن وبين من يقرأه أو من يستمع إليه.

وهكذا نرى رسول الله ﷺ يبكى بكاء شديداً شفقة ورحمة لشدة ما يكون عليه الناس يوم القيامة، ولعظم المسئولية بين يدى أحكم الحاكمين.

فهو ﷺ الشهيد على تبليغ الأنبياء رسالتهم إلى قومهم ومزكياً لهم ومثبتاً لشهادتهم عليهم الصلاة وأزكى التسليم.

حدثنا محمد بن بشار، حدثنا عبد الرحمن بن مهدى حدثنا سفيان عن عاصم بن عبيد الله عن القاسم بن محمد عن عائشة رضى الله عنها: أن رسول الله ﷺ قَبَّل عثمان بن مظعون وهو ميت، وهو يبكى أو قال عيناه تذرفان الدمع، وهذا أمر آخر اقتضى بكاء النبى ﷺ لشدة رقته. وفى ذلك يجوز البكاء على الميت دون صراخ وعويل.

وأيضاً يجوز تقبيل الميت الصالح.

وقد قَبَّل النبى ﷺ عثمان بن مظعون تكريماً له وهو أخ للنبى ﷺ فى الرضاعة. وهو قرشى أسلم مبكراً وهاجر الهجرتين وشهد بدراً. وهو أول من مات من المهاجرين بالمدينة وكان من أجلاء الصحابة رضى الله عنهم، ودفن بالبقيع.

حدثنا إسحق بن منصور. أخبرنا أبو عامر، حدثنا ابن سليمان عن هلال عن على عن أنس بن مالك قال: شهدنا ابنة لرسول الله ﷺ وهى أم كلثوم زوج عثمان بن عفان رضى الله عنهما. ورسول الله ﷺ جالس على القبر فرأيت عينيه تدمعان فقال: «أفيكم رجل لم يقارف الليلة؟ (أى لم يجامع زوجته) قال أبو طلحة: أنا. قال ﷺ انزل. فنزل فى قبرها. أى ليدخلها فى القبر وليفك كفنها وليضجعها فى مرقدها الأخير.

والحكمة فى اختيار من لم يجامع زوجته أن يكون غير قريب عهد بمخالطة النساء.

وفى أحواله ﷺ الكثير من الأخلاق الفريدة التى تجمعت فيه وحده. ولم تتغير لضيق عيش أو لخشونة أو لزهد أو فرح. بل هو اليقين والعهد.

ولا أثر للدنيا فى هذا الصدر الشريف الذى هو فى معية الراحة والطمأنينة والعيش الهنئ.

فراشه ﷺ

ومع النبى ﷺ فى فراشه الشريف.

حدثنا على بن حجر. أنبأنا ابن مسهر عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها قالت: إنما كان فراش رسول الله ﷺ الذى ينام عليه من أدم (أى جلد) حشوه ليف. وهو ليف النخل المعروف.

حدثنا أبو الخطاب زياد بن يحيى البصرى. حدثنا عبد الله بن ميمون حدثنا جعفر بن محمد عن أبيه قال: سئلت عائشة: ما كان فراش رسول الله ﷺ فى بيتك؟ قالت: مسحاً (أى كساء خشن من صوف) نثنيه ثنيتين فينام عليه. فلما كان ذات ليلة قلت لو ثنيته أربع ثنيات لكان أوطأ له (أى ألين له) فثنيناه أربع ثنيات أى طبقات. فلما أصبح ﷺ قال: ما فرشتموه لى الليلة؟ قالت: قلنا هو فراشك إلا أنا ثنيناه بأربع ثنيات. قلنا هو أوطأ لك (أى ألين لك). قال: ردوه لحالته الأولى. فإنه قد منعتنى وطأته من صلاتى الليلة. أى اجعلوه كما كان من طبقتين لأن لينه جعلنى استغرق فى النوم فلم أقم لتهجدى فى الموعد الذى كنت أقوم فيه. إنه فراش رسول الله ﷺ من جلد حشوه ليف أو من صوف خشن. إنه فراش أكمل الخلق قاطبة وسيد الكائنات كلها. ﷺ. وغاية الأمر أن رسول الله ﷺ هو غاية ترجى فى كل شأن من شئونه وهو غاية الأمل أن يصل المسلم إلى التخلق بأخلاقه وإلى التأثر بأفعاله فهى التربية الكاملة لتواضع الإنسان المسلم لأخيه المسلم كما أراد الله لهم مع رسولهم ﷺ ﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾ «الفتح:٢٩».

التواضع تواضعان. تواضع لله تعالى فى الاجتهاد المطلق لعبادته وما فى ذلك خشوع وخضوع لعظمة الحق جل وعلا.

وهناك تواضع لعباد الله بلا كبر ولا خيلاء ولا أنانية ولا بطش ولا قهر ولا زهو ولا غرور.

وقد ورد أن الله تعالى خَيَّر نبيه ﷺ بين أن يكون نبياً ملكاً أو نبياً عبداً.

فاختار أن يكون نبياً عبداً. قال له إسرافيل عليه السلام عند ذلك: «فإن الله أعطاك بما تواضعت له أنك سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول شافع وأول مشفع أول من تنشق الأرض عنه.».

وقد اختار الله تعالى هذا الوصف الكريم وهو «عبد» فى كل مواطن العطاء لنبيه ﷺ فى بيان نعمة نزول القرآن الكريم: ﴿الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب﴾ «الكهف: ١».

وفى بيان نعمة الفرقان وهو شأن القرآن: ﴿تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً﴾ «الفرقان: ١»، وفى الإسراء وهو معجزته الحسية الكبرى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝١﴾ «الإسراء: ١»، ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ «النجم: ٨-١٠».

مع شمائله الشريفة ﷺ التى كمّله الله بها خَلْقاً وخُلُقاً.

الأحاديث التى تذكر شَعْرَه الشريف ﷺ:

حدثنا عليّ بن حجر. أنبأنا إسماعيل بن إبراهيم عن حُمَيْد عن أنس بن مالك قال: كان شعر رسول الله ﷺ إلى نصف أذنيه أى هذا فى بعض الأحوال، ويصل فى بعضها إلى منكبيه ﷺ كما فى الأحاديث الدالة على ذلك.

ومنها هذا الحديث التالى: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا وهب بن جرير ابن حازم. قال حدثنى أبى عن قتادة قال: قلت لأنس. كيف كان شعر رسول الله ﷺ؟ قال: لم يكن بالجعد ولا بالسبط كان يبلغ شحمة أذنيه أي كان وسطاً فى النعومة.

حدثنا محمد بن يحيي بن أبى عمر. حدثنا بن عُيَيْنَة عن ابن أبى نجيح عن مجاهد عن أم هانيء بنت أبى طالب قالت: قدم رسول الله ﷺ مكة قَدْمة وله أربع غدائر أى كان لرسول الله ﷺ بعد الهجرة الشريفة أربع قُدُمات جاء فيها إلى مكة المكرمة، وهى القضاء، والفتح، وعمرة الجعرانة، وحجة الوداع. والمرة التى تذكرها أم هانيء هى يوم فتح مكة. لأنه ورد أن النبى ﷺ قد اغتسل فى بيتها وصلى الضحى.

فرأته كما وصفت له أربع خُصَل من الشعر قد أرسلها (أى أنزلها) حتى يراها من يراها . وهذا يدل على طول شعره ﷺ.

حدثنا سويد بن نصر حدثنا عبد الله بن المبارك عن يونس بن يزيد عن الزهرى حدثنا عبيد الله بن عبد الله بن عُتْبَة عن ابن عباس : أن رسول الله ﷺ كان يسدل شعره أى يدلى شعره إلى جبهته أو إلى ورائه . ولا يجعله فرقتين .

وكان المشركون يفرقون رؤوسهم ، أى يفرقون رؤوسهم فرقتين إلى اليمين وأخرى إلى الشمال وتارة يكون ذلك وسط الرأس وتارة ويكون غيره .

وكان أهل الكتاب يسدلون رؤوسهم أى لا يفرقون ، وكان ﷺ يحب موافقة أهل الكتاب اليهود والنصارى فى ما لم يؤمر فيه بشىء أى فيما لم ينزل فيه الوحى بمخالفتهم .

ثم فرق رسول الله ﷺ رأسه فهذه من الأمور المباحة شرعاً . فللمسلم أن يدرك فعله ﷺ وله أن يفعل هذا أو هذا مع تمام مظهر الرجولة والشرف .

وننتقل إلى ما كان يفعله ﷺ معتنياً بشعره الشريف حيث هو نعمة من نعم الله تعالى .

فكان ينظفه دائماً ، ويقوم بترجليه بالمشط حتى يبدو كاملاً فى كل شىء . فهو الأسوة الحسنة والقدوة الطيبة ، وهذا حديث الشريف : «النظافة من الإيمان» ، وحديث آخر : «من كان له شعر فليكرمه» أى لا يترك المسلم والمسلمة الشعر مهملاً دون نظافة ودون تمشيط وعناية .

حدثنا إسحق بن موسى الإنصارى . حدثنا مَعْن بن عيسى حدثنا مالك ابن أنس عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت : كنت أرَجِّل رأس رسول الله وأنا حائض . أى كنت أمشط وأسرح شعر رسول الله وأنا حائض وهذا تكريم للمرأة فى جميع أحوالها . فكان العرب قبل الإسلام لا يدعون المرأة تباشر أى عمل من الأعمال الخاصة والعامة

لهم. فلا تمشط المرأة زوجها ولا تأكل معه. ولا تجالسه ما دامت حائضاً أو نفساء.

وقد فعل ذلك ﷺ إشعاراً للناس وتنبيهاً لجمال الإسلام وحسنه وما دعا إليه من أخلاق كريمة وإلى تكريم المسلم، سواء كان رجلاً أو امرأة.

حدثنا يوسف بن عيسى حدثنا وكيع حدثنا الربيع بن صبيح عن يزيد ابن إبَان (هو الرقاشى) عن أنس بن مالك قال:

كان رسول الله ﷺ يكثر دهن رأسه وتسريح لحيته ويكثر القناع حتى كأن ثوبه ثوب زيّات أى كان النبى ﷺ يَدَّهن بالزيت الخاص بالشعر زيادة فى العناية بشعر رأسه ولحيته. وكان يضع فوق رأسه وتحت العمامة القناع وقاية لعمامته الشريفة من الدهن.

ويذكر الحديث أن القناع، أى الغطاء الذى يفصل بين رأسه وبين عمامته كان مشَرَباً بالزيت كثوب الزّيات.

أما مظهره الشريف فى عمامته وثوبه وردائه فكان فى غاية النظافة وكمال الهيئة والوقار ﷺ.

حدثنا هنّاد بن السرى حدثنا أو الأحْوَص عن أشعث بن أبى الشعثاء عن أبيه عن مسروق عن عائشة قالت: إن كان رسول الله ﷺ لَيُحبَ التيمن فى طهوره إذا تطهر. وفى ترجله إذا تَرَجّل وفى انتعاله إذا انتعل أى كان ﷺ يبدأ باليمين وتبركاً بأصحاب اليمين وهم أهل الجنّة فى غسله ووضوئه وتيممه وفى تمشطه فى رأسه ولحيته وفى تنعله فإذا لبس النعل فبرجله اليمين.

وبعد الحديث عن شعره ولحيته ﷺ وما كان عليه من العناية تنظيفاً وتمشيطاً وتطيباً. وكان يفعل ذلك فى أوقات مختلفة. نجد فى الأحاديث المطهرة أمراً آخر خاصاً بالشعر الشريف.

حدثنا محمد بن بشار، حدثنا بن داود، حدثنا همام عن قتادة قال قلت لأنس بن مالك. هل خَضَب رسول الله ﷺ؟ قال: لم يبلغ ذلك. وإنما كان شيئاً في صدغيه ولكن أبا بكر رضي الله عنه خضب بالحنّاء والكَتَمْ: الخضاب: معناه تلوين الشعر بحمرة سواء كان بالحنّاء أو بغيرها.

ولم يكن في شعر رسول الله ﷺ شيب كثير إلا شعيرات قليلة تعد على الأصابع. فلم يستعمل الخضاب. فلم يصبغ ﷺ شعره بالحنّاء أو بغيرها كما يفعل كثير من أصحابه الذين أصابهم الشيب كسيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه وهذا دليل على جواز استعمال الحنّاء فقط.

حدثنا إسحق بن منصور ويحيى بن موسى قالا: حدثنا عبد الرازق عن معمر عن ثابت عن أنس بن مالك قال: ما عددت في رأس رسول الله ﷺ ولحيته إلا أربع عشرة شعرة بيضاء.

ولكن ورد في حديث آخر أن النبي ﷺ خضب بالحنّاء. ففي الحديث الأول سبق لم يكن قد خضب. ولكن سُئل أبو هريرة رضي الله عنه: هل خضب رسول الله ﷺ؟ قال: نعم وقال أنس رضي الله عنه: رأيت شعر رسول الله ﷺ مخضوباً.

اكتحاله ﷺ

حدثنا محمد حُمَيْد الرازي. حدثنا ابن داود الطيالسي عن عباد بن منصور عن عكرمة عن ابن عباس: أن النبي ﷺ قال: «اكتحلوا بالإثمدْ فإنه يجلو البصر وينبت الشعر».

وزعم أن النبى ﷺ له مكحلة يكتحل منها كل ليلة ثلاث مرات فى هذه وثلاث مرات فى هذه.

أمر النبى ﷺ بالاكتحال فى العين من الحجر المعروف الذي يطلق عليه العامة «الكحل» ويكتحل الناس منه فى كل عين فى كل ليلة.

ويروى عن العرب الذين خبروا ذلك أنه يقوى بصيلات الأهداب وهي الرموش. بل يقوى العين عموماً. جهاز الإبصار والشعر النابت حولها.

وكان ﷺ حكيماً فى اكتحاله عند النوم حتى يسرى ذلك وتكتمل فائدة الانتفاع لأنه يطبق جفونه.

لباس الرسول ﷺ

ونأتى بعد ذلك إلى لباسه ﷺ وعموم القول فى ذلك أن النبى ﷺ كان يلبس من الثياب ما يناسب لباس قومه. ولم يقتصر على صنف بعينه حتى لا يتميز عن الناس. ومع ذلك كان يلبس الثياب الفاخرة حين يستقبل وفوده.

وفى كل كان طاهر الثوب كما أمره الحق تبارك وتعالى: ﴿ وثيابك فَطَهِّر ﴾ «المدثر: ٤».

حدثنا محمد بن حُمَيْد الرازى حدثنا الفضل بن موسى وأبو ثميلة وزيد ابن حباب عن عبد المؤمن بن خالد عن عبد الله بن بديلة عن أم سلمة قالت: كان أحب الثياب إلى رسول الله ﷺ القميص وهو الذى يلبس تحت الثياب ولا يكون من صوف. وإنما كان أحب الثياب إلى النبى ﷺ لأنه أستر للبدن من غيره ولأنه أخف على البدن.

وقد ورد أن المصطفى ﷺ لم يكن له إلا قميص واحد. عن عائشة قالت: ما رفع رسول الله ﷺ غذاء لعشاء أى ما ادخر شيئاً من طعامه لعشائه بل كان ينفقه على المحتاجين. ولا عشاء لغداء ولا اتخذ من شىء زوجين. ولا زوجين من النعال.

حدثنا عبد الله بن محمد بن الحجاج، حدثنا معاذ بن هشام. حدثنا عن بديل (يعنى ابن ميسرة العقيلى) عن شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد قال: كان كُمُّ قميص رسول الله ﷺ إلى الرُّسْغ. والرُّسْغ هو المفصل ما بين الساعد والكف من الإنسان.. فكان كُمْ قميصه ﷺ إلى الرسغ لتسهيل حركة اليد فهو ليس بالقصير ولا بالطويل بل وسط.

حدثنا أبو عمار الحسين بن حريث. حدثنا أبو نعيم. حدثنا زهير عن عروة بن عبد الله بن كثير عن معاوية بن قرة عن أبيه قال: أتيت رسول الله ﷺ فى رهط أى جماعة

من مُزَيْنَة وهى قبيلة من مُضَر لنبايعه، وإن قميصه لمطلق أو قال زر قميصه مطلق.

قال: فأدخلت يدى فى جيب قميصه فمسست الخاتم.

يروى المحدث أن قميصه ﷺ وهى الفتحة المحيطة بالعنق وهى واسعة لسهولة اللبس فمسَ الخاتم قصداً للتبرك.

حدثنا سويد بن نصر. حدثنا عبد الله بن المبارك عن سعيد بن إياس الجريرى عن أبي نضرة عن أبى سعيد الخدرى. قال: كان رسول الله ﷺ إذا استجد ثوباً سماه باسمه ثم يقول: «اللهم لك الحمد كما كسوتنى، أسألك خيره وخير ما صنع له، وأعوذ بك من شرّه وشر ما صنع له».

يبين الحديث أن النبى ﷺ إذا رزق بثوب جديد قال: «هذا ثوب وهذه عمامة وهذا قميص» إظهاراً لنعمة الله عليه. وتعليماً لأمته. ومن عادته إذا استجد له ثوب لبسه يوم الجمعة حتى يظهر به فى أحب أيام الله إلى الله.

وكان إذا لبس ثوباً جديداً قال: «الحمد لله الذى رزقنى هذا لأستر به عورتى ولأتجمل به فى حياتى».

وفى هذا الحديث كان يقول: «اللهم لك الحمد كما كسوتنى» ويحمد الله بعد التسمية تحدثاً بنعمة الله عليه. ثم يقول: «أسألك خيره وخير ما صنع له». أى اجعله وقاية لى من الحر والبرد واجعل ملبسه فى طاعتك.

ويقول: «وأعوذ بك من شره ومن شرّ ما صنع له».

أى لا تجعله فى معصيتك. وأخرج ابن حبان والحاكم. من لبس ثوباً جديداً فقال: «الحمد لله الذى كسانى ما أوارى به عورتى وأتجمل به فى حياتى»، ثم عمد إلى الثوب القديم فتصدق به. كان فى حفظ الله وفى ستر الله حياً وميتاً.

وفي رواية لأحمد : من لبس ثوباً جديداً فقال : «الحمدلله الذى كسانى هذا ورزقنيه من غير حول لى ولا قوة» غفر لهالله ما تقدم من ذنبه .

حدثنا محمد بن بشار حدثنا معاذ بن هشام حدثنى أبى عن قتادة عن أنس بن مالك قال : كان أحب الثياب إلى رسول الله ﷺ (الحبرة) والحبرة برد يمنى وكانت أحب الثياب إلى رسول الله ﷺ وذلك للينها وموافقتها لجسده الشريف .

حدثنا محمود بن غيلانى حدثنا عبد الرازق حدثنا سفيان عن عون بن أبى جحيفة عن أبيه قال : رأيت رسول الله ﷺ وعليه حلة حمراء كأنى أنظر إلى بريق ساقيه . قال سفيان : أراها حبرة .

حدثنا على ابن خشرم . حدثنا عيسى بن يونس عن إسرائيل عن أبى إسحاق عن البراء عن عازب .

قال : ما رأيت أحداً من الناس أحسن فى حلّة حمراء من رسول الله ﷺ إن كانت جُمَّته أى خصلة شعره لتضرب قريباً من منكبيه . وهذا يدل على جواز ارتداء الثوب أو الرداء الأحمر ، كما لبس رسول الله .

كما يجوز النظر إلى رجل الرجل من الرجل إلى الساق فقط وهو إجماع حيث لا فتنة . ويندب أيضاً تقصير الثياب إلى أنصاف الساقين .

فيُسَنُّ للرجل أن تكون ثيابه إلى نصف ساقيه ، ويجوز أيضاً أن تكون إلى الكعبين وما زاد على الكعبين فهو حرام ، إن قصد به العجب والخيلاء وإلا كُره . ويُسَنَ للأنثى أن تطيل ثيابها بما يستر جميع بدنها وأن تزيد على الكعبين . (يُسَنّ لها : أى يجب عليها خلافاً للرجل) .

حدثنا محمد بن بشار حدثنا عبد الرحمن بن مهدى حدثنا سفيان عن حبيب بن أبى

ثابت عن ميمون بن أبى شبيب عن سُمْرَة بن جُنْدب قال : قال رسول الله ﷺ : «البسوا البياض فإنها أطهر وأطيب . وكفنوا فيها موتاكم».

فكان ﷺ يحب أن يلبس الأبيض فى غالب أيامه المباركة الميمونة ويدعو أصحابه وأمته إلى ذلك . حتى فى الكفن فهو أبهى للنظر وأجمل ، وأطهر وأطيب كما وصف رسول الله ﷺ .

حدثنا أحمد بن منيع ، حدثنا ابن زكريا بن أبى زائدة حدثنا أبى عن مصعب بن أبى شيبة عن صفية بنت أبى شيبة عن عائشة قالت : خرج رسول الله ﷺ ذات غداة أي فى صباح يوم مبكر وعليه مِرْطٌ من شعر أسود (والمرط : هو كساء واسع من صوف أو شعر أو كتان) وهذا يدل على أن رسول الله ﷺ يلبس الخشن من الثياب دلالة على تواضعه الجم وزهده العفيف .

حدثنا يوسف بن عيسى حدثنا وكيع ، حدثنا يونس بن أبى اسحاق عن أبيه عن الشعبى عن عروة بن المغيرة بن شعبة عن أبيه : أن النبى ﷺ لبس جبة رومية ضيقة الكمين . ويؤخذ من ذلك كله أن رسول الله ﷺ كان يلبس الصوف والكتان والخز وغير ذلك فى أى البلاد صنعت ، الخشن منها والرفيع وكان غالب لبسه من الخشن وكان يحب اللون الأبيض منها ، مع أنه كان يلبس غير ذلك . وكان ﷺ يعتنى بنضارة الثوب وطهارته استجابة لأمر الله تعالى وثيابك فطهر .

وبعد : ومازال الحديث فى شأن رسول ﷺ واسعاً ومديداً وفى كل ذلك خلق وعلم . وفى عيش رسول الله ﷺ مدد جديد وخير عديد . حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا حماد بن زيد عن أيوب عن محمد بن سيرين قال : كنا عند أبى هريرة وعليه ثوبان ممشقان أى مطرزان من كتان فتمخط فى أحدهما فقال : بخ بخ (كلمة تقال عند الرضا بالشيء

ولكن هنا في الحديث استعملت للإنكار) يتمخط أبو هريرة في الكتان؟ لقد رأيتني وإني لأخرُّ أى لأسقط فيما بين منبر رسول الله ﷺ وحجرة عائشة رضى الله عنها مغشياً على فيجيء الجائي فيضع رجله على عنقي يرى أن بي جنوناً ، وما بي جنون، وما هو إلا الجوع أى ما كان يصيب أبا هريرة رضي الله عنه من الجوع الشديد الذى كان يغشى عليه منه حتى يسقط على الأرض وذلك كان يحدث وقت ملازمته لرسول الله ﷺ ومعنى ذلك أن عيش رسول الله ﷺ كان في ضيق شديد بحيث لو كان عنده صلوات الله وسلامه عليه من طيب العيش لما ترك أبا هريرة جائعاً مغشياً عليه فكان مثلاً أعلى في مشاركة الأمة في كل أحوالها وضروراتها فلا يهنأ بعيش وحوله من حُرِم منه. فهو ﷺ أصبر خلق الله في مواطن الصبر. وأشكرهم في مواطن الشكر.

خُفُّه ﷺ

وإلى أمر آخر في شمائله الشريفة وهو خفه ﷺ حدثنا حماد بن السرى حدثنا وكيع عن فهم بن صالح عن حجير بن عبد الله عن ابن أبي بريدة عن أبيه: أن النجاشي أهدى النبي ﷺ خفين أسودين ساذجين (أى لا شعر فيهما ولانقش) فلبسهما ﷺ ثم توضأ ومسح عليهما وهذا يدل على قبوله ﷺ لهدية النجاشي ملك الحبشة وعلى مشروعية المسح على الخفين وإشارة إلى حسن المودة بينه ﷺ وبين المهدى.

أحاديث أخرى في نعله ﷺ

حدثنا إسحاق بن منصور حدثنا عبد الرازق عن معمر عن ابن أبي ذؤيب عن صالح مولى التوأة عن أبي هريرة: قال: كان لنعل رسول الله ﷺ قبالان أى رباطان. رباط لكل فردة.

حدثنا إسحاق بن موسى الأنصارى حدثنا معن حدثنا مالك عن سعيد ابن أبى المقبرى عن عبيد بن جريح أنه قال لابن عمر : رأيتك تلبس النعال السبتية، قال : إنى رأيت رسول الله ﷺ يلبس النعال التى ليس فيها شعر، ويتوضأ فيها، فأنا أحب أن ألبسها، ويفهم من ذلك أن النبى ﷺ كان يختار النعال السبيتة وهى من جلد البقر التى سبت شعرها (أى سقط فأصبحت خالية من الشعر) فتليق بالاستعمال فى الوضوء والطهارة والغسل وغير ذلك فلا يتعلق بها وسخ.

ومن هذا الحديث تبين حرصاً سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنه على الاقتداء برسول الله ﷺ فى لبس هذا النوع من النعال التى كان يلبسها صلوات الله وسلامه عليه.

ومن هذا الحديث تبين حرص سيدنا عبد الله بن عمر رضى الله عنهما على الاقتداء برسول الله ﷺ فى لبس هذا النوع من النعال التى كان يلبسها صلوات الله وسلامه عليه.

حدثنا إسحاق بن موسى الأنصارى حدثنا معن حدثنا مالك عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «لا يمشين أحدكم فى نعل واحد لينعلهما جميعاً أو ليحفهما جميعاً».

إن الحكمة النبوية الشريفة فى عدم مشى المسلم فى نعل واحدة. (أى يلبس فردة ويترك الأخرى دون نعال) لتبدو جلية فيما ينتج عن ذلك من عدم الوقار واختلال المشى وعدم أمن العثار وإيقاع غيره فى الإثم لاستهزائه بع إلا لمرض يمنعه من التنعل فى رجلة المصابة أو لأى ضرورة أخرى. إذا لم يكن هناك عذر فإما أن يلبس النعلين فى كلا القدمين وإما أن يمشى حافياً بدونهما.

حدثنا قتيبة عن مالك حدثنا إسحاق حدثنا معن. حدثنا مالك عن أبى الزناد عن

الأعرج عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : إذا انتعل أحدكم (أى بدأ يلبس نعليه) فليبدأ باليمين وإذا نزع (أى بدأ بخلع نعليه) فليبدأ بالشمال فلتكن اليمين أولهما يُنْعَل وآخرهما يُنْزَع .

حدثنا أبو موسى محمد بن المثنى حدثنا محمد بن جعفر قال : حدثنا شعبة قال : أخبرنا أشعث وهو ابن أبى الشعثاء عن أبيه عن مسروق عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ يحب التيمن ما استطاع فى ترجله (أى تمشطه) وتنعله وطهوره .

وهذا من مكارم أخلاقه وشرف سجاياه وجميل طباعه . لأن البدء باليمين فيه بركة وخير وفيه تفاؤل بأهل اليمين وهم أصحاب الجنة وفى ذلك خير كثير من الفضل والإحسان .

خاتم رسول الله ﷺ

فى أنوار شمائله ﷺ تستمد إنسانيتنا جمال الخلق وكريم الخصال .

فنصل الآن إلي ما جاء من أحاديث خاصة بخاتم رسول الله ﷺ وهو الخاتم الذى كان يلبسه أو يختم به ، وهذا الخاتم الذى نحن بصدده هو غير خاتم النبوة . وهو العلامة التى بين كتفيه ﷺ دليلاً على نبوته ورسالته إلى العالمين .

حدثنا قتيبة حدثنا أبو هوانة عن أبى بشر عن نافع عن ابن عمر : إن النبى ﷺ اتخذ خاتماً من فضة . فكان يختم به ولا يلبسه .

قال أبو عيسى : أبو بشر اسمه جعفر بن أبى وحشى وقيل فى ذلك : إن النبى ﷺ اتخذ هذا الخاتم حين أراد مكاتبة الملوك ليدعوهم إلى الإسلام إلى دين الله الحنيف ، وكان ذلك حوالى سنة ست من الهجرة الشريفة .

ونأتى إلى الحديث التالى الذى يبين لنا ماذا كان مكتوباً عليه .

حدثنا محمد بن يحيى حدثنا محمد بن عبد الله الأنصارى حدثنى أبى عن ثمامة عن أنس بن مالك قال : كان نقش خاتم رسول الله ﷺ : محمد فى سطر ، ورسول فى سطر . والله فى سطر . ويؤيد ذلك ما جاء فى البخارى : كان نقش خاتم رسول الله ﷺ ثلاثة أسطر وكان يلبسه فى يمينه وهو مستدير الشكل .

كما روى فى بعض الرسائل والكتب التى أرسلها إلى الملوك والحكام يدعوهم فيها إلى الإسلام .

وروى أنه كان يجعل فصه المنقوش عليه للداخل فى ما يلى الكف صوناً لتلك النقوش من التصادم بالأشياء الصلبة وهذا هو الخاتم الذى كان يطبع .

وكان له خاتم آخر لا يختم به كما ورد فى بعض الأحاديث الشريفة .

حدثنا نصر بن على أبو عمر ، وحدثنا نوح بن قيس عن خالد بن قيس عن قتادة عن أنس بن مالك : أن النبي ﷺ كتب إلي كسرى ملك فارس وقيصر ملك الروم والنجاشى ملك الحبشة فقيل له إنهم لا يقبلون كتاباً إلا بخاتم فصنع رسول الله ﷺ خاتماً حلقته فضة ونقش فيه (محمد رسول الله) ، ولذلك يندب اتخاذ خاتم من فضة للرجال ويلزم أيضاً ختم الأحكام والعقود والمراسيم وغير ذلك من المكاتيب الهامة حتى لا يتطرق الشك بين الناس فى مضمون ما كتب . وهكذا نأخذ من سنته ﷺ سُبُل الحياة الآمنة .

حدثنا إسحاق ابن منصور حدثنا سعيد بن عامر والحجاج بن منهال عن همام عن ابن جريج عن الزهرى عن أنس : أن النبى ﷺ كان إذا دخل الخلاء نزع خاتمه . والخلاء هو المكان الخالي فى الأصل ثم استعمل فى المحل المعد لقضاء الحاجة ومن هنا يعلمنا رسول الله ﷺ أسماء الله تعالى ويعلمنا أن كل شيء فيه ذكر الله تعالى لا يكون فى هذا المكان

وما يشمل ذلك من القرآن وكتب العلم والصحف وما وراء ذلك وبذلك يحرم شرعاً أن يدخل المسلم والمسلمة هذا المكان ومعه خاتم منقوش عليه اسم الله . أو غير ذلك كما بينا .

وهذه معصية يقع فيها كثير من الناس لدرجة أنهم يقرأون كتباً وصحفاً فى هذه الأماكن التى نهى الإسلام عن فعل ذلك فيها .

حدثنا محمد بن سهل بن عسكر البغدادى وحدثنا عبد الله بن عبد الرحمن قال : حدثنا يحيي بن حسان حدثنا سليمان بن بلال عن شريك بن عبد الله بن أبى نمر عن إبراهيم بن عبد الله بن حنين عن أبيه عن على بن أبى طالب رضي الله عنه : أن النبى ﷺ كان يلبس خاتما فى يمنيه .

حدثنا محمد بن يحيى حدثنا أحمد بن صالح حدثنا عبد الله بن وهب عن سليمان بن بلال عن شريك بن عبد الله بن أبى نمر نَحْوَه (أى بمعناه) وهذا تأكيد للحديث .

حدثنا محمد بن أبى عمر حدثنا سفيان عن أيوب بن موسى عن نافع بن عمر أن النبى ﷺ اتخذ خاتماً من فضة وجعل فصه مما يلى كفه ونقش فيه (محمد رسول الله) ونهى أن ينقش أحدٌ عليه . وهو الذى سقط من مُعَيْقيب فى بئر أريس .

قال الإمام النووى رضي الله عنه فى قوله : وجعل فصه مما يلى كفه ، هو أبعد عن الزهو والعُجْبْ . وأحفظ للنقش الذي فيه من أن يحاكى ، من أن ينقش مثله ، أو يصدم بصلب فيغير نقشه الذي اتخذ من أجله .

وهذا الخاتم الذى سقط فى بئر أريس من معيقيب وكان مُعَيْقيب هذا يحمل خاتم رسول الله ﷺ بأمر من عثمان بن عفان رضي الله عنه فى زمن خلافته .

وقيل : إن مُعَيْقيب كان به مرض الجذام فبرأ منه ببركة حمل خاتم رسول الله ﷺ وأيضاً

قيل كان بأنس علّة من برص فشفي بإذن الله تعالى ببركة النبي ﷺ.

حدثنا محمد بن عبيد المحاربي. حدثنا عبد العزيز بن أبي حازم عن موسى بن عقبة عن نافع عن ابن عمر قال: اتخذ رسول الله ﷺ خاتماً من ذهب فكان يلبسه في يمينه فاتخذ الناس خواتيم من ذهب. فطرحه وقال: لا ألبسه أبداً فطرح الناس خواتيمهم.

واتخاذ النبي ﷺ هذا الخاتم من الذهب كان قبل تحريم الذهب على الرجال. هذا من جانب.

ومن جانب آخر أنه ﷺ لما رأى الناس قد فعلت مثله. صلوات الله وسلامه عليه. وقد يكون في ذلك زهو وعجب من بعضهم أو يخشى عليهم من ذلك. فسارع إلى طرح هذا الخاتم حتى يتبعوه في ذلك. حيث هو القدوة الحسنة. وفعله ﷺ هو الأثر القوى في نفوس الأمة وكان ذلك فخلع الناس خواتمهم اقتداء بالرسول المعصوم ﷺ.

ثم كان تحريم الذهب على الرجال وكذلك الحرير حيث ورد أن رسول الله ﷺ قد خرج على الناس ذات يوم وفي إحدى يديه حرير وفي الأخرى ذهب ثم قال: «هذان حلال لنساء أمتي حرام على رجالها».

فلا يجوز بذلك استعمال الذهب للرجال على أى صورة من صور الاستعمال في خاتم أو دبلة كما يقال. أو حلية في ملبس أو حلية لمفاتيح أو غير ذلك مما شاع بين المسلمين في هذا الزمن وهم يعلمون الحرمة والنهى عن ذلك. فالذهب للرجال معصية مستمرة وهو قطعة من نار يلبسها الرجل في يده كما أخبر الصادق المصدوق ﷺ في حديثه الشريف: «أيعمد أحدكم إلى قطعة من نار فيلبسها في يده» وقانا الله وإياكم شر المعصية والمخالفة ورزقنا وإياكم حسن الطاعة والعمل.

إدام رسول الله ﷺ وما كان يأكل

مع النبى المصطفى ﷺ فى إدامه وما كان يأكل.

حدثنا الفضل بن صهيب الأعرج البغدادى حدثنا إبراهيم بن عبد الرحمن ابن مهدى عن إبراهيم بن عمر بن سفينة عن أبيه عن جده قال: أكلت مع رسول الله ﷺ لحم حُبارى (والحُبارى طائر طويل العنق لحمه بين البط والدجاج).

حدثنا يحيى بن موسى حدثنا عبد الرازق أنبانا مَعْمَر عن زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر بن الخطاب : قال رسول الله ﷺ: «كلوا الزيت وادّهنوا به. فإنه من شجرة مباركة» يقصد شجرة الزيتون لكثرة ما فيها من منافع.

حدثنا قتيبة بن سعيد عن مالك بن أنس عن إسحاق عن عبد الله بن أبى طلحة أنه سمع أنس بن مالك يقول: إن خياطاً دعا رسول الله ﷺ لطعام صنعه قال أنس: فذهبت مع رسول الله ﷺ إلى ذلك الطعام فقَّرب إلى رسول الله ﷺ خبزاً من شعير ومرقاً فيه دُبَاء (وهو ثمر اليقطين أى ثمر القرع) وقديد (وهو اللحم المجفف المقطع قطعاً) قال أنس: فرأيت رسول الله ﷺ يتتبع الدُبَّاء حوالى القصعة فلم أزل أحب الدُبّاء من يومئذ.

وهذا من جمال ما تحلى به ﷺ من الاستجابة لإخوانه من أهل الحرف وغيرهم من عامة الأمة ومؤاكلة الخدم.

وفى الحديث ما يدعو إلى التواضع واللطف مع الأصحاب، وكذلك حب ما كان النبى ﷺ يحبه.

حدثنا محمد بن إبراهيم الدورقى وسُلْمَة بن شبيب ومحمود بن غَيْلان قالوا: حدثنا أبو أسامة عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قال: كان النبى ﷺ حدثنا عن أبو

أسامه عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قال : كان النبى ﷺ يحب الحلواء والعسل . و(الحلواء هى كل ما فيه حلاوة . كالتمر يعجن باللبن وغير ذلك من الحلواء وكذلك العسل) . وكذلك العسل ففيه شفاء للناس .

يقول ابن حجر : إن محبته الأطعمة النفيسة لا ينافى الزهد إذا كانت من غير تكلف فى تحصيلها ولا ضيق فى عدم وجودها .

حدثنا قتيبة حدثنا ابن لهيعة عن سليمان بن زياد عند عبد الله بن الحرث قال : أكلنا مع رسول الله ﷺ شواء بالمسجد والشواء معروف وهو اللحم المشوى بالنار . وقد أكل النبى ﷺ بالمسجد بجواز ذلك للضرورة أو فى حال الاعتكاف .

حدثنا محمد بشار حدثنا داود عن زهير يعنى ابن محمد عن أبى إسحاق عن سعيد ابن عياض عن ابن مسعود قال : كان النبى ﷺ يعجبه الذراع قال : وسم فى الذراع . وكان يرى أن اليهود سموه . والذراع هو كتف الشاه . وكانت اليهود تعلم ذلك فدبروا ذلك مكراً وخبيثاً منهم .

﴿ ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين ﴾ .

والذى فعل ذلك هى زينب بنت الحرث امرأة سلام بن مشكم اليهود . وقد أحضرها ﷺ وقال لها : ما حملك على ذلك ؟ قالت : قلت إن كان نبياً لا يضره السُمْ، وإلا استرحنا منه . واحتجم ﷺ على كاهله علاجاً من السُمْ .

حدثنا ابن أبى عمر حدثنا سفيان بن عُيَيْنَةْ عن وائل بن داود عن أبيه وهو بكر بن وائل عن الزهرى عن أنس مالك قال : أوْلَم رسول الله ﷺ على صفية . بتمر وسويق، أى أقام وليمة عند زواجه بالسيدة صفية ينت حُيْى بن أخطب الإسرائيلية بعد فتح خيبر وقد أسلمت بعد زواجها من النبى ﷺ . وهى آخر زوجاته صلوات الله وسلامه عليه .

والتمر معروف والسويق ما يُعْمَل من دقيق الحنْطة والشعير.
فمن السنة أن يشهر الزواج وأن تقام وليمة لذلك يدعى إليها الناس. خاصة الفقراء فخير وليمة، وليمة دُعى إليها الفقراء وشر وليمة، وليمة لا يدعى فيها فقير فمن كمال السنة أن يفرح الفقير وأن يكون مسروراً بهذا الطعام.

وضوؤه ﷺ المتصل بالطعام والشراب

وبعد الأحاديث المباركة التى كانت فى أكله وخبزه. وإدامه تسعد قلوبنا بصفة أخرى من شمائله ﷺ وهى متصلة أيضاً بالطعام وهى وضوؤه وما فيه من أحكام هامة لابد لنا من معرفتها حتى يكمل الاقتداء به عادةً وعبادةً وفى العمل بما كان عليه ﷺ من عادة وعبادة هى قربى إلى الله جلّ وعلا.

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً (٢١) ﴾ «الأحزاب: ٢١»

حدثنا أحمد بن منيع، حدثنا إسماعيل بن إبراهيم عن أيوب عن ابن أبى مُلَيْكة عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ خرج من الخلاء (من المكان التى تُقْضَى فيه الحاجة) وسمى بذلك لخلوه من الناس فَقُرِّب إليه الطعام فقالوا: ألا نأتيك بوضوء أى بماء تتوضأ منه. قال: إنما أمرْت بالوضوء إذا قمت إلى الصلاة. وأيضاً حدثنا يحيى بن موسى حدثنا عبد الله بن نمير، حدثنا قيس بن الربيع. وحدثنا قتيبة حدثنا عبد الكريم الجرجاني عن قيس بن الربيع عن هشام عن زاذان عن سلمان قال: قرأت فى التوراة أن بركة الطعام الوضوء بعده. فذكرت ذلك للنبى ﷺ وأخبرته بما قرأته فى التوراة. فقال رسول الله

بركة الطعام فى الوضوء قبله والوضوء بعده وهذا من محاسن الإسلام كما بين رسول الله ﷺ أن يغسل المسلم يديه قبل الطعام وبعده وهذا هو المقصود من قوله ﷺ فى هذا الحديث وليس المراد هو الوضوء المعروف شرعاً قبل الدخول فى الصلاة وغيرها .

والحكم فى ذلك تعظيم نعمة الله تعالى ليبارك الله له فيها ، وتنظيف اليدين اللتين يتناول المسلم بهما الطعام . والتأكد من خلوهما من التلوث فغسلهما عبادة لأنه اقتداء برسول الله ﷺ .

حدثنا قتيبة حدثنا ابن لُهيْعة عن يزيد بن أبى حبيب عن راشد اليافعى عن حبيب بن أوس عن أبى أيوب الأنصارى قال : كنا عند النبى ﷺ يوماً فَقُرِّب طعام . فلم نر طعاماً أعظم بركة منه أول ما أكلنا ولا أقل بركة فى آخره . فقلنا يا رسول الله كيف هذا ؟ قال : إنا ذكرنا اسم الله حين أكلنا .

ثم قعد من أكل ولم يُسَم الله تعالى فأكل معه الشيطان . فالتسمية فى بداية الأكل سُنَة كريمة يبارك فى الأكل بعدها ، ولكن قد ينسى المسلم فى التسمية حين يأكل فى البداية ويأتى الحديث ليذكر المسلم بالتسمية أيضاً فى أى لحظة يذكرها وهو يأكل .

حدثنا يحيى بن موسى حدثنا أبو داود حدثنا هشام الدستوائي عن بديد العقيلى عن عبدا الله بن عمير عن أم كلثوم عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ :«إذا أكل أحدكم فنسى أن يذكر ة على طعامه فليقل : «بسم الله أوله وآخره» .

وللطعام كثير من الآداب ونبينا ﷺ هو خير من علَمنا الله على يديه .

حدثنا عبد الله بن الصباح الهاشمى البصرى حدثنا عبد الأعلى عن معمر عن هشام بن عروة عن أبيه عن عمر بن أبى سُلْمَة : أنه دخل على رسول الله ﷺ وعنده طعام فقال : ادْنُ يا بنى (أى قَرِّب منى) فسِّم الله تعالى وكُل بيمينك وكل مما يليك . وهكذا يتطلف

النبي ﷺ بالصغير ويقول له (يا بني) شفقة ورأفة بحاله لشدة ما يكون الصغير على استحياء وبعد ذلك يأتي دور التأديب والتعليم بعد أن أنس الصغير واطمأن وهو التسمية في البداية والأكل باليمين لأنه بركة. ونهى النبي ﷺ عن الأكل بالشمال لأن الشيطان يأكل بالشمال، والأكل مما يليه حتى لا يتأذى الغير منه. وبذلك يعلمه ﷺ حسن العشرة وأدب الألفة وهذا إذا كان الطعام صنفاً واحداً الثريد واللحم وشبههما أما إذا كان أصنافاً مختلفة كالتمر والفاكهة فلا بأس أن يختار ما يريد وإن كان أمام واحد آخر بلطف وأدب.

حدثنا محمود بن غيلان حدثنا أبو أحمد الزبيري حدثنا سفيان عن أبي هاشم عن إسماعيل بن رباح عن أبيه رباح بن عبيدة عن أبي سعيد الخدري قال: كان رسول الله ﷺ إذا فرغ من طعامه قال: «الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين (أي موحدين مطيعين لله) وفي ختام الأكل بالحمد لله إشارة إلى أن المطلوب من العبد كلما تجددت عليه نعمة.. يعتقد أنها من الله أن يحمده عليها وفي الحديث الجمع بين الحمد على النعم الدنيوية والأخروية.

حدثنا محمد بن بشار حدثنا يحيى بن سعيد حدثنا ثور بن يزيد عن خالد ابن معدان عن أبي أمامة قال: كان رسول الله ﷺ إذا رفعت المائدة من بين يديه يقول: «الحمد لله حمداً طيباً مباركاً فيه غير مودع ولا مستغنى عنه ربنا».

حدثنا هنّاد ومحمود بن غيلان قالا: حدثنا أبو أسامة عن زكريا بن أبي زائدة عن سعيد بن أبي بردة عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها أو يشرب الشربة فيحمده عليها» وكم في ذلك من عبادة وهي عادة.

الطعام والشراب عادة ولكن جعلهم الرسول ﷺ عبادة ترضى الله حتى لا ينسى المسلم ربه ويُشْغَل بالنعمة عن المنعم. وبعد الطعام يأتى خبر الفاكهة فى الشمائل المحمدية.

حدثنا إسماعيل بن موسى حدثنا إبراهيم بن سعد عن أبيه عن عبد الله بن جعفر قال: كان رسول الله ﷺ يأكل القثاء بالرطب (والقثاء نوع من الخيار المعروف والرطب هو ثمر النخل إذا نضج) والقثاء بارد رطب يسكن العطش ومطفىء للحرارة والرطب حار فكان ﷺ يجمع بينهما لتمام الفائدة للجسم وصحة البدن.

حدثنا عبدة بن عبد الله الخزاعى البصرى حدثنا معاوية بن هشام عن سفيان عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها: أن رسول الله ﷺ كان يأكل البطيخ بالرطب. وأيضاً يجمع النبى ﷺ بين البطيخ وهو طعام حلو بارد والرطب وهو حار.

وذلك اهتمام دقيق بما يصلح المعدة من أنواع الطعام وهذا بلا شك فيه مراعاة لقوانين التغذية على الوجه الأكمل. فنعم الرسول الطيب ونعم الرسول الطبيب ﷺ.

حدثنا قتيبة بن سعيد عن مالك بن أنس وحدثنا إسحق بن موسى حدثنا معن حدثنا مالك عن صهيب بن أبى صالح عن أبيه عن أبى هريرة قال: كان الناس إذا رأوا أول الثمر جاءوا به إلى رسول الله ﷺ فإذا أخذه رسول الله ﷺ قال: «اللهم بارك لنا فى ثمارنا وبارك لنا فى مدينتنا وبارك لنا فى صاعنا وفى مُدِّنا.. اللهم إن إبراهيم عبدك وخليلك ونبيك وإنى عبدك ونبيك وإنه دعاك لمكة، وإنى أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك به لمكة ومثله معه»

قال: ثم يدعو أصغر وليد يراه فيعطيه ذلك الثمر. فهذا دعاء مبارك للمدينة المنورة لثمارها وسائر ما فيها وكيف لا؟! وفيها رسول الله ﷺ. فقد انعقد الإجماع على أن مكة والمدينة وبيت المقدس أفضل بقاع الأرض على الإطلاق. وفى الحديث حكمتان

جليلتان :

أولهما إطعام النبى ﷺ باكورة الثمار لأصغر طفل موجود فى ذلك الوقت فإن كان صغيراً حَنَّكَه وخلط الثمر بريقه الشريف ﷺ ولَيَّنَه له وإن كان يستطيع الأكل أكَّله لكثرة رغبة الولدان فى الحلو .

ثانيهما : عدم أكله ﷺ من الثمر إشارة إلى أنه لايتطلع إلى ما فى أيدى الناس ولا يستأثر بها عن بقية جماعة المسلمين وإنما يأكل منها إذا كثرت وعَمَّت فيتساوى مع الناس فى ذلك . وكم لهذا التصرف من مغزى خطير ودستور قوى وتربية فائقة القدر عظيمة الشأن وهو ربط وثيق بين الراعى والرعية .

شُرْبه ﷺ

مع صفات النبى ﷺ الحميدة وما زلنا معه صلوات الله وسلامه عليه فى شربه وما وراء ذلك من أخلاق رفيعة وحِكَم بليغة .

كان النبى ﷺ يشرب فى أقداح مختلفة ، والقدح هو الوعاء أو الإناء الذى فيه الماء ويستعمل لهذا الغرض . وأقداحه ﷺ هى : الريان وآخر مهيق وثالث من زجاج ورابع من عيدان من خشب النخل .

حدثنا الحسين بن الأسود البغدادى حدثنا عمرو بن محمد حدثنا عيسى بن طهمان عن ثابت قال : أخرج علينا أنس بن مالك قدح خشب غليظاً مضبباً بحديد أى شُدَّ خَشَبُه بحديد حتى لا يتفرق خشبه بعضه من بعض وقال : يا ثابت هذا قدح رسول الله ﷺ .

حدثنا أبو عمر عن السفيان عن معمر عن الزهرى عن عروة عن عائشة رضى الله عنها

قالت: كان أحب الشراب إلى رسول الله ﷺ الحلو البارد، سواء كان حلوا ممزوجاً بعسل أو تمراً منقوعاً أو زبيباً كذلك، سواء كان فى لبن أو ماء. وفى كُلٍّ خيرٌ للبدن وصحة للمعدة وقوة وعافية.

حدثنا أحمد بن منيع حدثنا إسماعيل بن إبراهيم أنبأنا على بن زيد عن عمر هو ابن أبى حرملة عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: دخلت مع رسول الله ﷺ أنا وخالد بن الوليد على ميمونة أم المؤمنين رضى الله عنها فجاءتنا بإناء من لبن فشرب رسول الله ﷺ وأنا عن يمينه وخالد عن شماله فقال لى: الشربة لك فإن شئت آثرت بها خالداً. فقلت: ماكنت لأوثر علي سؤرك أحداً (أى أوثر بنصيبى منك لأحد) ثم قال رسول الله ﷺ: «من أطعمه الله طعاماً فليقل، اللهم بارك لنا فيه وأطعمنا خيراً منه ومن سقاه عزو جل فليقل، اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه» وقال: ثم قال رسول الله ﷺ «ليس شيء يجزى مكان الطعام والشراب غير اللبن». حدثنا أحمد بن منيع حدثنا هشيم أنبأنا عاصم الأحول ومغيرة عن الشعبى عن ابن عباس رضى الله عنهما: أن النبى ﷺ شرب من زمزم وهو قائم. وزمزم اسم للبئر المعروف فى الحرم المكى وسميت بذلك لأن أمنا هاجر عليها السلام لما تفجرت لها العين وفاض ماؤها قالت لها: زُمِّى (أى أمسكى). وشرب النبى ﷺ وهو قائم لبيان جواز ذلك مع أن الأفضل أن يشرب الإنسان وهو جالس فذلك أتم وأكمل لصحة البدن. وقد فعل النبى ﷺ الأمرين كما جاء فى الحديث التالى:

حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا محمد بن جعفر عن حسين المعلم عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: «رأيت رسول الله ﷺ يشرب قائماً وقاعداً. أى رآه يشرب قائماً وفى وقت آخر يشرب قاعداً.

حدثنا أبو كريب محمد بن علاء عبد الملك بن ميسرة عن النزال بن صبرة قال : أوتى على رضي الله عنه بكوز من ماء وهو في الرحبة وهو المكان المتسع وهى رحبة مسجد الكوفة وكانت وسط المسجد وكان على كرم الله وجهه يجلس فيها للتدريس فأخذ منه كفة فغسل يديه ومضمض واستنشق ومسح وجهه وذراعيه ورأسه ثم شرب وهو قائم ثم قال :

هذا وضوء من لم يحدث وهكذا رأيت رسول الله ﷺ فعل (والمراد بذلك التنظيف فقط وإلا فالوضوء من الحديث أن الشرب من فضل الوضوء مستحب أى من بقية ماء الموضوء وأن الشرب من وقوف جائز والأفضل تركه.

حدثنا بن سعيد ويوسف بن حماد قالاً : حدثنا عبد الوارث بن سعيد عن أبى عاصم عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبى ﷺ كان يتنفس في الإناء ثلاثة إذا شرب على ثلاث مرات وفى كل مرة يبعد الإناء عن فيه فيتنفس ثم يعود للشرب وهكذا، ولا يفهم أن التنفس فى الإناء ذاته لأن النبى ﷺ قد نهى عن ذلك لما فيه من عدم اللياقة والقبح وألا يتأذى منه الآخرون وأيضاً هو ألذ فى الشرب وأحسن شرباً وطعماً.

وورد فى ذلك أن النبى ﷺ كان يشرب فى ثلاثة أنفاس : فإذا أدنى الإناء إلى فيه سمى الله تعالى. وإذا أخَّره حَمد الله تعالى. ويفعل ذلك ثلاثاً ونهى أيضاً عن العَبِّ نَفَساً واحداً أى عن الشرب مرة واحدة وقال : «ذلك شرب الشياطين» وورد أيضاً : «إذا شرب أحدكم فليمصَّ الماء مصا ولا تشربوه عَبًّا فإن العب يورث الكباد، وهو وجع الكبد».

حدثنا عبد الله بن عبد الرحمن أخبرنا أبو عاصم عن عبد الكريم عن البراء بن زيد بن أنس بن مالك : أن النبى ﷺ دخل وقربة معلقة فشرب من فم القربة وهو قائم فقامت

أم سليم إلى رأس القربة فقطعتها . شرب النبى ﷺ بغير إناء لبيان جواز ذلك وهذا من باب التيسير على الناس إذا لم يوجد قدح أو إناء يشرب فيه .

هذا ومن فرحة أم سليم وسرورها قطعت فم القربة حتى لا تبقى معلقة فيشرب أحد منها بعد ذلك وذلك تبركاً برسول الله ﷺ وحباً فيه .

وفيه ماكان عليه ﷺ من التواضع لأصحابه وتيسير الأمور عليهم وعدم تكليفهم بالنسبة له فى أمر يصعب عليهم وهذه بركة الأخوة وجمال الصحبة وفيه مدى حب أصحابه له ﷺ .

تَعَطُّره ﷺ

نأتى إلى شىء آخر من الشمائل المحمدية وهى تعطره ﷺ بالطيب وهو الطيب المطهر تشريعاً لأمته ، ولأنه صلوات الله وسلامه عليه كان يتلقى القرآن من جبريل عليه السلام وكانت الملائكة تأتى كثيراً وحتى يكون فى أبهى إنسانيته ذاتاً وصفاتٍ .

وذكر البخارى فى ذلك : لم يكن النبى ﷺ يمر فى طريق فيتبعه أحد إلا عرف أنه سلكه من رائحته ﷺ طيباً وعرقاً . كما أخبر أنس : ما شممت عنبراً ولا مسكاً ولا شيئاً أطيب من عرق رسول الله ﷺ وقيل : وكان رسول الله ﷺ يصافح المصافح فيظل يومه يجد ريحها . وكان يضع يده على رأس الصبى فكان يعرف من بين الصبيان بطيب الرائحة . وفى صحيح مسلم : أنه ﷺ نام عند أم سليم أم أنس فعرق فجمعت عرقه فى قارورة فاستيقظ فقال : ما هذا الذى تصعنين يا أم سليم ؟ فقالت : هذا عرقك نجعله لطيبنا وهو أطيب من الطيب ﷺ .

حدثنا محمد بن رافع وغير واحد قالوا : أنبأنا أبو أحمد الزبيرى حدثنا شيبان عن عبد

الله بن المختار عن موسى بن أنس بن مالك عن أبيه قال : كان لرسول الله ﷺ سكة يتطيب منها . (والسكة إما وعاء يوضع فيه الطيب أو هو نوع من الطيب) حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا بن أبى فديك عن عبد الله بن مسلم بن جندب عن أبيه عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : ثلاث لا ترد (أى إذا أهديت لمسلم) . الوسائد (جمع وسادة وهى المخدة) والدهن (وهو ما يدهن به من زيت ونحوه) . والطيب (أى ذو الرائحة الطيبة) وفى حديث آخر واللبن. حدثنا محمود بن غيلان أبو داود الحفارى عن سفيان عن الجريرى عن أبى نضرة عن رجل هو الطفاوى عن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ «طيب الرجال ما ظهر ريحه وخفى لونه وطيب النساء ما ظهر لونه وخفى ريحه» وطيب الرجال هنا كالمسك والعنبر والكافور . وطيب النساء كالزعفران والحناء والصندل وهذا لوجهها فقط وفى بيتها ولا تتعطر لغير محرم ولا تخرج من بيتها وهى متعطرة أى كثيرة التعطر .

وفى الحديث : «أيما امرأة استعطرت فمرت على قوم ليجدوا ريحها فهى زانية» . أما فى بيتها فلتتطيب كما شاءت . وما يجرى الآن بين النساء المسلمات من التزين والتعطر خارج البيت منافٍ للشرع مؤدٍ للفتنة والفساد .

ويقول فى ذلك ﷺ : «ونساء كاسيات عاريات مائلات مميلات لهن رؤوس كأسنمة البُخْت أولئك لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها» .

مع النبى ﷺ فى كلامه الشريف

فهو الكلام الملهم، كلام الحق والهدى والعدل والقسطاس هو كلام العلم وهو علم الكلام.

فصاحة وتبياناً. وبلاغة وإعجازاً وقوة وحجة. ورقة وعذوبة. مع القول الفصل البليغ السهل.

مع اللسان الطاهر النقى، والنطق الباهر النقى مع الكلمة العربية قرآناً وسنة فكم للعربية من شرف وللعرب من فخر.

يقول ﷺ: «أحبوا العرب لثلاث: لأنى عربى، والقرآن عربى، وكلام أهل الجنة عربى». رواه الطبرانى والحاكم والبيهقى وعن ابن عباس رضى الله عنهما حدثنا حميد بن مسعدة البصرى حدثنا حميد بن الأسود عن عروة عن عائشة. رضى الله عنها قالت: ما كان رسول الله ﷺ يسرد الكلام كسردكم هذا ولكن كان يتكلم بكلام بين فصل يحفظه من جلس إليه.

أى لم يكن كلام النبى ﷺ بالسرعة التى لا تُفْهم يصل بعضه ببعض بغير تأنٍّ وروية، وإنما كان كلامه مرتباً مفصولاً بعضه عن بعض فى عباراته الشريفة مع الفصاحة والبيان والحكمة بحيث يفهم سامعه كل الفهم. ويصل كلامه إلى القلب والعقل.

وفى الحدث الصحيح: تروى السيدة عائشة رضى الله عنها: كان يحدث حديثاً لو عدَه العادُّ لأحصاه فلا كلام يماثل كلامه فى الرونق والحُسْن والبَهْجة والجمال.

ومن ثَمَّ كان يأخذ بمجامع القلوب حيث لا هوى ولا علَة. ﴿وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى﴾. فألف الله به القلوب وجمع به الأرواح.

حدثنا محمد بن يحيى حدثنا أبو قتيبة سَلْم بن قتيبة عن عبد الله بن المثنى عن ثمامة عن

أنس بن مالك قال : كان رسول الله ﷺ يعيد الكلمة ثلاثاً لتُعْقَل عنه . وهذا علم جديد يعلمنا إياه المصطفى ﷺ وهو إعادة الجملة مرتين أو ثلاثاً وأكثر بحسب حال المستمع وأهمية الكلام الذي يقال حكمة منه ﷺ وبلاغة وكما قيل : لكل مقام مقال .

ولا يخفي أن المراد من ذلك هو دقة الفهم وكمال الاستيعاب وأمانة التبليغ والاطمئنان على الأمة فيما وصل إليها من الله .

حدثنا سفيان بن وكيع حدثنا جُمَيْع بن عمر بن عبد الرحيم العجلي قال : حدثنا رجل من بنى تميم عن ولد أبى هالة زوج خديجة (يكنى أبا عبد الله) عن الحسن بن على رضى الله عنهما : قال :

سألت خالى هند بن أبى هالة . وكان وصافاً فقلت صف لى منطق رسول الله ﷺ .

قال : كان رسول الله ﷺ متواصل الأحزان . دائم الفكرة ليست له راحة طويل السكت (أى هو المستغرق فى التفكير فى صنع الله لا كَسَلَ ولا ركون فى حياته ، فكان يعيش فى عظمة الله وقدرته وجلاله) لا يتكلم فى غير حاجة ، يفتتح الكلام ويختتمه باسم الله تعالى . (فى البداية يسم الله وفى النهاية يحمد الله) ويتكلم بجوامع الكلم (أى بالكلمات القليلة الجامعة لمعان كثيرة على حد القول خير الكلام ما قل ودل) .

كلامه فصل لا فضول ولا تقصير (أى وسط عدل بين الإفراط والتفريط . لا زيادة فيه ولا نقصان) ليس بالجافى ولا بالمهين (أى لا يبدو فى كلامه جفاء لأحد ولا إهانة لمخلوق فهو ليس بغليظ الطبع السيىء الخلق) .

فعظيم كلامه من عظيم خلقه ﷺ .

يعظِّم النعمة وإن دقت (أى لا يستصغر شيئاً من نعم الله) ولا يذم منها شيئاً غير أنه لم يكن يذم ذواقاً ولا يمدحه (أى لا يشغل نفسه بمدح المأكول أو المشروب) فذلك

يُشْعر بالحرص والشَّرَه. ولا تغضبه الدنيا وما كان لها (لعلمه ﷺ أنها لا تساوى عند الله جناح بعوضة فهو لا يبالى بها لسرعة فنائها وكثرة عنائها). فإنْ تُعُدِّىَ الحق لم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر له. (فهو ﷺ لا يغضب إلا لله. ولأجل إحقاق الحق وانتصاره ولا يمنعه فى ذلك مانع ولا يقف فى طريقه شيء من الدنيا مهما كان). ولا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها، (بل يقابل ذلك بالحلم والصبر والعفو. عملاً بقوله تعالى: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ «الأعراف:١٩٩» إذا أشار أشار بكفه كلها (فلا يشير بأصابعه شأن أهل الكبر والرياء) وإذا تعجب قلبها (جعل باطنها إلى أعلى) وإذا تحدث اتصل بها وضرب براحته اليمنى بطن إبهامه اليسرى. (بمعنى أن حديثه يقارن تحريك يده لقصد الإفهام).

وإذا غضب أعرض وأشاح (أى أعرض إعراضاً شديداً) وإذا فرح غض طرفه (أى إذا فرح من شيء غض بصره ولا ينظر إليه نظر شره وحرص على الدنيا) جُلُّ ضحكه التبسم يفتر عن مثل حب الغمام (أى يضحك ضحكاً حسناً كاشفاً عن سن مثل حَبِّ الغمام وهو البرد) لأنه يشبه اللؤلؤ.

وفيه إشارة إلى شكل أسنانه ﷺ وخير ما قيل فى فضل هذا الحديث الشريف ينبغى للإنسان ألا يكون خاملاً غافلاً لا يهمه إلا الأكل والشِّبَع واللهو واللعب فإن ذلك معطل للنعمة التى أنعم الله بها عليه وميزه بها على البهائم، ألا وهى نعمة العقل فينبغى أن يكون دائم التفكر فيما يصلح الحال والمآل. وهذا التفكر على درجات.

أولها: أن يعنى بشئون نفسه ومن يلى أمرهم من أهله وغيرهم.

ثانيها: أن يفكر فى عمل الخير والابتعاد عن الشر مع التمسك بالحلال والبعد عن الحرام ليكون الجزاء حسناً.

ثالثها : وهو أرقاها وأجلها وأشرفها وهو أن يتفكر فى مصنوعات الله وكيف خلق الله هذا العالم وصوَّره وأبدعه وخلق له مقوماته ، وكيف يقسم الرزق على العباد وغير ذلك مما يبعث فى نفسه صدق العقيدة ويقويها لديه فيكون بذلك قوة عاملة مفكرة لا أن يكون قوة معطلة مهملة .

ومنها ألايكون الإنسان مكثراً من الكلام فى غير حاجة وألا يتدخل فيما لا يعنيه وألا يكون غليظ الطبع جافياً بل يكون رقيقاً فإن ذلك أدعى إلى محبة الناس له .
ومحبة الناس من محبة الله تعالى ، ومن الرقة فى الأخلاق ألا يحقر أو يهين أحداً وما أحسن ما أخبر به أنس رضي الله عنه . «خدمت رسول الله عشر سنين فما قال لى على شىء فعلته : لم فعلته ؟ وما قال لى على شىء لم أفعله : لم لم تفعله ؟ وما قال لى : أُفَ . قط» .
ومن الرقة فى الأخلاق أن يكون راضياً بنا يقسمه الله له من النعمة وأن يشكره عليها وأن يعرف قدرها وإن قل فإن القليل من الجليل جليل .

ومنها ألا يجعل طبعه أن يذم نوعاً من الأكل أو يمدحه فإن ذلك علامة النهم والشره ، ومنها ألا تهمه الدنيا . فلا يأخذ زخرفها الزائل ولا نعيمها الفانى بل يعمل لما هو خير منها وماله صفة الدوام والبقاء .

ومنها ألا يكثر الإنسان من الضحك بصوت عال وهو ما يسمى القهقهة ، فإن ذلك مميت للقلب مقلل للشعور بالواجب بل يكون ضحكه التبسم وهو تحريك الشفتين بغير صوت ولايبالغ ويسترسل فى غضبه ولا فى فرحه بل يحكم نفسه فى كل منهما لأنها عوارض زائلة .

حدثنا الحسن بن صباح البزار حدثنا أبو النضر حدثنا أبو عقل الثقافى عبد الله بن عقيل عن مجالد الشعبى عن مسروق عن عائشة قالت : حدث رسول الله ﷺ ذات ليلة

نساءه حديثاً، فقالت امرأة منهن: كان الحديث حديث خرافة.

فقال: أتدرون ما خرافة؟ إن خرافة كان رجلاً من عذرة وهى قبيلة مشهورة من اليمن أسرته الجن فى الجاهلية فمكث فيهم دهراً. أى زمنا طويلاً وكان ذلك كثيراً قبل الإسلام وهو اختطاف الجن للإنس. ثم ردوه إلى الإنس أى أعادوه إليهم، فكان يحدث الناس بما رأى فيهم، أى فى الجن من الأعاجيب فقال الناس حديث خرافة أى تداول الناس كلامه الذى حكى فيه من القصص الغريبة، وكانوا يستملحون ما يقول. ويستغربون ذلك لأنها بعيدة عن واقعهم وعن حياتهم العادية.

والغرض من هذا الحديث أن النبى ﷺ كا يسامر نساءه لحسن العشرة ولإعطائهن حقوقهن ومن ذلك إدخال السرور عليهن فى الوقت الذى يجلس فيه معهن ﷺ وذلك لربط القلوب وانشراحها وزيادة المحبة.

حدثنا محمد بن بشار حدثنا عبد الرحمن بن مهدى حدثنا سفيان الثورى عن عبد الملك بن عمير حدثنا أبو سلمة عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: إن أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد. ألا كل شىء ما خلا الله باطل. وكاد أمية بن أبى الصلت أن يسلم.

لقد استملح النبى ﷺ قول لبيد بن ربيعة العامرى، وكان أفصح شعراء العرب أسلم وحسن إسلامه وعاش خمسين سنة وبعد إسلامه أحجم عن الشعر فقيل: ما بالك لا تقول الشعر؟ قال: كيف يكون لى شعر وفى الأرض البقرة وآل عمران.

وهذه الكلمة شطر من بيت لبيد عبر فيها عن التزهيد فى الدنيا والتعلق بالحى القيوم ولا وجود حقيقى لشىء له صفة الدوام إلا الله جل وعلا.

﴿ كل شىء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون ﴾ «القصص: ٨٨».

وهذا هو التوحيد الحق.

والشطر الثانى من البيت: «وكل نعيم لا محالة زائل».

أما أمية بن أبى الصلت الذى ورد ذكره فى الحديث الشريف فكان شاعراً ولكنه أدرك الإسلام ولم يسلم.

وقد سمع النبى ﷺ له مائة بيت من الشعر وقال فى حقه كاد أن يسلم أى قرب من الإسلام فى معتقداته من حيث إيمانه بالبعث وذكر المعانى الفاضلة فى شعره ولكنه لم ينطق بالشهادتين ومات كافراً أيام حصار الطائف.

ومن هذا كله كان ﷺ يعجبه الطيب من القول وينسبه إلى أصحابه وهذه أمانة الكلمة.

حدثنا إسحق بن منصور حدثنا عبد الرازق حدثنا جعفر بن سليمان حدثنا ثابت عن أنس: أن النبى ﷺ دخل مكة فى عمرة القضاء وابن رواحة ينشئ بين يديه (أى يؤلف شعراً جديداً) وهو يقول:

خلوا بنى الكفار عن سبيله

اليوم نضربكم على تنزيله

ضرباً يزيل الهام عن مقيله

ويذهل الخليل عن خليله

فقال له عمر: يا بن رواحة بين يدى رسول الله ﷺ وفى حرم الله تقول الشعر؟ (أى يستنكر ذلك فهما من قوله تعالى: ﴿والشعراء يتبعهم الغاوون﴾ «الشعراء:٢٢٤». خاصة وأن قالوا هذا الشعر بين يدى الرسول وفى الحرم.

فقال ﷺ: خلِّ عنه يا عمر (أى دعه واتركه يقول) لهى فيهم أسرع من نَضْح النبل أى

تأثير الكلمات والشعر الذى يقوله فيهم أسرع وأشد فى إيذائهم من رمى النبل بالسهام.

وأيضاً هذا من حكمة النبى ﷺ فى توضيح معنى الآية الكريمة فى سورة الشعراء ﴿ والشعراء يتبعهم الغاوون ﴾ وذلك فى الشعر الذى فيه فساد المجتمع من رياء ونفاق وغزل فاضح وكذب وضلال ومجون وما شابه ذلك. أما الشعر الجاد الذى يحث على الفضيلة والشرف والعلم والجهاد وغير ذلك من محاسن الأخلاق فهو الشعر الذي استحسنه ﷺ وسمعه وأقره ودافع عنه.

كلماته العذبة ومزاحه ﷺ الذى يشرح الصدور وتُسَرُّ به القلوب

أما مزاحه ﷺ وكلماته العذبة الرقيقة التى تنشرح بها الصدور وتسر منها القلوب فهى من جواهر ما ورد فى سنته المطهرة رحمة منه للأمة وتواضعاً لها وخفضاً للجناح وتطييباً للنفوس وأنساً للأصحاب.

حدثنا محمود بن غيلان حدثنا أبو أسامه عن شريك عن عاصم الأحول عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن النبى ﷺ قال: يا ذا الأذنين. قال أبو أسامة: يعنى يمازحه.

والنبى ﷺ إنما يقصد بقوله يا ذا الأذنين أى يا صاحب الأذنين الواعيتين الضابطتين لما سمعتا وصفه بذلك مدحاً له لذكائه وفطنته مع قصد الممازحة البرئية الشريفة الخالية

من الأذى والتجريح فقد ناداه بأقوى حاسة فيه، وهذا من لطيف أخلاقه وجميل قربه من أصحابه ﷺ .

حدثنا هناد بن السرى حدثنا وكيع عن شبعة عن أبى التباح عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : إن كان رسول الله ﷺ ليخالطنا حتى يقول لأخ لى صغير : يا أبا عمير ما فعل النغير ؟ (وهو طائر صغير كان معه) .

قال أبو عيسى وفقه هذا الحديث أن النبى ﷺ كان يمازح وفيه أنه كنى غلاماً صغيراً فقال له يا أبا عمير .

وفيه أنه لا بأس أن يعطى الصبى الطير ليلعب به، إذا كان يحافظ عليه ولا يؤذيه .

وإنما قال له النبى ﷺ يا أبا عمير ما فعل النغير ؟ لأنه كان له نغير يلعب به فمات . أى وجده بلا إيذاء تسبب فى موته فحزن الغلام عليه، فمازحه النبى ﷺ فقال : يا أبا عمير ما فعل النغير ؟ ليذهب حزنه ويسليه .

وهذا هو المقصود بالممازحة .

وكم لهذا من أثر فى قلوب الناس وكم لهذا التصرف من مغزى عميق واسع لاهتمامه ﷺ بجميع الأمة وكبارها وصغارها رجالها ونسائها فقرائها وأغنيائها أصحائها ومرضاها فى كل أحوالهم .

مع الرسول ﷺ فى حركته علماً وجهاداً وسكونه ونومه

نحن مع الرسول ﷺ فى حركته علماً وجهاداً وسعياً فى مرضاة الله فى كل شئونه.
ومعه أيضاً فى سكونه ونومه ﷺ حتى نتعلم منه كمال دائرة الحياة وإن كانت تنام عيناه فقلبه لا ينام صلوات الله وسلامه عليه.

حدثنا محمد بن المثنى حدثنا عند الرحمن بن مهدى حدثنا إسرائيل عن إبى إسحاق عن عبد الله بن يزيد عن البراء بن عازب. أن النبى ﷺ كان إذا أراد أن يأخذ مضجعه وضع كفه اليمنى تحت خده الأيمن وقال: «رب قنى عذابك يوم تبعث عبادك».

ومن هنا ندرك أن النبى ﷺ كان ينام على جنبه الأيمن واضعاً راحته تحت خده الأيمن، وذلك أيسر وأقرب إلى الانتباه بخلاف النوم على الجنب الأيسر فإنه يضغط على القلب ويعطل الهضم ويكثر الأحلام الطائشة. والنوم على الجنب الأيمن فيه بركة وراحة واستغراق وأمان ويسن هذا الدعاء قبل النوم حتى يكون النائم فى وديعة الله ورضوانه. فآخر شيء يصنعه المسلم هو ذكر الله عند النوم. وهذا من المحاسن النبوية الغالية التى أُكْرِمت بها الأمة من شمائله ﷺ.

حدثنا محمود بن غيلان، حدثنا عبد الرازق، حدثنا سفيان عن عبد الملك بن عمير عن ربعى بن خراش عن حذيفة قال: كان النبى ﷺ إذا آوى إلى فراشه قال: «اللهم باسمك أموت وأحيا».

وإذا استيقظ قال: «الحمد لله الذى أحيانا بعد أن أماتنا وإليه النشور». حكمة الدعاء

عند النوم: احتمال أن يكون هذا آخر عمر الشخص فيكون ذكر الله هو الخاتمة.

وكان صلوات الله وسلامه عليه يدعو بحسن الخاتمة فيقول: «اللهم اجعل خير أعمالى خواتيمها وخير عمرى آخره وخير أيامى يوم لقائك». وكذلك الدعاء إذا انتبه من نومه وعاد إلى إدراكه وحركته.

وحكمة الدعاء عند الاستيقاظ: وقوع أول أعماله ملابساً لذكر الله وحمده على نعمة الحياة.

ومن الحكمة أيضاً أن يذكر المسلم بعثه بعد الموت. وهذا أمر لا ريب فيه.

حدثنا قتيبة بن سعيد. حدثنا المفضل بن فضالة عن عقيل عن الزهرى عن عروة عن عائشة قالت:

كان رسول الله ﷺ إذا آوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه. أى وضع كفه اليمنى على كفه اليسرى فنفث فيهما. أى نفخ نفخاً خفيفاً لطيفاً بلا بلل من ريقه بل شيء يسير وقرأ فيهما: ﴿قل هو الله أحد﴾ ﴿قل أعوذ برب الفلق﴾ ﴿قل أعوذ برب الناس﴾. ثم مسح بهما (أى بيديه) ما استطاع من جسده يبدأ بهما رأسه ووجهه وما أقبل من جسده. يصنع ذلك ثلاث مرات. وهذا من باب الرقية والتعوذ والحفظ بآيات الله والبركة للبدن رجاء الصحة والعافية.

حدثنا محمد بن بشار، حدثنا عبد الرحمن بن مهدى حدثنا سفيان عن سلمة بن كهيل عن كريب عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ نام حتى نفخ، وكان إذا نام نفخ أى أخرج النفس من فمه بصوت. وذلك علامة الاستغراق فى النوم والنفخ بهذا ليس بمذموم ولا مستهجن حيث لا إرادة للنائم فى منعه. فأتاه بلال فآذنه أى فأعلمه بالصلاة أي بدخول وقت الصبح فقام وصلى ولم يتوضأ وهذه خاصية للنبى ﷺ وسائر الأنبياء لبقاء يقظة قلوبهم.

وقد ورد : «نحن معاشر الأنبياد تنام عيوننا ولا تنام قلوبنا» أو كان النوم خفيفاً يسمع فيه النائم من حوله ولا يميز الكلام، ولكن يجب الوضوء بعد النوم الثقيل سواء كان طويلاً أو قصيراً، فالنوم الثقيل من نواقض الوضوء بالإجماع، كما بين رسول الله ﷺ في أحاديثه المطهرة وكما كان يفعل إذا قام من نومه.

أما هذه المرة التى نحن بصددها الآن فهى من الأمور التى لم تأخذ صفة الدوام وإنما هى لبيان شأن الأنبياء فى ذلك، وهو سيد الأنبياء والمرسلين والبشر أجمعين.

فليحذر المسلم أن يقوم عن نومه الثقيل ثم يصلى ولا يتوضأ، لأن الوضوء شرط من شروط الصلاة أيا كانت هذه الصلاة فرضا أم نافلة. حدثنا الحسين بن محمد الجريرى. حدثنا سليمان بن حرب حدثنا حماد بن سلمة عن حميد عن بكر بن عبد الله بن رباح عن أبى قتادة. أن النبى ﷺ كان إذا عَرَّس بليل (أى قدم من السفر آخر الليل) اضطجع على شقه الأيمن أى نام على جنبه الأيمن. وإذا عَرَّس قبيل الصبح نصب ذراعه ووضع رأسه على كفه وذلك أعون على سرعة الانتباه فلا يستغرق فى النوم وهو على هذه الهيئة فلا يفوته أول وقت الصبح، فأول الوقت رضوان الله.

من أراد أن يستريح بعض الوقت قرب وقت الصلاة فلتكن هيئة نومة كما فعل رسول الله ﷺ محافظة على الصلاة فى وقتها. ﴿إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً﴾

وأيضاً: ﴿حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين﴾ والصلاة الوسطى هى صلاة الصبح والعصر.

صلاة رسول الله ﷺ

ومع صلاة رسول الله حتى ترتوى أرواحنا بنوره وتسكن جوارحنا بخشوعه ونتأدب مع الله أدباً يرضى به عنا .

حدثنا قتيبة بن سعد وبشر بن معاذ قالا : حدثنا أبو عوانة بن زياد بن علاقة عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال : صلى رسول الله ﷺ حتى انتفخت قدماه فقيل له : أتتكلف هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال ﷺ : أفلا أكون عبداً شكوراً ! ! وذلك يظهر من قوله ﷺ : «سبحانك ما عبدناك حق عبادتك»

حدثنا محمد بن بشار . حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن أبى إسحاق عن الأسود بن يزيد قال : سألت عائشة رضى الله عنها عن صلاة رسول الله ﷺ بالليل . فقالت : كان ينام أول الليل ثم يقوم ، فإذا كان من السحر وهو آخر الليل أوتر ، ثم أتى إلى فراشه ، فإذا كان له حاجة أَلَمَّ بأهله (أى جامع زوجته) فإذا سمع الأذان وثب (أى نهض من فراشه بسرعة) فإن كان جنباً أفاضوا عليه من الماء وإلا توضأ وخرج إلى الصلاة .

حدثنا قتيبة بن سعيد عن مالك بن أنس وحدثنا إسحاق بن موسى الأنصارى حدثنا معن عن مالك عن عكرمة بن سليمان عن كريب عن ابن عباس أنه أخبره ، أنه بات عند ميمونة زوج رسول الله ﷺ وهى خالته قال : فاضطجعت فى عرض الوسادة ، واضطجع رسول الله ﷺ فى طولها . فنام رسول الله ﷺ حتى انتصف الليل أو قبله بقليل أو بعده بقليل فاستيقظ رسول الله ﷺ فجعل يمسح النوم عن وجهه ، وقرأ العشر الآيات الخواتيم من سورة آل عمران . ثم قام إلى شن معلق (أى قربة ماء) فتوضأ منها فأحسن الوضوء أى أسبغ الماء على الأعضاء جيداً ، أو أكمله بفرائضه وسننه ومستحباته ثم قام

يصلي. قال عبد الله بن عباس: فقمت إلى جنبه (أى ليصلي معه) فوضع رسول الله ﷺ يده اليمنى على رأسى ثم أخذ بأذنى اليمنى ففتلها تلطفاً به حيث كان ابن عباس وقتذاك صبياً.

فصلى ركعتين، ثم ركعتين، ثم ركعتين، ثم ركعتين، ثم ركعتين، ثم ركعتين قال معن: ست مرات ثم أوتر، ثم اضطجع حتى جاء المؤذن فقام فصلى ركعتين خفيفتين وهما سُنَة الصبح، ثم خرج فصلى الصبح ﷺ.

حدثنا إسحاق بن موسى حدثنا معن حدثنا مالك بن سعيد بن أبى سعيد المقبرى عن أبى سَلَمَة بن عبد الرحمن أنه أخبره أنه سأل عائشة رضى الله عنها كيف كانت صلاة رسول الله ﷺ فى رمضان؟ أى فى لياليه المباركة من التهجد؟

فقالت: ما كان لرسول الله ﷺ ليزيد فى رمضان ولا فى غيره على إحدى عشرة ركعة. يصلى أربعاً، لا تسأل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلى أربعاً لا تسأل عن حسنهن وطولهن ثم يصلى ثلاثة.

قالت عائشة رضى الله عنها: قلت يا رسول الله أتنام قبل أن توتر؟ فقال: يا عائشة إن عينى تنامان ولا ينام قلبى.

ومع رواية فى صلاته ﷺ ليلاً

حدثنا قتيبة بن سعيد عن مالك بن أنس وحدثنا إسحاق بن موسى حدثنا معن حدثنا مالك عن عبد الله بن أبى بكر عن أبيه أن عبد الله بن قيس بن مكرمة أخبره عن زيد بن خالد الجُهَنى أنه قال: لأرمقن (أى لأنظرن) وأراقبن وأرقبن صلاة رسول الله ﷺ فتوسدت عتبة وفسطاطه (أى جعلت العتبة وسادة لى) وكان فى مكان ليس فيه أحد من نسائه ﷺ فصلى رسول الله ﷺ ركعتين خفيفتين ثم صلى ركعتين طويلتين،

طويلتين، طويلتين، ثم صلى ركعتين وهما دون اللتين قبلهما، ثم صلى ركعتين وهما دون اللتين قبلهما، ثم صلى ركعتين دون اللتين قبلهما، ثم صلى ركعتين وهما دون اللتين قبلهما، ثم أوتر بركعة واحدة فذلك ثلاث عشرة ركعة.

وأيضاً: حدثنا إسحاق بن موسى حدثنا معن، حدثنا مالك عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة رضى الله عنها. أن رسول الله ﷺ كان يصلى من الليل إحدى عشرة ركعة يوتر منها بواحدة. فإذا فرغ منها اضطجع على شقه الأيمن.

ويبدو من هذه الأحاديث الشريفة أن النبى ﷺ كان يصلى تارة ثلاثة عشرة ركعة، وتارة إحدى عشرة ركعة، أو غير ذلك، وتارة يصلى بطول، وتارة بخفة أقل وهكذا.

وهذا كله بحسب حاله ﷺ فى وقته، وما فى هذا الوقت من وحى تارة ومن غير ذلك مما يعلمه ويدركه الرسول وحده ﷺ.

حدثنا محمد بن المثنى حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة عن عمر بن مرة عن أبى حمزة رجل من الأنصار عن رجل من بنى عبس عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: أنه صلى مع النبى ﷺ من الليل قال: فلما دخلت الصلاة قال: الله أكبر. ثم قال بعدها مفتتحاً الصلاة (الله أكبر ذو الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة).

ويعرف من ذلك أن المصلى يبدأ صلاته بقوله: الله أكبر، ثم يثنى على الله بهذه الصيغة أو بأخرى كما ورد: سبحانك اللهم بحمدك تبارك اسمك وتعالى جدك وجل ثناؤك ولا إله غيرك.

ثم قرأ (أى النبى ﷺ) البقرة، ثم ركع، فكان ركوعه نحواً من قيامه، أى كان وقت الركوع يساوى تقريباً وقت القراءة. وكان يقول (أى فى ركوعه) سبحان ربى العظيم، سبحان ربى العظيم، سبحان ربى العظيم، فى الركوع كله، ثم رفع رأسه، فكان قيامه

نحواً من ركوعه وكان يقول : لربى الحمد ، لربى الحمد فى وقت القيام كله .

ثم سجد فكان سجوده نحواً من قيامه ، وكان يقول (أى فى سجوده) سبحان ربى الأعلى ، سبحان ربى الأعلى ، سبحان ربى الأعلى ، أى طيلة سجوده ، ثم رفع رأسه ، فكان ما بين السجدتين نحواً من السجود وكان يقول : ربى اغفر لى ، رب اغفر لى .

حتى قرأ البقرة فى ركعة ، و آل عمران فى ركعة ، والنساء فى ركعة ، والمائدة أو الأنعام فى ركعة ، وهو شك من الراوى ،وهذا من دقة وأمانة الرواى ، وهذ الصلاة جائزة إذا كانت جماعة فى تراويح أو فى غيرها ، إذا أنس الإمام حب الناس فى الإطالة .

أما فى صلاة الفرض فليخفف ، كما أخبر رسول الله ﷺ ، «من أم بالناس فليخفف فإن فيهم الضعيف والسقيم وذا الحاجة» .

حدثنا محمد بن نافع البصرى ، حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث بن إسماعيل بن مسلم العبدى عن أبى المتوكل عن عائشة رضى الله عنها : قالت : قام رسول الله ﷺ بآية من القرآن أى بآية واحدة بتمامها كان يكررها فى كل ركعة ، وسئل أبو ذر فى ذلك فقال : هى : ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾ .

فيجوز ذلك ولكن الأفضل أن يقرأ فى الثانية غير ما فى الأولى .

أما صلاته ﷺ فى هذه الليلة فهى من أجل الأمة وطلب الرحمة لها من الحق تبارك وتعالى ولم يتكرر ذلك بصفة الدوام منه ﷺ بل كان يقرأ فى كل ركعة من القرآن ما لم يكن فى ركعة أخرى .

حدثنا إسحاق بن موسى الأنصارى حدثنا معن ، حدثنا مالك عن أبى النضر عن أبى سلمة عن عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ كان يصلى جالساً ، فيقرأ وهو جالس ، فإذا بقى من قراءته قدر ما يكون ثلاثين آية قام ، فيقرأ وهو قائم ، ثم ركع وسجد ، ثم

صنع في الركعة الثانية مثل ذلك.

هذا بالنسبة لصلاة النافلة فيجوز للمصلي أن يصلي وهو جالس مع قدرته أن يصلي وهو واقف أما في صلاة الفرض فلا تجوز الصلاة من جلوس مع القدرة على القيام.

وفعله ﷺ كان في نوافل الليل وفي غيرها تشريعاً للأمة وقدوة لهم.

ويؤكد ذلك ما جاء في الرواية التالية لفعله ﷺ .

حدثنا أحمد بن منيع، حدثنا هشيم حدثنا خالد الحذاء عن عبد الله بن شفيق. قال سألت عائشة رضي الله عنها عن صلاة رسول الله ﷺ عن تطوعه أي في غير الفرائض الخمس: فقالت: كان يصلي ليلاً طويلاً قائماً أي صلاة طويلة من قيام، وليلاً طويلاً قاعداً، أي صلاة طويلة من قعود، فإذا قرأ وهو قائم ركع وسجد. وهو قائم. أي ركع وقام من ركوعه وسجد وقام من السجد الثانية واقفاً. وإذا قرأ وهو جالس ركع وسجد وهو جالس أي ركع من جلوس وقام من ركوعه وهو جالس إلى قيام. وهكذا في السجود.

حدثنا إسحاق بن موسى الأنصاري حدثنا معن حدثنا مالك عن بن شهاب عن السائب بن يزيد، عن المطلب بن أبي وداعة السهمي عن حفصة زوج النبي ﷺ قالت: كان رسول الله ﷺ يصلي في صحبته أي في صلاة النافلة قاعداً. ويقرأ في السورة ويرتلها حتى تكون أطول من أطول منها أي كان يصلي نافلته في بعض الأوقات وهو جالس، وغالباً من وقوف وفي كلٍّ كان يرتل القرآن ترتيلاً يتبين المستمع من تلاوته المباركة ﷺ حروف الآيات وهمزاتها وشدّاتها ومدّاتها وغنتها ووقوفها، مع التأني في القراءة، ومن هذا التأني تبدو السورة القصيرة طويلة من حسن التلاوة.

نوافله الشريفة ﷺ

مع النوافل الشريفة فى نهاره ﷺ وليله وما كان يتعبد بذلك قربى إلى الحق سبحانه وتعالى.

ففى الحديث القدسى الذى رواه أسعد الخلق سيدنا محمد ﷺ عن رب العزة: «وما يزال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها، ولئن سألنى لأعطينه ولئن استعاذنى لأعيذنه».

حدثنا أحمد بن منيع: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم عن أيوب عن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: صليت مع رسول الله ﷺ ركعتين قبل الظهر، وركعتين بعدها،، وركعتين بعد المغرب فى بيته، وركعتين بعد العشاء فى بيته.

واستكمالاً للنوافل كلها التى وردت فى هذا الشأن الكريم، نأتى إلى بقية الأحاديث التى جاءت بالنوافل والسُّنَن المباركة.

حدثنا محمد بن المثنى حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة عن أبى إسحاق قال: سمعت عاصم بن حمزة يقول: سألنا علياً كرّم الله وجهه عن صلاة رسول الله ﷺ من النهار فقال: إنكم لا تطيقون ذلك. قال: فقلنا من أطاق منا ذلك صلى. فقال: كان إذا كانت الشمس من ها هنا كهيئتها من ها هنا عند العصر. صلى ركعتين. وإذا كانت الشمس من هاهنا كهيئتها من ها هنا عند الظهر، صلى أربع ويصلى قبل الظهر أربعاً وبعدها ركعتين. وقبل العصر أربعاً، يفصل بين كل ركعتين بالتسليم على الملائكة

المقربين والنبيين ومن تبعهم من المؤمنين والمسلمين أى من آمن بقلبه وصدّق بعمله .

ونواصل ذكر أحاديث بحديث صلاة الضحى .

حدثنا محمود بن غيلان، حدثنا أبو داود الطيالسى حدثنا شعبة عن يزيد قال : سمعت معاذة قالت : قلت لعائشة رضى الله عنها : أكان النبى ﷺ يصلى الضحى؟ قالت : نعم، أربع ركعات . ويزيد ما شاء الله عزوجل .

ومع صلاة الضحى أيضاً : حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا حكيم بن معاوية المزيارى، حدثنا زياد بن عبد الله بن ربيع الزيادى عن حميد الطويل عن أنس بن مالك . أن النبى ﷺ كان يصلى الضحى ست ركعات .

حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا محمد بن جعفر، انبأنا شعبة عن عمرو بن مُرّة عن عبد الرحمن بن أبى ليلى قال : ما أخبرنى أحد أنه رأى النبى ﷺ يصلى الضحى إلا أم هانىء رضى الله عنها فإنها حدثت : أن رسول الله ﷺ دخل بيتها يوم فتح مكة فاغتسل فسبّح، أى صلى ثمانى ركعات ما رأيته ﷺ صلى صلاة قط أخف منها، غير أنه كان يتم الركوع والسجود وكانت خفّة الصلاة لشغله بفتح مكة .

حدثنا أحمد بن منيع عن هُشَيْم . أنبأنا عبيدة عن إبراهيم عن سهم بن منجاب عن قَرْقع الضبى أو عن قَزَعَة عن فرقع عن أبى أيوب الأنصارى رضي الله عنه : أن النبى ﷺ كان يُدْمِن (أى يداوم) أربع ركعات عند زوال الشمس أى وهى أن تكون الشمس فى كبد السماء . فقلت يا رسول الله إنك تدمن (أى تداوم) على هذه الأربع الركعات عند زوال الشمس فقال : إن أبواب السماءتفتح عند زوال الشمس فلا تُرْتَد أى لا تغلق حتى

يصلى الظهر فأحب أن يصعد لى فى تلك الساعة خير . فقلت : أفى كلهن قراءة؟ قال : نعم . قلت : هل فيهن تسليم فاصل؟ قال : لا . وهذا فى أربع الركعات التى تصلى عند زوال الشمس قبل الظهر .

من الأحاديث السابقة التى ورد فيها ذكر نوافل رسول الله ﷺ **تفقه منها ما يأتى : أن** السُنَنَ أو النوافل هى الصلاة الزائدة على الفريضة . وهى ما يلى **على ترتيب الصلوات** الخمس : سُنَّة الصبح ، ركعتان قبل صلاة الصبح ، إن كانت الصلاة أداء فى وقتها ، **أما إن** كانت بعد طلوع الشمس فُيصَلى الفرض أولا ثم تُصَلى السنة وهى **ركعتان فقط إلى** صلاة الظهر فإذا حانت وقت صلاة الظهر فلا تُصَلى سُنَّة الصبح ، **بل يُصَلى الصبح** فقط قضاء . ومن ذلك إذا صلى المسلم الفوائت مما عليه **فلا يصلى سُنَه الصبح ولا** غيرها . بل يصلى الفرض فقط .

سُنة الضحى : وهى ركعتان أو أربع ركعات أو ست ركعات أو ثمانى ركعات . وتصلى صلاة الضحى ركعتين ركعتين ووقتها من بعد طلوع الشمس بثلث ساعة إلى صلاة الظهر أى قبيل صلاة الظهر .

سُنَة الظهر : ركعتان أو أربع ركعات قبل صلاة الظهر أى قبل أداء الفريضة . وركعتان أو أربع ركعات بعد صلاة الظهر .

سُنَة العصر : ركعتان أو أربع ركعات قبل صلاة العصر ، ولا نافلة بعد صلاة العصر إلى المغرب .

وأيضاً لا نافلة بعد صلاة الصبح حاضراً إلى ما بعد شروق الشمس بثلث ساعة .

سُنَّة المغرب : ركعتان أو ست ركعات ركعتين ركعتين ركعتين بعد صلاة المغرب .

سُنَّة العشاء : ركعتان أو أربع ركعات قبل صلاة العشاء وبعدها صلاة الشفع والوتر وذلك بحسب همتك وكل زيادة هي خير .

فكان ﷺ يصلى ثلاث عشرة ركعة ليلاً .

فإن فعلت ذلك ، كان وإلا فلابد من ركعتى الشفع والوتر ، أي تصلى ركعتين ثم تصلى ركعة الوتر . وكان ﷺ صلى ذلك فى جوف الليل أو فى آخر الليل . وأنت بالخيار فى ذلك على حسب طاقتك ووقتك وهى صلاة الليل والتهجد الذى ورد فيه قول الله تعالى :

﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ «الإسراء : ٧٩» .

ويستحب فى صلاة السنن والنوافل أن تكون فى البيت . مع جواز أن تكون فى المسجد ولكن صلاتها فى البيت أفضل لما ورد فى ذلك .

«اجعلوا فى بيوتكم من صلاتكم ولا تتخذوها قبوراً» .

لأن الصلاة فى البيت أبعد عن الرياء . وأقرب إلى الإخلاص ، وبركة فى البيت ونور لأهله .

حدثنا عباس العنبرى : حدثنا عبد الرحمن المهدى عن معاوية بن صالح عن العلاء بن الحرث عن حرام بن معاوية عن عمه عن عبد الله بن سعيد قال : سألت رسول الله ﷺ عن الصلاة فى بيتى والصلاة فى المسجد ؟ (أى صلاة النوافل) .

قال ﷺ : قد ترى ما أقرب بيتى من المسجد ، فلأن أصلى فى بيتى أحب إلىَّ من أن أصلى فى المسجد ، إلا أن تكون صلاة مكتوبة .

وهذا التأكيد من النبى ﷺ حتى يقتفى به السائل لأن النبى ﷺ بدأ بنفسه، وبمدى قرب المسجد له. ليكون أدعى للعمل، ولبيان أفضليتها فى البيت ولو كان المسجد قريباً لا مشقة فى الوصول إليه.

والنافلة تطوع من العبد ينوى فيها زيادة القرب والوصال.

وإن النوافل لها شأن جليل بين يدى الله يوم القيامة، ينتفع بها المصلى وتكون مكملة لنقصه. شفيعة لربه، داعية لمحبة ربه.

«ولا يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه».

سيف رسول الله ﷺ

مع سيف رسول الله ﷺ سلاح الحق وأداة الجهاد وقوة القتال وعزيمة الدفاع.

هو سيف لا بطش فيه، ولا قهر ولا إذلال.

سيف كان بتاراً للباطل وأهله فزهق الباطل وهُزِمَ.

﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ «الإسراء: ٨١»

حدثنا أبو جعفر بن سدران البصرى حدثنا طالب بن حُجَير عن هود وهو ابن عبد الله بن سعيد عن جدّه قال:

دخل رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح وعلى سيفه ذهبٌ وفضة.

قال طالب: فسألته عن الفضة.

قال: كانت طبيعة السيف فضة، فتحلية السيف جائزة بالفضة، وكان ذلك فى طرف مقبض رسول الله ﷺ.

أما الذهب فكان طلاء فقط كما قال العلماء.

ولكن عند الشافعية يجوز تحلية المصحف والسيف بالذهب.

أما درعه ﷺ وهو جُبَّةٌ من حديد تلبس في حالة الحرب وقاية للصدر وهذا من باب اتخاذ الأسباب والإعداد والحذر.

في قوله تعالى: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ «الأنفال: ٦٠».

وهذا من علوم الحرب والقتال علمها رسول الله ﷺ للأمة.

حدثنا أحمد بن أبي عمر حدثنا سفيان بن عيينة عن يزيد بن خصيفة عن السائب بن يزيد.

أن رسول الله ﷺ كان عليه يوم أحد درعان قد ظاهر بينها (أي اهتماماً بالحرب) فقد لبس ﷺ درعاً فوق درع، وهذا لا ينافي التوكل على الله سبحانه وتعالى.

ومن الإعداد للحرب نصرة لدين الله تعالى إعلاء لكلمته العليا.

ومما يذكر في هذا الباب: أن النبي ﷺ كان له سبعة أدرع. منها ذات الفضول: وذات الوشاح، وفضة والسعدية، وذات الحواشي، والبتراء والقرنق.

وما كان يلبسه ﷺ فوق رأسه الشريف وتحت قلنسوته وهو وقاية للرأس (كما أن الدرع وقاية للصدر) وهذا يسمى بالمغفر. وهو الستر وهو من جملة السلاح الذي كان يستعمل في الحروب وقتذاك والحديث في ذلك.

حدثنا عيسى بن أحمد حدثنا عبد الله بن وهب. حدثنا مالك بن أنس عن ابن شهاب عن أنس بن مالك.

أن النبي ﷺ دخل مكة عام الفتح وعلى رأسه المغفر قال: فلما نزعه جاءه رجل فقال له: ابن خطل متعلق بأستار الكعبة. فقال: اقتلوه، قال شهاب: وبلغني أن رسول الله ﷺ لم يكن يومئذ محرماً.

وهذا الحديث يدل على أمور ثلاثة :

أولاً : يدل على ما كان يلبسه ﷺ فوق رأسه من أدوات الحرب . وهو المِغْفَر وهو منسوج من حديد يوضع فوق الرأس .

ثانيا : على أن النبى ﷺ قد أُحِلَّ له ساعة من النهار يقتل فيها ماشاء ولم تُحلُّ لأحد قبله ولا بعده ، وبهذا أمر بقتل ابن خَطَل هذا الذى ورد اسمه فى الحديث وقد كان مسلماً خدم رسول الله ﷺ ثم ارتد عن الإسلام وقتل مسلماً وهجا النبى ﷺ واتخذ جاريتين تغنيان بهجاء رسول الله ﷺ فقتله أحد الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين وأُهْدِرَ دمه .

وابن خطل ومعه ثلاثة قد استثناهم رسول الله ﷺ من قوله (من دخل المسجد الحرام **فهو آمن ، ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن . ومن أغلق عليه بابه فهو آمن)** .

قال فيهم : اقتلوهم حيث وجدتموهم . فإنى لا آمنهم فى حلٍّ ولا فى حرم . هذا هو ملبس الحرب من درع ومِغْفَر .

عمامته ﷺ

وكان ﷺ فى غير الحرب عمامة وهى ما تلف على الرأس .

حدثنا محمد بن بشار حدثنا عن عبد الرحمن بن مهدى عن حماد بن أبى سلمة وحدثنا محمود بن غيلان وحدثنا وكيع عن حماد بن سلمة عن أبى الزبير عن جابر قال : دخل النبى ﷺ مكة يوم الفتح وعليه عمامة سوداء .

وحكمة السواد فى العمامة الشريفة وغيرها كالراية إشارة إلى السؤدد وإلى النصر المؤزَّر وبشرى إلى انتشار الإسلام إلى آفاق الدنيا من أقصاها إلى أقصاها . وثبات هذا الدين الحنيف ، واستمراره إلى يوم الدين .

حدثنا أبو عمر عن سفيان عم مساور الوراق عن جعفر بن عمرو بن حريث عن أبيه قال :

رأيت على النبى ﷺ عمامة سوداء . وهذا الحديث الشريف يؤكد الحديث السابق ويحتمل أن ذلك فى مكة أو فى غيرها .

حدثنا محمود بن غيلان ويوسف بن عيسى قالا : حدثنا وكيع عن مساور الوراق عن جعفر بن عمرو بن حريث عن أبيه قال : إن النبى ﷺ خطب الناس وعليه عمامة سوداء .

وهذه الخطبة كانت عند باب الكعبة المشرفة في فتح مكة المكرمة ، كما يفهم من روايات أخرى .

وقد اقتدى برسول الله ﷺ فى لبس العمامة السوداء كثير من أصحابه رضى الله عنهم ومن التابعين وسائر الأمة :

على بن أبى طالب والحسن بن على وابن الزبير وكذلك معاوية بن أبى سفيان وعبد الله بن عباس وعمّار بن ياسر وابن المُسَيِّب والخلفاء العباسيون .

هذا ولم يكن اللون الأسود هو السائد فى لبسه ﷺ بل كان السائد هو اللون الأبيض .

حدثنا هارون بن إسحاق الهمدانى حدثنا يحيى بن محمد المدينى عن عبد العزيز بن محمد عن عبيد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر قال : كان النبى ﷺ إذا اعْتَمَ سدل عمامته بين كتفيه .

قال نافع : وكان ابن عمر يفعل ذلك ، ورأيت القاسم بن محمد وسالماً يفعلان ذلك .

والحديث يدل على أن النبى ﷺ كان يُرْخى عمامته من الخلف بين كتفيه وهذا من باب تحسين الهيئة .

ويؤخذ من ذلك أن إرسال العَذَبة سُنّة . اقتداء بالمصطفى ﷺ .

حدثنا يوسف بن عيسى حدثنا وكيع ، حدثنا أبو سليمان وهو عبد الرحمن بن الغسيل عن عكرمة عن ابن عباس .

أن النبى ﷺ خطب الناس وعليه عمامة دَسْماء ، (والدَسْماء هى المُلطّفة بدسومة شعره ﷺ من كثرة دُهْن شعر رأسه بالطيب وكان من الزيت) .

وكانت هذه الخطبة فى مرض النبى ﷺ كما ذكر الإمام المناوى . وقد أوصى فيها بالأنصار خيراً وذكر أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ لم يصعد منْبراً بعد هذه الخطبة .

ما زالت الشمائل المحمدية صراطاً وهدًى وقدوة صالحة وأثراً عظيماً فى كل الحياة البشرية . حيث هى شمائله ﷺ فهو المعصوم الموصى إليه الذى كان وما يزال بشريعته نوراً وسراجاً .

ومع إزراره الشريف ﷺ تبركاً وعلماً وتشوقاً إليه .

إزراره الشريف ﷺ

حدثنا أحمد بن منيع حدثنا اسماعيل بن إبراهيم حدثنا أيوب عن حميد بن هلال عن أبى بردة عن أبيه قال :

أخرجت إلينا عائشة رضى الله عنها كساء ملبداً . وإزاراً غليظاً . فقالت : قبض روح

رسول الله ﷺ في هذين. والكساء هنا هو الرداء الذى يستر أعلى البدن. والإزار هو ما يستر أسفل البدن.

وكان كل من الكساء والرداء متواضعين. وكان الكساء الشريف مرقعاً، والإزار خشناً. وشاء الحق تبارك وتعالي أن يموت المصطفى ﷺ على هذا الحال البسيط من الدنيا حيث لا يرى فى ذلك متعة منها فى ملبس أو غيره وحقاً ما اختار.

فقد ورد أن النبى ﷺ قد خير بين أن يكون نبياً ملكاً أو عبداً نبياً. فاختار أن يكون عبداً نبياً.

وعرضت عليه جبال تهامة أن تكون ذهباً فأبى. ﷺ. ويأتى الحديث التالى الذى يبين كيفية تأزره ﷺ. حدثنا سويد بن نصر حدثنا عبد الله بن المبارك عن موسى بن عبيدة عن إياس بن سلمة بن الأكوع عن أبيه قال: كان عثمان بن عفان يأتزر إلى أنصاف ساقيه وقال: هكذا كانت إزار صاحبى (يعني النبى ﷺ).

مشيه ﷺ

أما مَشْيُهُ ﷺ:

كما سبق هو عنوان الهمّة والعزم مع التواضع والرقة فكان سريع المِشْيَة وكانت مشيته هوناً على الأرض كما ذكر الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا ﴾ «الفرقان: ٦٣».

حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا ربيع عن أبى ربيعة عن أبى يونس عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: ما رأيت شيئاً أحسن من رسول الله ﷺ كأن الشمس تجرى فى وجهه ولا رأيت أسرع فى مشيته من رسول الله ﷺ كأنما الأرض تطوى له، وإنا لنجهد أنفسنا وإنه لغير مكترث.

يصف أبو هريرة النبى ﷺ فى وجهه بالشمس فى لمعانها .

وقد ورد لو رأيته لرأيت الشمس طالعة .

وفى حدث ابن عباس : لم يكن لرسول الله ظل ولم يكن مع الشمس قط إلا غلب ضؤوه ضوءها .

وكان ﷺ فى مشيته المعتادة بلا تكلف ولا تعب ولا مشقة كأن الأرض مطوية تحت قدميه .

وهذا يدل على مدى القوة الطبيعية فى جسمه ﷺ .

أدب تَقَنُّعه ﷺ

ننتقل بعد ذلك إلى شيء آخر من شمائله الشريفة ، وهو تقنعه فوق رأسه بغطاء فوق العمامة ويسدل على أكثر الوجه وهو أيضاً للوقاية من حرٍّ أو بردٍ .

والتقنُّع بهذه الصفة من أخلاق الأنبياء وقيل لا يتقنع إلا من استكمل الحكمة فى قوله وفعله .

وهذا شعار أهل العلم الذى يعرفون به لدى العامة حتى يرجع الناس إليهم فى أمور دينهم .

وفى التَقَنُّع حياء من الله وخشية منه .

هيئة جلوسه ﷺ

حدثنا عبد الله بن حميد حدثنا حسان بن مسلم حدثنا عبد الله بن حسان عن جدتيه عن قيلة بنت مخرمة.

أنها رأت رسول الله ﷺ في المسجد وهو قاعد القرفصاء قالت: فلما رأيت رسول الله ﷺ رأيته كالمُتَخَشِّع في جلسته قد أُرْعِدْتُ من الفَرَق.

وهذا يبين ما كان عليه ﷺ حال جلوسه في أي هيئة من التواضع ومن الخشوع وخفض الطرف والصوت وسكون الجوارح.

وكم لهذه الهيئة المؤثرة من وقع في النفس الرائية مما كان عليه من هيبة ربه وجلاله.

وفي رواية أخرى: قال أحد الحاضرين للنبي ﷺ: أُرْعِدَتْ المرأة.

فقال: يا مسكينة عليك السكينة. فأذهب الله ماكان قد دخل قلبها من الرعب.

وهكذا كان ﷺ إذا خلي إلى نفسه مع ربه، أصابه الفَرَق أي أصابه الخوف الشديد من ربه من عظم المهابة والجلال.

حدثنا سعيد بن عبد الرحمن المخزومي وغير واحد قالوا: حدثنا سفيان عن الزهري عن عباد بن تميم عن عمه. أنه رأى النبي ﷺ مستلقياً في المسجد واضعاً إحدى رجليه على الأخرى وهذا يدل على أنه كان ﷺ مستريحاً على هذه الهيئة بعض الوقت ولا يلزم من ذلك نوم.

ولجواز أن يكون ذلك في المسجد لضرورة وغيرها. وكذلك يباح الجلوس في المسجد

بغير صلاة على أن يؤدى المسلم حق المسجد بالتوقير وعدم ارتفاع الصوت والضحك والكلام الدنيوى والبيع والشراء وما وراء ذلك من الأمور التى تقل بحرمة المسجد والعبادة فيه .

حدثنا سلمه بن شبيب حدثنا عبد الله بن إبراهيم المدنى حدثنا إسحاق بن محمد الأنصارى عن ربيع بن عبد الرحمن بن أبى سعيد عن أبيه عن جده أبى سعيد الخدرى قال : كان رسول الله ﷺ إذا جلس فى المسجد احتبى بيده وزاد البزار : ونصب إحدى ساقيه .

والاحتباء هنا معناه : أن النبى ﷺ كان يجمع ظهره وساقيه بعمامة وهى جلسة الأعراب . وهى تقوم مقام الاستناد إلى الجدار . وورد أن النبى ﷺ كان إذا صلى الفجر تربع فى مجلسه حتى تطلع الشمس حسناء (أى نقية بيضاء) .

وقال الإمام النووى رضي الله عنه : اختلفت أحواله ﷺ فتارة تربع وتارة احتبى وتارة استلقى وتارة ثنى رجليه . كل ذلك توسعة على أمته رحمة منه بها .

فهو كما وصفه الله تعالى بالمؤمنين رؤوف رحيم ، بل للعالم كله إلى يوم القيامة .

﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾

فأفعاله كلها ﷺ أخلاق رفيعة وأدب عال .

تكأته ﷺ

(أى ما يتكىء عليها من وسادة أو غيرها)

مع رسول الله ﷺ حتى نتخلق بجميل ما وهبه الله من عطاء وفضل .

ونحن مع صفة جديدة وهى تكأته ﷺ (أى ما يتكىء عليه من وسادة وغيرها) .

حدثنا عباس بن محمد الدورى البغدادى حدثنا إسحاق بن منصور عن إسرائيل عن سماك بن حرب عن جابر بن سمرة قال :

رأيت رسول الله ﷺ متكئاً على وسادة على يساره أى موضوعة تحت جانبه الأيسر ﷺ

حدثنا حميد بن مسعدة حدثنا بشرة بن المفضل حدثنا الجريرى عن عبد الرحمن بن أبى بكرة عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ ألا أحدثكم بأكبر الكبائر ؟ قالوا : بلى يا رسول الله وكان متكئاً فجلس . قال ﷺ : وشهادة الزور، والقول الزور .

قال : ومازال رسول الله ﷺ يقولها حتى قلنا ليته سكت .

يعرض النبى ﷺ على أصحابه وكان متكئاً بينهم وهم جلوس حوله يبلغهم ما ألهمه الله به من النهج الخالص المبرأ من الهوى ويخبرهم بكبائر المعاصى وفواحش الذنوب .

والكبائر هنا فى الحديث المذكور يضاف إليها كبائر أخرى مما أخبر به ﷺ فى أحاديث غير ذلك أوصلها بعض العلماء إلى ثمانى عشرة .

أربع فى القلب : وهى الشرك بالله - والأمن من مكر الله - والإياس من رحمة الله، والإصرار على الذنب .

وثلاث فى البطن : وهى أكل مال اليتيم، وأكل الربا، وشرب الخمر .

وخمس فى اللسان : وهى الكذب، وشهادة الزور، وقذف المحصنات واليمين الغموس التى يقتطع بها مال امرىء بغير حق . والغيبة .

واثنتان فى اليد : وهما البطش والسرقة .

واثنتان فى الفرج : وهما الزنا واللواط .

وواحدة في الرجل : وهى الفرار من الزحف .

وواحدة فى جميع البدن : وهو العقوق .

وأوصلها بعضهم إلى سبعين وبعضهم أطلقها حتى يخاف المؤمن من كل المعاصى وأى ذنب بالنسبة لله فهو عظيم .

وتنقسم الكبائر إلى قسمين من جهة أخرى .

١- كبائر يقام فيها الحد : كالسرقة والزنا والقتل وغير ذلك ، مما وردت فيه الأحكام فى كتب الفقه .

٢- كبائر لا يقام فيها الحد : كالعقوق والكذب ، ففيها التوبة والندم والاستغفار .

وفى الحديث ذكر لبعض الكبائر ولكن هناك كبيرة كان لها وضع خاص . وهى كبيرة قول الزور .

فقد ذكر الرسول ﷺ الشرك بالله والعياذ بالله تعالى . وعقوق الوالدين ، وكان متكئاً فجلس لاهتمامه بما يقول ليعلم القوم خطورة شهادة الزور ، وأثرها فى الناس وما يترتب عليها من مفاسد كثيرة وهو يقترن دائماً بالشرك كما ورد فى قوله تعالى : ﴿ فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور ﴾ «الحج: ٣٠».

هذا وإذا كان ﷺ قد كان يتكىء أى يستند على شىء لكنه كان لا يتكىء وهو يتناول طعامه ﷺ : كما ورد فى هذا الحديث التالى :

حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا شريك عن على بن الأقمر ، عن أبى جحيفة قال : قال رسول الله ﷺ أما أنا فلا آكل متكئاً (أى مستنداً على شىء) وهو الاتكاء على شقه

الأيمن أو الأيسر .

وكان ﷺ لا يفعل إشارة إلى أن وقت الأكل وقت تواضع وشكر لله سبحانه وتعالى .

والأكل على هذه الهيئة هى صفة المتكبرين ما لم يكن هناك عذر أو مرض يقتضى ذلك .

والجلوس على طبيعة الجسم هو الأصح والأنفع للبدن . فكان ﷺ يجلس للأكل متكئاً على ركبتيه ويضع ظهر قدمه اليمنى على بطن اليسرى تواضعاً وأدباً .

ويأتى الاتكاء على الإنسان وغيره أى الاعتماد من وقوف ومشى بخلاف التكأة فى الجلوس . حدثنا عبد الله بن عبد الرحمن حدثنا عمرو بن عاصم حدثنا حماد بن سلمة عن حميد عن أنس : أن النبى ﷺ كان شاكياً أى مريضاً . فخرج يتوكأ على أسامه بن زيد وعليه ثوب قطرى هو برد يمنى من قطن قد توشح به كالمحرم فصلى بهم .

وهذا فى مرضه ﷺ حيث لم يستطع أن يمشى وحده دون استناد على أحد فاتكأ على أسامه بن زيد بن حارثة رضى الله عنهما ، وهو خارج من الحجرة الشريفة وكان ﷺ قد أمر أن يكون على رأس جيش كبير ولم يكد هذا الجيش يبلغ أبواب المدينة حتى حمل إليه نبأ وفاة رسول الله فتوقف عن السير ورجع إلى المدينة حيث بويع أبو بكر رضي الله عنه ودفن رسول الله ﷺ .

ثم أعاد أبو بكر إرسال أسامه إلى مهمته التى كان النبى ﷺ قد بعثه من أجلها .

حدثنا عبد الله بن عبد الرحمن . حدثنا محمد بن المبارك . حدثنا عطاء بن مسلم الخفاف الحلبى حدثنا عطاء بن أبى رباح عن الفضل بن عباس قال : دخلت على رسول الله ﷺ فى مرضه الذى توفى فيه وعلى رأسه عصابة صفراء شدها على رأسه لوجعه فسلمت عليه فقال : يا فضل . قلت : لبيك يا رسول الله . قال : اشدد بهذه العصابة

رأسي. قال: ففعلت: ثم قعد فوضع كفه على منكبي ثم قام فدخل المسجد. وما قال ذلك ﷺ إلا لشدة ألمه حتى يسكن واتكأ على الفضل رضي الله عنه ليعتمد عليه ليقوم ويدخل المسجد ودخل المسجد وصعد المنبر. وأمر بنداء الناس ثم خطب فيهم فحمد الله تعالى وأثنى عليه والتمس من المسلمين أن يطلبوا منه ما في ذمته من الحقوق، ولا يتركوه للآخرة، وبالغ في ذلك، فطلب منه رجال حقوقهم.

هذا هو رسول الله ﷺ في بشريته القوية النبيلة وكماله وحسنه.

وهو المثل الأعلى إلى النهاية.

ولم يترك حقوق الناس دون أن يردها، ولم يعتمد حزنهم وعواطفهم المتأثرة بمرضه فتناسى حقوقهم بل اعتمد فقط ليستند على الفضل إظهاراً لسنة الحياة وأن كل شيء له نهاية وحق المريض الضعيف أن يعينه على ضعفه. وأن يتراحم الناس في ذلك.

فيا نعم الشمائل ويا نعم الأثر والآثار والعلم والقدوة.

فليعلم الناس حقيقة رسول الله ﷺ

أَكْلُهُ ﷺ

مع النبي الحبيب سيدنا محمد ﷺ في أكله وما صاحب ذلك من آداب كريمة وعلم حكيم لما للطعام من أهمية في حياة البدن وسلوك الإنسان.

فكان ﷺ يأكل بيده. بإصبعه الشريفة. وكان يلعقها بعد الفراغ من أكله حفظاً للبركة متواضعاً لله اعترافاً بنعمته عليه واستزادة من الخير وإقبالاً على العمل والطاعة.

حدثنا محمد بن بشار عبد الرحمن بن مهدى عن سفيان عن سعيد بن ابراهيم عن ابن عكب بن مالك عن أبيه: أن النبي ﷺ كان يلعق أصابعه الثلاثة وهذه سُنَة كريمة من

سُنَنه ﷺ

وعِلّة ذلك ما جاء فى رواية أخرى وهى . «إذا أكل أحدكم طعامه فليلعق أصابعه فإنه لا يدرى فى أيتهن البركة» وليس المراد هو التنظيف للأصابع حيث تدل أحاديث أخرى على تنظيف اليدين بعد الأكل بالماء .

حدثنا هارون بن إسحاق الهمدانى حدثنا عبدة بن سليمان عن هشام بن عروة عن ابن كعب بن مالك عن أبيه قال : كان رسول الله ﷺ يأكل بأصابعه الثلاث ويلعقهن .

والأصابع التى كان يلعقها ﷺ هى الإبهام والسبابة والوسطى وهذا أفضل وأيسر للأكل .

فالأكل بالاثنين هو أكل المتكبرين وبالأربعة شره وإسراف على المعدة وضرر فى الهضم . وبالثلاثة سُنّة وهى خير وبركة .

حدثنا أحمد بن منيع حدثنا الفضل بن دُكَيْن حدثنا مصعب بن سلَيْم قال : سمعت أنس بن مالك يقول : أوتى رسول الله ﷺ بتمر فرأيته يأكل وهو مُقْعٍ من الجوع أى متساند إلى الوراء من الضعف الحاصل له من الجوع .

هذا هو رسول الله ﷺ الذى عُرِضَتْ عليه الدنيا . وعرضت عليه جبال تهامة أن تكون ذهباً فأبى وقال : «أجوع يوماً فأحمد وأشبع يوماً فأشكر الله» . وشاءت حكمة الله تعالى أن يكون رسوله ﷺ فى حالات جوع حتى يكون مثلاً كاملاً لمن يتولى أمور الناس وحكمهم فيشعر بفقيرهم وما يحس به من ألم .

حدثنا محمد بن المثنى ومحمد بن بشار قالا : حدثنا محمد بن جعفر . حدثنا شعبة عن أبى إسحاق قال : سمعت عبد الرحمن بن يزيد يحدث عن الأسود بن يزيد عن عائشة أنها قالت : ما شبع آل محمد ﷺ من خبز الشعير يومين متتابعين حتى قُبِضَ

رسول الله ﷺ

حدثنا عبد الله بن معاوية الجُمَحي حدثنا ثابت بن يزيد عن هلال بن خباب عن عكرمة عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ يبيت الليالى المتتابعة طاوياً هو وأهله ولا يجدون عشاء وكان أكثر خبزهم الشعير .

فكان ﷺ يرضى بجوعه هو وأهله عند عدم وجود شيء ولا يسأل أحداً من أصحابه شيئاً وكان أكثر خبزهم الشعير . أى أقراص الشعير .

وهذا سِتْرٌ جميل كان يرضاه ﷺ ويعيش فيه . إنها دُرَرُ الخصال وجواهر النفس وعمق اليقين .

حدثنا عبد الله بن عبد الرحمن أنبأنا عبيد الله بن عبد المجيد الحنفى . حدثنا عبد الرحمن وهو ابن عبد الله بن دينار حدثنا أبو حازم عن سهل بن سعد . أنه قيل له : أكل رسول الله ﷺ النَّقِى (يعنى الحَوّارى) وهو الخبز المنقى من النُّخَالة أى المنخول دقيقة نخلاً جيداً .

فقال سهل : ما رأى رسول الله ﷺ النقى حتى لقى الله عزو جلّ فقيل له : هل كانت لكم مناخل على عهد رسول الله ﷺ . قال : ما كانت لنا مناخل . قيل : كيف كنتم تصنعون بالشعير ؟ أى بدقيقه وما فيه من النُخالة المواد التى يجب أن يخلو منها . قال : كنا ننفخه فيطير منها ما طار ثم نعجنه .

حدثنا محمد بن بشار حدثنا معاذ بن هشام أخبرنى أبى عن يونس عن قتادة عن أنس بن مالك قال : ما أكل نبى الله ﷺ على خِوان (وهو الشيء المرتفع عن الأرض يهيأ

لوضع الطعام حين الأكل كالمائدة المعروفة وحولها الكراسى) ولا فى سُكُرُّجَة (وهو الإناء الصغير الذى يوضع فيه الشىء القليل المشهىّ للطعام) و(كالمخلل والسلطة كما يقال الآن).

ولا خبز له مُرَقَّق وهو كالرقاق المعروف الآن ويصنع من القمح.

قال: فقلت لقتادة: علامَ كانوا يأكلون؟ قال: على هذه السُّفَر.

قال محمد بن بشار: يونس هذا الذى روى عن قتادة هو يونس الإسكاف.

والسُّفَر هنا هو ما يُتَّخَذ من جلد مستدير وتُبْسَط عند الأكل ليوضع عليها. وهى معروفة عند العرب وتسمى الآن عند العامة بالسمَاط.

والحديث بأنواره البهية. ووضوحه الجلىّ لا يحتاج إلا إلى النظر. كيف كان ﷺ وماكان عليه من التقشف والزهد والأدب والكمال.

حدثنا محمد بن سهل بن عسكر وعبد الله بن عبد الرحمن قالا: حدثنا يحيى بن حسان حدثنا سليمان بن بلال عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة: أن رسول الله ﷺ قال: «نِعْمَ الإدام الخل» قال عبد الله فى حديثه الأُدْم أو الإدام الخل.

قال الترمذى: فى الخل منافع كثيرة أقلها أنه يقطع السموم، وهو من أسباب الصحة.

فهذا إدامه ﷺ وهو بيان واضح وعلم نافع. وزهد وطُهْرٌ وعِفّة، وتعففه هو أسوة لمن يتولى ويحكم ومرجع لذوى الهِمَم العالية والعزة الغالية.

حدثنا قتيبة حدثنا أبو الأحوص عن سماك بن حرب قال: سمعت النعمان بن بشير يقول: ألستم فى طعام وشراب ما شئتم؟ فلقد رأيت نبيكم ﷺ وما يجد من الدَّقَل ما

يملأ بطنه . والدَّقَل هنا هو أردأ أنواع التمر . فكم بلغ به من الجوع حتى أنه ﷺ لا يجد التمر الذى يوضع فاكهة على موائد الناس بل لا يجد النوع الذى تأباه النفوس وهو الردىء منه .

هو كذلك ولا يشعر به أحد حيث لا يسأل أحداً لأن الجائع يُرْجَع إليه ليَسُد جوع الناس فكيف لو لجأ إليه أحد فوجده متأثراً فى ظاهره فقد يستحى ويعود ولكنه فى قوته البشرية ومظهره الكامل لا يرى إلا وهو فى تمام الحال . ولا يعلم بحاله إلا الله .

ومع ذلك كان إذا وجد طعاماً شهياً ساقه الله إليه أكله شاكراً حتى يدور فيه وعليه سنة الحياة من جوع وشبع وغنى وفقر وصحة ومرض .

حدثنا هناد حدثنا وكيع عن سفيان عن أيوب عن أبى قلابة عن زهدم الجرمى قال : كنا عند أبى موسى الأشعرى أنه أُوتى بلحم دجاج فتنحى رجل من القوم فقال : مالك ؟ فقال : إنى رأيتها تأكل شيئاً (أى شيئاً قذراً) فحلفت ألا أكلها : قال : ادن (أى قرب منى) فإنى رأيت رسول الله ﷺ يأكل لحم الدجاج .

تواضعه ﷺ

مع تواضعه ﷺ مع شرف نبوته وعظيم رسالته مع الغاية الكمالية الكبرى هذه الأخلاق الربانية وهذه الدرجات العالية التى جعلها الله سبحانه وتعالى فيها وإليها .

فهو صاحب الوسيلة وهو صاحب الفضيلة وهو صاحب الدرجة العالية الرفعية وهو

صاحب المقام المحمود ﷺ .

حدثنا أحمد بن منيع وسعيد بن عبد الرحمن المخزومي وغير واحد قالوا : حدثنا سفيان بن عيينة عن الزهري عن عبيد الله عن ابن عباس عن عمر بن الخطاب قال : قال رسول الله ﷺ : «لا تَطْرُوني كما أَطْرَتْ النصارى ابن مريم إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله». أي لا تبالغوا في مدحي بالباطل كما بالغت النصارى في مدح سيدنا عيسى عليه السلام فجعلوه إلها . أو ابنا لإله أو ثالث ثلاثة .

وقد قال الله تبارك وتعالى : ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ «المائدة - ٧٥»

والمصطفى ﷺ له صفتان فيهما الشمول الكامل لحضرته ﷺ .

العبودية والرسالة لأنه عين الكمال الإنساني .

حدثنا علي بن حجر . أنبأنا سويد بن عبد العزيز عن حميد عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن امرأة جاءت إلى النبي ﷺ فقالت له : إن لي إليك حاجة .

فقال : اجلسي في أي طرق المدينة شئت أجلس إليك (والغرض من ذلك ألا يسمع شكواها أحد) وهذا حفاظ على أسرار الناس ومراعاة لمشاعرهم وقضاء مصالحهم .

فقد جاء في رواية مسلم : فخلا معها في بعض الطريق حتى فرغت من حاجتها .

وهي مبالغة منه ﷺ في الاهتمام بالأمة مع غاية التواضع الجَمِّ . والخُلُق العالي محققاً قوله تعالى : ﴿واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين﴾ .

حدثنا علي بن حجر . أنبأنا علي بن مسهر عن مسلم الأعور عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يعود المرضى ويشهد الجنائز ويركب الحمار.ويجيب دعوة

العبد وكان يوم بنى قريظة على حمار مخطوم بحبل من ليف عليه إكاف من ليف (والخطام هو الزمام أو اللجام الذى يوضع على فم الحيوان لقيادته والإكاف البرذعة لذوات الحافر كالسرج للفرس). وواضح ما ذلك كله من تواضعه ﷺ ومشاركته لأمته.

حدثنا واصل بن عبد الأعلى الكوفى. حدثنا محمد بن فضيل عن الأعمش عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان النبى ﷺ يدعى إلى خبز الشعير والإهالة السنخة هى الدهن يؤتدم به أى يؤكل الخبز به والذى تغيرت رائحته من طول المكث فيجيب الدعوة.

ولقد كان له درع عند يهودى أى كانت درعه وهى «ذات الفضول» مرهونة عند يهودى على دَيْن شعير فما وجد من يفكُّها حتى مات. ولا يخفى أن النبى ﷺ قد فعل ذلك لشدة حاجته إلى الطعام لأهل بيته وإخفاء ذلك عن الناس حتى لا يشعر أحد به.

وفى الحديث أيضاً يدل على غاية تواضعه. ورغبته فى التقلل من الدنيا وآثر عليها الحياة الآخرة.

والحديث يدعو إلى الصبر على الضيق عند العُسْر وكذلك يدعو إلى فك ضيق الناس بالوسائل المشروعة وإلى فك دَيْن الإنسان بالرهن وأن ينتظر المسلم فرج الله تعالى، وإن فرج الله قريب.

حدثنا محمود بن غيلان حدثنا أبو داود الحفرى عن سفيان عن الربيع بن صبيح عن يزيد بن أبان عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: حج رسول الله ﷺ على رَحْل رث وعليه قطيفة لا تساوى أربعة دراهم فقال: «اللهم اجعله حجاً لا رياء فيه ولا سُمْعة» وظاهر

من الحديث أن البعير الذى ركبه ﷺ كان متواضعاً فقطَبُه (وهو كالسرج للفرس والبرذعة للحمار) كان قديماً بالياً.

وقطيفته وهى كساء البعير لا تساوى أربعة دراهم.

وأراد بذلك ﷺ أن يخرج للحج فى هذا الحال المتواضع رغبة فى الله ورهبة منه متجرداً من كل مظاهر الدنيا فى ملبسه وإحرامه وركوبه وفى فعله ﷺ إظهار لتمام العبودية وافتقارا للربوبية وفيه تشريع وتعليم للأمة أن يصحح المسلم قصده ونيته لله حتى يكون عمله خالصاً ابتغاء مرضاة الله لا رياء فيه ولا سُمْعَة حيث إن الرياء يبطل العمل ويفسده. ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾ والحج من أعظم السبل التى على المسلم أن يحرص على أدائها على الوجه الأكمل ظاهراً وباطناً.

حدثنا عبد الله بن عبد الرحمن أنبأنا عفان حدثنا حماد بن سلمة عن حُمَيْد عن أنس ابن مالك رضي الله عنه قال: لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله ﷺ قال: وكانوا إذا رأوه لم يقوموا لما يعلمون من كراهته لذلك وحب صحابته والمؤمنين له ﷺ من كمال الإيمان وَوَرَدَ. «لا يَكْمُل إيمان أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين» وذلك لما أحسّوا وذاقوا حلاوة الصحبة الشريفة ومدى ارتباطه ﷺ وحبه لإخوانه وحُسن معاشرته وجليل خصاله وكراهية النبى ﷺ للقيام هو شدّة تواضع منه مع جواز القيام لأهل الفضل من الصالحين. وكان لا يكره قيام بعضهم لبعض.

وورد أن النبى ﷺ كان يقوم لعدى بن حاتم كلما دخل عليه وكان يقوم لعبد الله بن

أم مكتوم ويفرش رداءه ليجلس عليه ويقول «أهلاً بالذى عاتبنى فيه ربى» وأمر يهود بنى قريظة أن يقوموا لسعد بن معاذ رضي الله عنه فقال: «قوموا لسيدكم».

حدثنا محمد بن عبد الله بن بديع حدثنا بشر بن المفضل حدثنا سعيد عن قتادة عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أهدى إلى كراع لقبلت ولو دعيت عليه لأجبت (والكراع من البهيمة هو ما دون الركبة) وكان يجيب ﷺ الدعوة على هذا النوع من الطعام المتواضع تأليفاً للقلوب وزيادة فى المحبة وتواضعاً منه صلوات الله وسلامه عليه.

حدثنا محمد بن بشار حدثنا عبد الرحمن حدثنا سفيان عن محمد بن المنكدر عن جابر رضي الله عنه قال: جاءنى رسول الله ﷺ ليس براكب بغل ولا برغون (أى أبل) أو فرس أى جاء ماشياً.

حدثنا محمد بن إسماعيل حدثنا عبد الله بن صالح حدثنا معاوية بن صالح عن يحيى بن سعيد عن عمرة قالت. قيل لعائشة رضى الله عنها: ماذا يعمل رسول الله ﷺ فى بيته؟ قالت: كان بشراً من البشر يَفْلى ثوبه (أى يفتش ثوبه ليلتقط منه ما علق به نحو الشوك أما الحشرات كالْقَّمل وغيرها فلا تغشى أجساد الأنبياء) ويحلب شاته ويخدم نفسه.

وفى رواية يخيط ثوبه. ويخصف نعله (أى يخيط ما كان من فتق ونحوه) وفى رواية أخرى يرقع ثوبه وبعمل ما يعمل الرجال فى بيوتهم. وفى رواية أخرى أيضاً يعمل أهل البيت وأكثر ما يعمل الخياطة. وعلى الجملة مع ورد عن السيدة عائشة رضى الله عنها

في حديث البخاري كان في مهنة أهله . فإذا حضرت الصلاة قام إلى الصلاة فلا يشغله حقٌ عن حق . وكلٌ له حقه . كما أخبر ﷺ : «إن لربك عليك حقاً وإن لبدنك عليك حقاً ، وإن لأهلك عليك حقاً ، فأعط لكل ذى حقه حقه» .

ومع ذلك ينبغي للرجل أن يكون متواضعاً معواناً لأهله والتواضع عموماً هو من أخلاق الإسلام الرفيعة وقال في ذلك ﷺ : «التواضع لا يزيد العبد إلا رفعة فتواضعوا يرحمكم الله» .

خُلُقَ رسول الله ﷺ

إن خُلُقَ رسول الله ﷺ محيط لا ساحل له ومازالت النفوس عطْشى إلى الارتواء من نوره وهداه وطبعه وسجاياه ﷺ .

حدثنا إسحاق بن موسى حدثنا يونس بكير عن محمد بن إسحاق عن زياد بن أبيه عن محمد بن كعب القرظي عن عمر بن العاص قال : كان رسول الله ﷺ يقبل بوجهه وحديثه على أشر القوم يتألفهم بذلك فكان يقبل بوجهه وحديثه على حتى ظننت أني خير القوم . قلت : يا رسول الله أنا خير أم أبو بكر ؟ قال : أبو بكر . فقلت يا رسول الله. أنا خير أم عمر . فقال : عمر . فقلت : يا رسول الله أنا خير أم عثمان ؟ فقال : عثمان . فلما سألت رسول الله ﷺ فصدقني فلوددت أني لم أكن سألته .

فمن هذا الحديث في شمائله نعلم مدى بعد نظره ﷺ في معاملة الناس . وأن اللقاء الطيب الكريم له أثره وعمقه الجميل في النفس البشرية فالمعاملة الحسنة تثبت القلوب وتصفيها من الأكدار والرواسب .

ومقابلة أهل الشر بالتبسم جائز شرعاً ما عدا نفاقهم كذباً وبهتاناً.

ومن هذا الحديث أيضاً: نرى كيف أعطي النبي ﷺ كل صحابي حقه وإن كان غائباً عن مجلسه فهو مرآة الحق والعدل وصدق عمرو بن العاص قوله وهو الصادق المصدوق دائماً. فذكر أفضلية أبي بكر وعمر وعثمان عليه وذلك موافقة لكتاب الله العزيز حيث قال الحق تبارك وتعالى في شأنهم ومن معهم ﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار﴾.

ولكن جمع الله هؤلاء ومن بعدهم في قوله جل شأنه. ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَّنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٧٤)﴾ «الأنفال: ٧٤».

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنكُمْ وَأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧٥)﴾ «الأنفال: ٧٥».

حدثنا هارون بن إسحاق الهمداني حدثنا عبدة عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما ضرب رسول الله ﷺ بيده شيئاً قط إلا أن يجاهد في سبيل الله ولا ضرب خادماً ولا امرأة. والمراد نفي الضرب المبرح أما الضرب للتأديب فهو من محاسن الشرع وهو نافع ولا يلجأ إليه المسلم إذا كان المتأدب يصلح بالكلمة الطيبة والموعظة الحسنة.

أما في الجهاد فيضرب المقاتل بيده وسيفه ورمحه وسهمه وبكل شيء ما دام ذلك في سبيل الله.

حدثنا أحمد بن عبدة الضبي حدثنا فضيل بن عياض عن الزهري عن عروة عن عائشة قالت: ما رأيت رسول الله منتصراً من مظلمة ظلمها فقط. ما لم تنتهك حرمة من محارم الله فإذا انتهك شيء من محارم الله كان أشدهم غضباً. وما خُيِّر ﷺ بين

أمرين إلا اختار أيسرهما إن لم يكن مأثما .

أى لم يكن من خلق رسول الله ﷺ أن ينتقم ممن ظلمه أو أن يأخذ بالثأر فى خاصة نفسه بل يعفو ويصفح متأدباً بأدب القرآن : ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾ وقد ثبت أنه عفا ﷺ عَمَّن جذبه بردائه حتى أثَّر فى عنقه الشريف وقال له : إنك لا تعطينى من مالك ولا من مال أبيك فضحك النبى ﷺ وأمر له بعطاء يرضيه ، لماَ كان عليه من الحلم والصبر والاحتمال ، ومع ذلك كان يغضب غضباً شديداً إذا انتهك شيء من محارم الله . وكان يقيم حد الله تعالى على من ارتكب ذلك لصلابته فى الدين ولأن الغفر ضعف ومهانة . ويشجع على التهاون بحدود الله فتسوء العاقبة .

وهذا مبدأ الحكم والولاية فى الإسلام ألا ينتقم الحاكم لنفسه وألا يتهاون فى إقامة الحدود الشرعية .

وكان ﷺ يختار الأيسر من الأمور عندما يخير بين شيئين ما لم يكن الأيسر يدعو إلى الإثم والمعصية .

حدثنا عبد الله بن عمران القاسم القرشى المكى حدثنا إبراهيم بن سعد عن ابن شهاب عن عبيد الله عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : «كان رسول الله ﷺ أجود الناس بالخير وكان أجود ما يكون فى شهر رمضان حتى ينسلخ فيأتيه جبريل عليه السلام فيعرض عليه القرآن فإن لقيه جبريل كان رسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة وجوده ﷺ شامل العطاء كله للناس لكل ذى حاجة ومسألة عنده ، لا يرد من سأله ولا يمضى صاحب الحاجة إلا وقد وجد بغيته لديه . ﴿ وأما السائل فلا تنهر ﴾ .

فكان حركة دائبة في قلوب المؤمنين ففي كل يوم يجدون فيه راحة قلوبهم وييسر عسرهم وفرج كربهم وأمن خوفهم .

وكان ﷺ لا يُبَارى ويُجَارى في جوده فكان هذا الوصف حقا في شمائله المطهرة وهو

أنه أجود من الريح المرسلة وفي رمضان شهر الخير والبركات والألفة والصلات يكثر جوده حتي يظهر المعنيان الكريمان وهو صلة العبد بالله صياما وصلته ﷺ بالناس جودا وكرمًا وإقبالا وحبا.

وفي الحديث يتجلي شيء عظيم وهو تلاوة كتاب الله تعالى ومراجعته مع أمين الوحي سيدنا جبريل عليه السلام.

فكان يأتيه في كل رمضان فيعرض عليه القرآن فيقرأ النبى ﷺ القرآن على جبريل. وقد جاء في صحيح البخاري ومسلم.

«كان جبريل عليه السلام يلقاه ﷺ كل ليلة في رمضان يعرض على النبى ﷺ القرآن وفي العام الأخير من عمره المبارك ﷺ قرأه عليه مرتين وذلك إشارة إلى نهاية نزول الآيات عليه والتأكد منها وذلك من باب العلم والتوثيق في الأمور العظام مع عصمة النبى ﷺ ومع أمانة جبريل عليه السلام ولكن هي حكمة الله للبشر حتي يدركوا هذا المعنى على حقيقته.

وهناك شيء آخر يضاف إلى هذا المعنى وهو أن يراجع المسلم نفسه مع التلاوة في رمضان وفي غيره حتي يبصر أعماله من خلال قراءته بمعني أنه يقرأ قوله تعالى ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ ﴾. «المزمل - ٢٠»

وهو يدرك ما هو عليه من الإهمال مثلا في أداء الصلاة في وقتها أو عدم الصلاة بالمرة. وكذلك في قوله تعالى: ﴿ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾. «المزمل - ٢٠»

فهل هو يؤدى زكاة أمواله وقد أفاء الله عليه من النعم والخيرات، إذن مراجعة القرآن ليست عدد المرات التى يتلو فيها ا لمسلم. و لكن المراجعة هى مراجعة أعماله فيها. ماهو

أمْر وماهو حلال وماهو حرام وأن يفرق بين عدله وظلمه وصدقه وكذبه وحقه وباطله، هذا في ظاهر المسلم، وكذلك في باطنه من الحقد والحسد وسوء الظن وما وراء ذلك.

وكذلك سلامة القلب وطهارة النفس، فكل مسلم يري ذاته ويري صفاته من خلال القرآن عندما يتلو حتى يزداد إيمانه ويرقى يقينه ويثبت علي دينه تصديقا لقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ «الأنفال: ٢».

وبذلك يخرج المسلم من تلاوته على عهد جديد مع الله تبارك وتعالي. وهكذا في كل أحواله يقيسها بمقياس الله ويستشعر عظمة نداء الحق للمؤمنين. ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ في كل تشريعات الله وهكذا يكون القرآن نافعا للمسلم في دينه ودنياه وفي آخرته.

مازالت الشمائل المحمدية تظلنا بظلها ومددها الوفير وعلمها وبيانها وما في ذلك كله من الهدي والصراط المستقيم.

حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا جعفر بن سليمان الضبعي عن ثابت عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان النبى ﷺ لايدخر شيئا لغد. وذلك لكمال توكله. ومع ذلك كان يدخر لعياله قوت سنة وكان يصرف مما ادخر ويؤثر المحتاج. وادخاره ﷺ لم يكن لخشية العَدَم بل لكثرة الكَرَم.

حدثنا هارون بن موسى أن أبا علقمة المدينى قال حدثنا أبي عن هشام بن سعيد عن زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه؟ أن رجلا جاء إلي النبي ﷺ فسأله أن يعطيه فقال النبي ﷺ: «ماعندى شيء ولكن ابتع علي فإذا جاءني شيء قضيته (أى اشترِ ما تحتاج بدين يكون علي أداؤه)» فقال عمر: يارسول الله قد أعطيته فما كلفك الله مالاتقدر عليه فكره ﷺ قولة عمر. فقال رجال من الأنصار: يارسول الله

أنفق ولاتخف من ذى العرش إقلالا . فتبسم رسول الله ﷺ وعرف فى وجهه البشر لقول الأنصارى ثم قال : « بهذا أمرت » وهذا من خصوصياته ﷺ أن ينفق سواء كان لديه ما يعطى أو لم يوجد . أما بقية الأمة فلا تكلف بذلك بل من الزائد عن الحاجة الضرورية إلا من أراد أن يؤثر غيره عليه ولو كان به خصاصة .

وذلك تصديقا لقوله تعالى : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ «الحشر - ٩» .

حدثنا على بن خشرم وغير واحد . قالوا حدثنا عيسى بن يونس عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة . أن النبى ﷺ كان يقبل الهدية ويثيب عليها (أى يجازى عليها بإعطائه بدلها) فيسن قبول الهدية إذا خلت من شبهة فهى تزيد الألفة والمودة بين الناس وهى من أسباب المحبة والقرب .

حدثنا محمود بن غيلان حدثنا أبو داود حدثنا شعبة عن قتادة قال : سمعت عبد الله بن أبى عتبة يحدث عن أبى سعيد الخدرى قال : كان رسول الله ﷺ أشد حياء من العذراء فى خدرها . وكان إذا كره شيئا عرف فى وجهه ، أى حياؤه ﷺ شديد ، والحياء من الأخلاق العالية النبيلة كان يتصف به ﷺ ويظهر ذلك في العبارة الأخيرة من الحديث : وهو أنه لايبدو منه إذا كره شيئا إلا انقباض وجهه فقط ولايفرح بكراهة شىء والحياء شعبة من الإيمان إذا تخلق به المؤمن كان حسن الطاعة لله تبارك وتعالى وكان حسن المعاشرة للناس .

أما إذا انعدم الحياء فلا حياة . وفى الحديث " « إذا لم تستح فاصنع ماشئت » حيث لا ضابط ولا ميزان «فالحياء خير كله» .

حدثنا عبد الله بن عبد الرحمن حدثنا روح بن أسلم أبو حاتم البصرى حدثنا حماد بن سلمة أنبأنا ثابت عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : «لقد أوذيت فى الله ومايؤذى

أحد، ولقد أتت على ثلاثون من بين ليلة ويوم مالى ولبلال من طعام يأكله ذو كبد إلا شيء يواريه أبط بلال» أى شيء بسيط جدا يخفيه بلال تحت إبطه لقلته».

ومعنى ذلك أن رسول الله ﷺ قد نال فى كثير من الأذى والعناء والتعب في تبليغ رسالته وما صاحب ذلك من التحمل الشديد والصبر الجميل فقد أخافه قومه بكل أساليب التدهيد والتخويف حتي وصلوا بذلك الي التهديد بقتله.

﴿ إِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠) ﴾ «الأنفال: ٣٠».

ولايخفى على مسلم ما أوذى به الرسول ﷺ في سبيل عقيدته ودينه، وكان وحده في إظهار دين الله حتى انتشر الإسلام وعم الآفاق وتمت كلمة الله. ﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ﴾ «التوبة - ٤٠»، وهي العليا دائما لأنها كلمة الحق.

ويذكر النبي ﷺ مدى ما كان يصيبه من الجوع فى الليالى ذوات العدد حيث لايوجد معه طعام وإن وجد فهو يسير لايكاد يذكر.

إن الدعوة الى الله يحتاج رجالها من أمة الدعوة والي أصحاب العقائد المتينة الثابتة وإلى الرسوخ والثبات أمام عواصف الباطل وعاديات الضلال.

ففى النهاية هناك نهاية للباطل والضلال وصدق الله حيث قال: ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (٨١) ﴾ «الإسراء - ٨١».

قال الإمام أحمد. حدثنا كثير حدثنا هشام. حدثنا جعفر حدثنا عمران القصير عن أنس بن مالك قالك خدمت النبى ﷺ عشر سنين فما أمرني بأمر توانيت عنه أو ضيعته فلامنى و ما لامنى أحد من أهله إلا قال: دعوه فلو قُدِّر. أو قال: قُضِيَ أن يكون لكان.

وقال يعقوب بن سفيان حدثنا أبو نعيم حدثنا عمران بن زيد عن أنس بن مالك قال:

كان رسول الله ﷺ إذا صافح أو صافحه الرجل لاينزع يده من يده حتى يكون الرجل ينزع يده وإن استقبله بوجهه لايصرفه عنه ولا يُرَى مقَدمًا ركبتيه بين يدي جليس له.

وقال الإمام أحمد حدثنا أبو عامر عن هلال بن علي عن أنس بن مالك قال: لم يكن رسول الله ﷺ سبابا ولا لعّانا ولا فاحشاً يقول لأحدنا عند المعاتبة: «مالك تربت جبينك».

هذه العبارة فقط هي التي كان ينطق بها وما شابهها مثل: «تربت يمينك».

ولايُغْضب أحداً فى نفسه وإنما أراد أن يعلمهم حُسْن الكلمة وحسن العبارة كما قال الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ «البقرة: ٨٣».

روى الإمام البخارى رضي الله عنه من حديث فُلَيْح بن سليمان عن هلال بن على عن عطاء بن يسار عن عبد الله عن عمر أنه قال: إن رسول الله ﷺ موصوف فى التوراه بما هو موصوف في القرآن. «يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأميين أنت عبدي ورسولى سميتك بالمتوكل ليس بفظٍ ولا غليظ ولاصخاب بالأسواق ولايجزى بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح ولن يقبضه الله حتي يقيم به الملَّة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله ويفتح أعينا عميا وآذاناً صُما وقلوباً غُلْفًا».

هذا والأخلاق النبوية الشريفة كل لايتجزأ فهو ﷺ حليم فى مواطن الحلم صبور في مواطن الصبر حييّ في مواطن الحياء، وهكذا كما وصفته السيدة عائشة رضى الله عنها كان خلقه القرآن.

ومن هنا نجده ﷺ أكمل مايكون شجاعة وإقداماً إذا حدث مايقتضى ذلك.

ففى الصحيحين واللفظ لمسلم من حديث حماد بن زيد عن ثابت عن أبي قلا: كان

رسول الله ﷺ أحسن الناس وكان أجود الناس وكان أشجع الناس. وقد فزع أهل المدينة ذات ليلة فانطلق ناس قِبَل الصوت فتلقاهم رسول الله ﷺ راجعا وقد سبقهم إلى الصوت وهو على فرس لأبى فى عنقه السيف (أى مستعد لمواجهة أى عدوان) وهو يقول: لن تُراعوا لن تُراعوا (أى لاتفزعوا ولا تخافوا) قال: وجدناه بحرا أى وجدنا الفرس يجرى بسرعة فائقة وكان واسع الجرى.

وفى رواية كنا إذا اشتد بالبأس اتقينا برسول الله ﷺ لشدة شجاعته وقوته فى مواطن البأس والقتال.

معجزاته ﷺ

القرآن الكريم:

التأديب والتأييد من الله فسبحان من أدَب رسوله ﷺ وسبحان من أيده. ويحق لنا كما عشنا فى شمائله الشريفة وأحواله اللطيفة خَلْقا وخُلُقاً أن نراه ﷺ فى أبهى آيات الإعجاز قولاً بالقرآن والإلهام وفعلاً لتكون الحجة بالغة حِسًّا ومعنى. بالمعجزة الدامغة لأنها من الله نصرة لرسوله ﷺ.

والمعجزة كما عرَّفها العلماء هى أمر خارق للعادة يظهره الله تعالى على يد مُدَّعى النبوة تصديقاً له وهذه سنة الله التي كانت لرسله وظهرت فيها قدرته وتجلّت فيها حكمته.

وكان كل نبي فى عهد يناسبه معجزة خاصة يواجه بها قومه. ففى عهد الجدل كانت حجة إبراهيم عليه السلام ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ﴾ «الأنعام -٨٣» وفى عهد

السحر كانت الحية والعصا وأيد الله موسى عليه السلام قال تعالى: ﴿فألقى عصاه فإذاهى ثعبان مبين * ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين﴾.

وفى عهد الطب، كان إبراء الأكمه والأبرص بل إحياء الموتى بإذن الله، فأيد الله نبيه عيسى عليه السلام أيده بذلك كما أخبر فى كتابه العزيز ﴿وتبرئ الأكمه والأبرص بإذنى وإذ تخرج الموتى بإذنى﴾ «المائدة: ١١٠».

هذا وهناك معجزات حِسّية كثيرة كانت فى الأزمنة السابقة وكان لها وقتها ثم انتهت بانتهاء أصحابها وظروفها.

أما معجزته ﷺ الكبرى وهى القرآن الكريم فلم تكن كالمعجزات الحسيّة انتهت بانتهاء حدوثها وإنما هى المعجزة الخالدة الأبدية.

ولم تكن معجزة القرآن هى المعجزة الوحيدة. هناك معجزات حِسِّية كثيرةنذكرها بعد معجزة القرآن الكريم.

والقرآن الكريم معجزٌ كلّه فى حسن تأليفه والتئام كَلِمة وفصاحته وبلاغته الخارقة وقوة إيجازه.

فهو كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد أحكمت آياته وفصِّلت كلماته وبهرت بلاغته العقول وتضافر إيجازه وإعجازه وتظاهرت حقيقته ومجازه وتبارت في الحسن مطالعه ومقاطعه وحوت كل البيان جوامعه وبدائعه.

ذكر أبو عبيدة أن أعرابياً سمع رجلاً يقرأ قول الله تعالى: ﴿فاصدع بما تؤمر﴾. «الحجر: ٩٤». فسجد الأعرابى وقال: سجدت لفصاحته. وسمع آخر يقرأ: ﴿فلما استيأسوا منه خلصوا نجياً﴾ «يوسف: ٨٠» فقال: أشهد أن مخلوقاً لايقدر على مثل هذا الكلام.

وقد تحدى القرآن هؤلاء على فصاحتهم وبلاغتهم وقوة بيانهم في قوله تعالى: ﴿ أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنت صادقين ﴾.

وهيهات أن يكون ذلك لأن الله الذى أنزله هو أعلم بقدرتهم العاجزة وعقولهم المحدودة ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ «البقرة: ٢٣ - ٢٤».

ومن أوجه الإعجاز ما انطوى عليه من الإخبار بالمغيبات وما لم يكن ولم يقع فوجد كما ورد على وجه الذى أخبر به.

وذلك كقوله تعالى: ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ «الفتح: ٢٣»

وقوله تعالى: ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (٣) ﴾ «النصر»

وقوله تعالى ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ «الفتح: ٢٨»

وقوله تعالى: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ «النور: ٥٥»

وقوله تعالى: ﴿ الم (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ

(٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٥) وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٦) ﴾ «الروم: ١-٦»

هذا وقد حدث كل ذلك فغلبت الروم في بضع سنين ودخل الناس في الإسلام أفواجاً كما قال، فما مات ﷺ ولحق بالرفيق الأعلى وفى بلاد العرب كلها موضع لم يدخله الإسلام.

واستخلف الله المؤمنين في الأرض وملّكهم إياها من أقصى المشارق إلى أقصى المغارب كما قال ﷺ: «زويت لى الأرض فأُريتُ مشارقها ومغاربها وسيبلغ مُلْك أمتى ما زوى منها».

ومن أوجه إعجاز القرآن الكريم ما أنبأ به من أخبار القرون السالفة والأمم البائدة.

ومعلوم أن النبى ﷺ أمي لايقرأ ولايكتب. وكانوا كثيرا مايسألوه عن هذا فينزل عليه من القرآن مايلتو عليهم منه. ذلك كقصص الأنبياء مع قومهم وخبر موسى والخضرويوسف وإخوته والإنجيل والزبور وصحف إبراهيم وموسى.

لم يقدروا على تكذيب ما ذكر بل أذعنوا لذلك وآمن منهم من آمن ونجا من نجا وذلك فضل من الله تبارك وتعالى.

ومن أوجه إعجاز القرآن الكريم ماجاء فيه من الآيات التى تتحدث عن علوم الكون والفلك والبحار والجبال والرياح والنبات ومايتعلق بالإنسان كعلم الأجنّة والسمع والبصر والبصمة وما وراء ذلك مما هو واضح جلّى من آيات الله تبارك وتعالى.

ووصل العلم إلى ما وصل إليه. وكان القرآن ولايزال حجة بالغة فى سائر العلوم على مدى الدهر كله وإلى أن تقوم الساعة.

يقول ﷺ : « إن الله أنزل هذا القرآن آمراً وزاجراً وسُنَةً خالية (أى طريقة مُتَّبعَة مستقيمة) ومثلاً مضروباً وحُكْم ما بينكم لايخلقه طوال الرد ولاتنقضى عجائبه .

هو الحق اليس الهزل ، من قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن خاصم به فلج (ى فاز وظهر بالغلبة) ومن قسم به أقسط (أى عدل) .

ومن عمل به أُجِرَ ، ومن تمسك به هُدِىَ إلى صراط مستقيم . ومن طلب الهدى من غيره أضلّه الله .

ومن حكم بغيره قسمه الله (أى أهلكه هلاكاً شديداً) .

هو الذكر الحكيم والنور المبين والصراط المستقيم وحبل الله المتين والشفاء النافع عصمة لمن تمسك به ونجاة لمن اتبعه لايَعْوَّج فيقوم ولايزيغ فيستغيث (أى لايميل عن الحق والصواب) ولاتنقضى عجائبه ولايخلق على كثرة الرد .

وبالجملة فالقرآن الكريم هو الحجة الدامغة وهو الحكم الفاصل . والقضاء العادل . به يكون الفرقان بين الكفر والإيمان . والحق والباطل والظلم والعدل . والحلال والحرام . والنور والظلمات والصلاح والفساد . فيه خير لا ينفد وعلم لا يُحَد .

يقول الله تبارك وتعالى . ﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (١٠٩) قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠) ﴾ ﴿الكهف ١٠٩-١١٠﴾ .

ويقول جل شأنه : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ ﴿لقمان :٢٧﴾ .

القرآن الكريم معجزة التحدى لكل العقول مهما بلغت ومهما اتحدت فالتحدى قائم ولا يزال .

﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ «الإسراء: ٨٨»

حقا: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾

﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ (٢١) فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ (٢٢) ﴾ «البروج: ٢١-٢٢».

معجزاته ﷺ الحسية

بعد أن كنا مع معجزة رسول الله ﷺ الكبرى وهى القرآن الكريم ننتقل إلى المعجزات الحسية وهى كثيرة.

ولكن نذكر بعضاً منها على سبيل المثال والعلم ولا على سبيل الحصر والعد ففضل الله واسع.

١ - فمن المعجزات الحسية انشقاق القمر....

وقد أجمع المفسرون وأهل السنة على وقوعه. قال تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ (١) وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ (٢) وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ (٣) وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ (٤) حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ (٥) ﴾ «القمر: ١-٥».

وحديث انشقاق القمر قد أخرجه كثير من المحدثين أخرجه البخارى فى نفسيره ومسلم والترمذى والنسائى. وقال الترمذى حسن صحيح، وفى مسند أحمد برواية الأسود. وفى الدلائل للبيهقى برواية مسروق. ورواه علقمة عن ابن مسعود. عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فرقتين: فرقة فوق الجبل، وفرقة دونه. وقال رسول الله ﷺ: «اشهدوا» وفى رواية مجاهد: ونحن مع النبى ﷺ وفى بعض طرق الأعمش بمعناه.

ورواه أيضاً عن ابن مسعود الأسود بن يزيد بن قيس : حتى رأيت الجبل بين فرجتى القمر . ورواه عنه مسروق : أنه كان بمكة وزاد فقال كفار قريش : سحركم ابن أبى كبشة .

فقال رجل منهم : إن محمداً إن كان سحر القمر فإنه لا يبلغ من سحره (أى لا يستطيع بسحره) أن يسحر الأرض كلها . فاسألوا من يأتيكم من بلد آخر هل رأوا هذا؟ فأتوا فسألوهم . فأخبروهم أنهم رأوا ذلك .

وحكى السمرقندى عن الضحاك نحوه (أى مثل ذلك) فقال أبو جهل : هذا سحر فابعثوا إلى أهل الآفاق حتى تنظروا أرأوا ذلك أم لا ؟ فأخبر أهل الآفاق أنهم رأوه منشقاً . فقالوا : (يعنى الكفار) هذا سحر مستمر .

وآية القمر كانت ليلاً والروايات فى ذلك عديدة تبين حقيقة المعجزة التى تحدث عنها القرآن الكريم . ﴿ومن أصدق من الله قيلا﴾ ﴿ومن أصدق من الله حديثاً﴾ (النساء:٨٧-١٢٢).
وبعد انشقاق القمر نصفين.

٢- نرى معجزة نبع الماء من بين أصابعه الشريفة .

وقد روى الحديث جماعة من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين . منهم أنس بن مالك - وجابر بن عبد الله بن مسعود . عن أنس بن مالك رضي الله عنه : رأيت رسول الله ﷺ وحانت صلاة العصر فالتمس الوضوء (أى الماء الذى يتوضأ منه) فأوتى رسول الله ﷺ بوضوء (أى بماء) فوضع رسول الله ﷺ فى ذلك الإناء يده وأمر الناس أن يتوضأوا منه .

قال : فرأيت الماء ينبع من بين أصابعه فتوضأ الناس حتى توضأوا عن آخرهم . قال : كم كنتم؟ قال : زهاء ثلاث مائة .

وفى رواية : لو كنا مائة ألف لكفانا . وقد نبع الماء من بين أصابعه الشريفة ﷺ فى مواطن مختلفة .

٣- ومن المعجزات الحسية التى شوهدت يقينا وجاءت الأحاديث الصحيحة بذكرها تكثير الطعام ببركته ﷺ ودعائه الشريف.

ومن ذلك ما حدث به أبو أيوب الأنصارى: أنه صنع لرسول الله ﷺ ولأبى بكر رضي الله عنه . زهاء ما يكفيهما فقال له النبى ﷺ: ادع ثلاثين من أشراف الأنصار. فدعاهم فأكلوا حتى شبعوا (وقال: حتى تركوا أى شبعوا) ثم قال: ادع ستين فكان مثل ذلك. ثم قال: ادع سبعين. فأكلوا حتى تركوا (أى شبعوا) وما خرج منهم أحد حتى أسلم وبايع. قال أبو أيوب: فأكل من طعامى مائة وثمانون رجلاً. والأحاديث فى ذلك لا تنكر وهى كثيرة فى هذا الباب.

٤- أما حنين الجذع له ﷺ فقد وردت فيه أحاديث صحاح.

قال جابر بن عبد الله: كان المسجد مسقوفاً على جذوع نخل. فكان النبى ﷺ إذا خطب يقوم إلى جذع منها فلما صنع له المنبر سمعنا لذلك الجذع صوتاً كصوت العشار (أى الناقة حين تضع). وفى رواية لأنس: حتى ارتج المسجد لخواره (أى لصوته) وفى رواية سهل: وكثر بكاء الناس لما رأوا له.

وفى رواية حتى جاءه النبى ﷺ فوضع يده عليه فسكت، وفى رواية أنه قال: والذى نفسى بيده لو لم التزمه لم يزل هكذا إلى يوم القيامة تحزنا على رسول الله ﷺ فأمر به رسول الله ﷺ فدفن تحت المنبر.

وكان الحسن إذا حدَّث بهذا بكى وقال: يا عباد الله الخشبة تحن إلى رسول الله ﷺ شوقاً إليه لمكانه فأنتم أحق أن تشتاقوا إلى لقائه.

٥- وتسبيح الحصى فى يده ﷺ معجزة باهرة كما ورد عن أنس بن مالك رضي الله عنه أخذ النبى ﷺ كفا من حصى فسبحن فى يد رسول الله ﷺ حتى سمعنا التسبيح ثم صبهن

في يد أبي بكر رضي الله عنه فسبحن فصبهن في أيدينا فما سبحن.

وفي رواية أخرى: ثم صبهن في يد عمر فسبحن ثم في يد عثمان فسبحن ثم في أيدينا فما سبحن وعن أنس رضي الله عنه.

٦- صعد النبي ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان «أحداً» وهو جبل «أحد» المعروف فارتجف بهم فقال ﷺ: اثبت أحد فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان.

وقد مات عمر شهيداً. ومات عثمان شهيداً كما أخبر النبي ﷺ وفيه إشارة إلى حركة الجبل وفرحته وقد صعده ﷺ.

٧- وفي إبرائه المرضى صلوات الله وسلامه عليه بإذن الله كثير من الروايات الصحيحة.

حدثنا ابن شهاب وعاصم بن عمر بن قتادة وجماعة ذكرهم بقضية أحد (أي بغزوة أحد بطولها) قال: وقالوا: قال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه. إن رسول الله ﷺ ليناولني السهم لا نصل له (أي لا حديدة له) فيقول: ارم به.

وقد رمى رسول الله ﷺ يومئذ عن قوسه حتى اندقت (أي انكسرت) من كثرة الرمي وأصيب يومئذ عين قتادة بن النعمان حتى وقعت على وجنته (أي خده) فردها رسول الله فكانت أحسن عينيه.

ولا يفوتنا ونحن بصدد معجزاته ﷺ الحسية أن نقف في النهاية على أهم حوادثه ومعجزاته.

الإسراء والمعراج

حيث كانت بالجسم والروح. فهي بالنسبة له ﷺ حسية مشهودة رأى فيها وسمع كما أخبر الحق تبارك وتعالى ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (الإسراء:١).

فلو كان الإسراء والمعراج مناماً وليس حسياً بالجسم والروح لقال الله تعالى «بروح عبده» ولم يقل «بعبده». وفى قول الله تعالى: ﴿ما زاغ البصر وما طغى﴾ «النجم:١٧».

ولو كان مناماً لما كانت فيه آية ولا معجزة ولا ما استبعده الكفار. ولا كذبوا فيه ولا أصبحوا بهذا الحال ولا هذا الافتتان.

إذا لو كان مناماً لما أنكره أحد. ولما جاء بالصورة العلمية الدقيقة التى جاءت فى القرآن الكريم ولا فى السنة المطهرة.

كذلك ما جاء من ذكر صلاته ﷺ بالأنبياء ببيت المقدس. وذكر مجيء جبريل له بالبراق وخبر المعراج واستفتاح السماء فيقال من معك؟ فيقول: محمد ولقائه الأنبياء فيها وخبرهم معه وترحيبهم به وشأنه فى فرض الصلاة ومراجعته مع موسى ذلك.

وقوله: «ثم عرج بى حتى ظهرت بمستوى سمعت فيه صريف الأقلام وأنه وصل ﷺ إلى سدرة المنتهى. وأنه ﷺ رأى الجنة ورأى النار وغير ذلك.

«لقد رأى من آيات ربه الكبرى» «النجم:١٨».

ثم كان ما كان من رؤيته لرب العزة سبحانه وتعالى وقد كشف له كل الحجب حتى من الله على بهذه الرؤية الفريدة بلا حد ولا كيف.

﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ (٩) فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ (١٠) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ (١١)﴾ «النجم:٨-١١».

إلى الرفيق الأعلى

﴿كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون﴾ «القصص:٨٨».

حدثنا أحمد بن منيع حدثنا روح بن عبادة حدثنا زكريا بن إسحق. حدثنا عمر بن

دينار عن ابن عباس قال : مكث النبى ﷺ بمكة ثلاث عشرة سنة والمدينة عشرة وتوفى وهو ابن ثلاث وستين.

وقد ورد تفصيل ذلك فى حديث آخر .

أن النبى ﷺ مكث بمكة قبل البعثة أربعين سنة . ثم جاءه الوحى على رأس أربعين سنة ثم فتر الوحى ثلاث سنين، ثم بدأت الرسالة فمكث يدعو الناس إلى الإسلام عشر سنين فتكون مدة عمره الشريف ثلاث وستون سنة.

حدثنا حسين بن مهدى البصرى حدثنا عبد الرزاق عن بن جُريَج عن الزهرى عن عروة عن عائشة : أن النبى ﷺ مات وهو ابن ثلاث وستين.

أما الأحاديث التى يُفْهَم منها أنه عاش ﷺ فى الدنيا ستين سنة كما جاء عن أنس فى حديثه . وتوفاه الله على رأس ستين سنة وليس فى لحيته عشرون شعرة بيضاء، فلا يُفْهَم منها المخالفة حيث لم يحسب هؤلاء الرواة ومنهم أنس فترة الوحى وهى ثلاث سنوات وكانت الدعوة فيها سراً.

وتم بذلك التوافق بين الروايتين وقد زاد بعضهم سنتى المولد والوفاة.

فقال فى روايته : توفى رسول الله ﷺ وهو ابن خمس وستين وبغير الزيادة يكون الاتفاق. ونأتى إلى نهاية حكم الله بها على عباده بل على الكون كله.

﴿ كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون ﴾ «القصص:٨٨».

وحكم بها على حبيبه ومصطفاه حكم بها على سيد الخلق ورسول الأنام سيدنا محمد ﷺ وأخبره بما قضاه. ﴿ إنك ميت وإنهم ميتون ﴾ «الزمر:٣٠».

وكانت النهاية بعد أن بلغ الرسالة وأدّى الأمانة وجاهد فى سبيلها حق الجهاد ابتغاء مرضاة الله عز وجل وشهد الله بذلك ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم

نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾ «المائدة:٣».

وقبل وفاته ﷺ أصابته الحمّى.

وفى الأحاديث التالية نرى الفترة العصيبة الهامة التى صاحبت موته ﷺ.

حدثنا أبو عمار الحسين بن حريث وقتيبة بن سعيد وغير واحد قالوا حدثنا سفيان بن عُيينة عن الزهرى عن أنس بن مالك قال: آخر نظرة نظرتها إلى رسول الله ﷺ كشف الستارة يوم الاثنين فنظر إلى وجهه كأنه ورقة مصحف أى فى الحُسْن والصفاء الحِسِّى والمعنوى.

والناس خلف أبى بكر فكاد الناس أن يضطربوا فأشار (أى أبو بكر) إلى الناس أن اثبتوا وأبو بكر يؤمهم وألقى السَجف أى الستار.

وتوفى رسول الله ﷺ من آخر ذلك اليوم وهو يوم الاثنين حدثنا نصر بن على الجهضمى حدثنا عبد الله بن دوار حدثنا سلمة بن نُبَيْط أخبرنا عن نُعَيْم بن أبى هند عن نُبيط بن شُرَيْط عن سالم بن عبد الله وكانت له صحبة قال: أغمي على رسول الله ﷺ فى مرضه فأفاق فقال: حضرت الصلاة؟ فقالوا: نعم فقال: مروا بلالاً فليؤذن ومروا أبا بكر فليصل بالناس.

ولما لحق ﷺ بالرفيق الأعلى قام بُغْسله ﷺ علىّ بن أبى طالب لوصية النبى ﷺ بذلك وعاونه فى الغُسْل الشريف العباس عم رسول الله ﷺ والفضل بن العباس وأسامه ابن زيد وشقران مولاه. يناولانه الماء ويصبانه وأعينهم جميعاً معصوبة من وراء ستر. وكفن ﷺ فى ثلاثة أثواب بيض سحولية أى يمنية من اليمن. وهى من قطن ولم يكن فيها قميص ولا عمامة؟

ووضع أبو طلحة زيد بن سهل مسكاً وعطراً فى مواضع فراشه ﷺ وحفر لحده الشريف

بيده ونزل فى القبر على بن أبى طالب والعباس بن عبد المطلب والفضل، ورشَّ بلال قبره بقربة ماء، بدأ من قبل رأسه وجعل على القبر من حصى العرصة بيضاء وحمراء.

وهكذا خرج رسول الله من الدنيا راضياً مرضياً إلى قبره الشريف وبرزخه الموقر فى نعيمه وجنته، مقامه العالى القدر المبارك.

ولم يترك ﷺ من حطام الدنيا شيئاً يذكر. وإنما ترك كل ما يذكر. ترك رسالة عظيمة طاهرة بلغها حق التبليغ فكانت نوراً فى قلوب العباد صراطاً مستقيماً فى حياتهم ونعيماً فى دنياهم وخلوداً يوم القيامة. وإن كان ما لابد من ذكره فى ميراثه ﷺ فهو كما ورد فى الأحاديث. ما ترك رسول الله ﷺ إلا سلاحاً وبغلته وأرضاً جعلها صدقة.

ويروى عن السيدة عائشة رضى الله عنها قولها: ما ترك رسول الله ﷺ ديناراً ولا درهما ولا شاة ولا بعيراً وما بقى لا يورث.

كما قال ﷺ: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة».

طبت حياً وطِبْتَ ميتاً يا رسول الله.

اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد كما صليت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم وبارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد كما باركت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم فى العالمين إنك حميد مجيد.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الفهرس

تم بحمد الله